الشرق في فجر اليقظة

تأليف
أنور الجندي

الشرق في فجر اليقظة

(صورة اجتماعية للعصر من ١٨٧١ إلى ١٩٣٩)

تأليف
أنور الجندي

مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

مطبعة المدني
٦٨ شارع العباسية ـ عمارة النجمة

(١)

ضوءٌ من الأزهر

(١)

ضوء من الأزهر

من قلب الأزهر انبعث ضوء اليقظة قبل مجيء جمال الدين الأفغانى بثلاثة أرباع القرن ، ففى أواخر القرن الثامن عشر (١٧٩٥) قاد الشيخ الدرديرى ثورة المصريين على ظلم الأمراء ، وحملهم على توقيع وثيقة حقوق الإنسان العربية ، ومنذ ذلك اليوم إلى أن قدم جمال الدين الأفغانى إلى مصر (١٨٧١) كان الأزهر قدمضى يقدم أعلامه فى الكفاح والمقاومة والنضال . . قدم عمر مكرم الذى قاد المقاومة الحملة الفرنسية فى معركة الألف يوم ، وقاد المقاومة ضد خورشيد الوالى التركى ، ومن الأزهر ظهر حسن العطار (توفى ١٢٥٠ هـ ١٨٣٥ م) وكان رجلاً مستنيراً تألق فى منصب شيخ الأزهر واتصل بالفرنسيين وحاول أن يتعرف على النهضة العلمية والحضارة الجديدة ، وراسل الفرنسيين بعد خروجهم وكان قد تعلم لغتهم فى مقابل تعليم بعضهم اللغة العربية . وسافر إلى أوربا ومن زملائه وتلاميذه : ثلاث رجال أعلام يمكن أن يكونوا أبرز من ظهر فى القرن الثالث عشر الهجرى (القرن التاسع عشر) .

عبد الرحمن الجبرتى مؤرخ مصر الحديثة ، والرجل المجاهد الذى سجل مظالم محمد على ، ورفاعة الطهطاوى إمام البعثة الأولى إلى فرنسا والعلامة الذى تألق فى مجال التربية والتعليم والترجمة حتى توفى (١٨٦؟) وعياد الطنطاوى الذى هاجر باللغة العربية إلى روسيا فأقام بها حتى توفى هناك . .

وفى خلال هذه الفترة ومابعدها ظهر حسن الطويل أستاذ محمد عبده فى الأزهر ، حتى بزغ نجم جمال الدين فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى ، وأتيح له أن يقيم ثمانى سنوات فى مصر (١٨٧١ — ١٨٧٩) وأن يعيش بين أوربا والهند وتركيا حتى توفى (١٨٩٧) مخلفاً يقظة فكرية عربية إسلامية فى الشرق كله ومن صحن الأزهر ظهرت أسماء ذات دوي أحدثت أثرها فى الفكر والسياسة والمجتمع .

ظهر « عمر مكرم » علم الوطنية والحرية فى هذا الوقت الباكر من أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر . فهو الذى عندما علم بقدوم الحملة الفرنسية صعد إلى القلعة فأنزل منها بيرقاً كبيراً أسمته العامة (البيرق النبوي) فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وقد تجمعت حوله الألوف المؤلفة تهتف بالعمل المقاومة دخول الفرنسيين إلى القاهرة ، فلما دخلها الفرنسيون القاهرة رفض البقاء فيها وهاجر إلى يافا وترك أملاكه وماله نهبا للفرنسيين ، ورفض أن يفاوض فى تسليم بلاده ، وبقى فى منفاه مختارا حتى وصل نابليون يافا وأمر بإعادته معززاً إلى القاهرة فعاد إليها واعتزل فى بيته بعد لثورة القاهرة الثانية عام ١٨٠٠ ، ومنذ ذلك اليوم لم يقض فى مصر أمر دونه ، وقد كان يؤجج الثورة ضد حكم المماليك عام ١٨٠٤ ثم قاد المقاومة ضد الوالى التركى عام ١٨٠٥ .

وهكذا قاوم « عمر مكرم » ظلم الفرنسيين وطغيان المماليك وعسف الولاة الأتراك ، ثم قاوم محمد على بعد أن طغى واستبد ، وكان هو الذى ولاه الحكم .

وأبرز مفاهيمه قوله لرسول الحاكم التركى حين رفض رأى الشعب فى عزله : « إن أولى الأمر هم العلماء وحكم الشريعة والسلطان العادل ، وهذا الحاكم الذى أرسلكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها ، فلقد كان لأهل مصر دائماً الحق فى أن يعزلوا الوالى إذا أساء ، ولم يرض الناس عنه . بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه » .

وتعطى هذه العبارة مدى نضوج عمر مكرم السياسى والفكرى فى هذا الوقت الباكر . .

* * *

وظهر « الجبرتى » الذى اشتغل بكتابة يوميات التاريخ حين كلفه أستاذه « مرتضى الزبيدى » أن يجمع « جذاذات » عن تاريخ الأعلام المائة من المصريين ، وكان يعرف صلاته الوثيقة بكثير من رجالات مصر من أمراء وكبراء ومشايخ وأعيان ، ورسم له الطريقة فقال :

عليك بالتخير والتحرز ، واعلم أنه ليس كل من نبه ذكره عظم فضله ، وأن الفضل قد ينبت فى الصدور الوضيعة ؛ وتغمر الدنيا أصحابه ، فيجب التنقيب عنه

وذوو الفضل أقران فيه ، ولكنهم يتفاوتون فى درجاته ومراميه ، فإياك والإسرافه وعليك القصد » .

وعلى هذا الضوء بدأ الجبرتى يكتب ، ومن هنا تحول عن هواه الأول فى الدراسات الفلكية والحسابية والهندسية ، وكان قد تلقى فى الأزهر علوم الفقه وبرع فيها ، ولكنه أولع بهذه العلوم الرياضية . وبلغ فيها مبلغاً مكنه من تحرير انحراف القبلة لمسجد أبى هريرة بالجيزة غير أن تكليف شيخه الزبيدى دفعه إلى طريق جديد . فقد بدأ يقرأ كتب التاريخ كالطبرى وابن الاثير وابن إياس وحاول الكتابة التاريخية على طريقة وصف الحوادث وكتابة اليوميات .

وقد عاصر الجبرتى عصر المماليك قبل الحملة الفرنسية واشترك فى مقاومة الحملة مع بعض رجال العصر وشهد جانباً كبيراً من حياة محمد على .

ولقد لقى الجبرتى عنتاً كبيراً فى تسجيل مظالم محمد على ، فقد صودرت كتاباته عن ذلك العصر وأحرقت .

* * *

أما « حسن العطار » فقد كان معنياً بقراءات العلوم ، من فلكيات ورياضيات وطب وشرع ومنطق وتاريخ ، وهذه علوم كانت مجهولة إذ ذاك ، وكان الشيخ طموحاً فلم يلبث أن اتخذ سبيل السياحة فقصد إلى الشام فأقام بها زمناً وساح فى بلاد كثيرة باحثاً عن غرائب العلوم والمعارف ، وآية ذكائه اختياره رفاعة الطهطاوى إماما لأول بعثة وقد أوصاه بكتابة المذكرات عن كل مايشاهد ، تولى مشيخة الازهر من ١٢٤٦ حتى توفى ١٢٥٠ هـ ١٨٣٥ م (ولد ١١٨٠ هـ) .

وكان يقول إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد ماؤها وتأخذ من المعارف ما ليس فيها وكان حريصا على أن يعرف كل ما يتصل بعلوم الفرنسيين ومعارفهم ، ويجمع الرأى على أنه أول من رفع صوته بالاصلاح والتجديد فى مصر بل فى الشرق إذ ذاك وقد سجل ذلك فى حاشيته (دعوة على جمع الجوامع) : أن ننهج نهج علمائنا الأولين

في تثقيف عقولهم بالعلوم المفيدة على اختلاف أنواعها ، إذ كانوا مع رسوخ قدمهم في العلوم الشرعية لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم والكتب حتى كتب المخالفين من العقائد والفروع ، ومع هذا لم يهملوا تثقيف ألسنتهم برقائق الأشعار ولطائف المحاضرات ومن نظر فيما انتهى إليه الحال فيما وقعنا فيه علم أننا منهم بمنزلة عامة أهل زمانهم ، فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئا من عندنا وقد اقتصرنا على النظر في كتب محصورة ألفها المتأخرون نكررها طول العمر ، ولا تطمح نفوسنا إلى النظر في غيرها حتى كأن العلم انحصر فيها .

وفي حاشيته في « شرح الأزهرية » يذكر كتب الفرنجة الحديثة التي عربت في عصره ، وما فيها من علوم غريبة وأعمال رقيقة في الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية والصناعات الحربيـة ، ويحث على النظر فيها والاستفادة من علومها ويشكو من إهمال قومه لها

* * *

وقد تولى تحرير الوقائع الرسمية مع أحمدفارس الشدماق ، وكان شاعراً معدوداً في عصره ، وله أبحاث في كيفية العمل بالاسطرلاب والربعين المقنطر والمجيب والبسائط وسائل في الرمل والزايرجة والطب والتشريح وقد بلغ من إقباله على الثقافة ما رواه عنه الشيخ محمد شهاب من إنه لا يستقر عنده الـكتاب في مجلدين إلا أسبوعا أو أسبوعين ثم يعيده وقد قرأه وعلق عليه وقد اتصل الشيخ العطار بطائفة من رجال الحملة الفرنسيين وتعلم منهم أشياء من معارفهم وعلمهم اللغة العربية .

عرف بمطارحة الشعر مع شعراء سوريا ومراسلة علمائها بعد أن أقام بها زمنا وله شعر في وصف غوطة دمشق ومنائرها . كما رحل إلى تركيا ، فأقام فيها زمنا وخاصة في بلدة (سكودره) وتزوج من أهلها ...وأبرع تلاميذه : عياد الطنطاوى ورفاعه الطهطاوى .

ومحمد عياد الطنطاوى هو واحد من تلاميذه الذين وجههم إلى الآفاق ، وكان الشيخ الطنطاوي قد تعرف بالارساليات واشتغل معها مدرسا في القاهرة ١٩٣٥ حتى اختير للعمل في معهد اللغات الشرقية في بطرسبرج فسافر ١٨٤٠ واشتهر بدراساته في اللغة

والنحو . وتخرج على يديه عدد من المستشرقين وقد جرت بينه وبين الشيخ العطار مراسلات كما جرت بينه وبين زميله رفاعه الطهطاوى رسائل ، وكان الطنطاوى كالطهطاوى ، شغوفا بمعيشة الأوربيين وقد استقر فى بطرسبرج حتى توفى ١٨٦٣م ومن رسائله إلى رفاعه :

أنا مشغوف بكيفية معيشـة الأوربيين وانبساطهم وحسن إدارتهم وتربيتهم خصوصاً ريفهم وبيوتهم المحدقة بالبساتين والأنهار إلى غير ذلك مما شاهدته قبلى بمدة فى باريز . وبطرسبرج لا تنقص عن باريز فى ذلك بل تفضلها فى أشياء كاتساع الطرق أما من جهة البرد فلم يضرنى أبداً وإنما ألزمنى ربط منديل فى العنق ولبس فروة إذا خرجت ، أما فى البيت فالمداخن المبنيه معده لادفاء الاوض (أى الحجرات) ولطالما أنشدت عن جلوسى بقرب النار :

النار فاكهة الشتاء فمن يرد أكل الفواكه فى الشتا فليصطل

* * *

أما الحديث عن رفاعة الطهطاوى فهو متسع فياض، هذا الرجل الذى ذهب مع بعثات مصر فى أوائل القرن التاسع عشر إلى فرنسا إماما يصلى بهم فبزهم فى العمل ولم يمض عامان حتى استطاع أن يترجم وينقل ويؤلف فلما رجع إلى مصر أنشأ مدرسة الألسن وكون جيلا من الأعلام ، وهو القائل :

السياسة هى البولوتيقة والتـكلم فى شأن ذلك يقال له « بولوتيقى » .

يقول عن رحلته إلى الغرب « فلما رسم إسمى فى جهة المسافرين وعزمت على التوجه ، أشار على بعض الأقارب والمحبين ، ولا سيما شيخنا العطار ، فإنه مولع لسماع عجائب الأخبار والاطلاع على غرائب الآثار ، أن أنبه على ما يقع فى هذه السفرة وعلى ماأراه وماأصادقه عن الأمور الغريبة والأشياء العجيبة وأن أقيده ليكون نافعا فى كشف القناع عن محيا هذه البقاع التى يقال فيها أنها عرائس الأقطار ، ولتبقى دليلا يهتدى به إلى السفر إليها طلاب الأسفار خصوصا وأنه من أول الزمن إلى الآن لم يظهر باللغة العربية على حسب ظنى شىء فى تاريخ مدينة باريس ، كرسى مملـكة الفرنسيين ولا فى تعريف أحوالها وأحوال أهلها » .

. . .

ثم جاء « حسن الطويل » الذى دخل الأزهر ١٢٦٩ هـ - ١٨١٣ م فتعلم على السقا والمرصفى والانبابى . ولم يكن كذلك الرعيل الذى علمه حسن العطار محباً للأدب والسفر ، ولكنه كان أشد ميلا للفلسفة العقلية فكان شغوفا بمصنفات :

ابن رشد والفارابى وابن سينا ومسكويه ، وقد قرأ الأصول على الشيخ عليش ويرى مؤرخوه أنه أول من وضع أساس الفلسفه فى مصر بعد ما درست معالمها وانطفىء نبراسها وقل طلابها من زمن بعيد ، ولعل هذا كان تمهيداً لجمال الدين الذى وجد فى تلاميذ حسن الطويل نفوسا مستعدة للتفهم منه .

وقد اعترف جمال الدين بأنه لم يجد فى المصريين من هو أكثر استعداداً لتلقى العلوم الفلسفية من تلاميذ الشيخ حسن الطويل .

ومن تلاميذ حسن الطويل: على البولاقى ، والشيخ عبده فمحمد راضى ، وأحمد أبو خطوه ، وقد عرف حسن الطويل بانه لم يكن معنيا بملابسه أوزيه ، أوحفيا بالأناقة ، وانه كان محبا لحركة المهدى فى السودان يرى فيها يقظة جديدة .

وقد كان حسن الطويل من أول الحلقات التى ربطت بين الأزهر ودار العلوم وقد اشتهر إلى جانب علمه بالزهد والورع . . وكان زملائه أول الأمر ينكرون منه جلبابه المتواضع ومعطفه الخشن . ولكنهم لم يجدوا عند أنفسهم من الجرأة أن يعرضوا عليه ملاحظتهم تلك وظلوا فى صمتهم حتى انتوى الخديو زيارة دار العلوم ، وحدد موعد الزيارة ، وجاء على مبارك باشا ناظر المعارف يهرول إلى المدرسة ، ينظم الاستقبال ، وكان له معه حديث ، انتهى بأن رجاه أن يأتى فى الغد بجبة وقفطان وحذاء جديداً وجاء الشيخ فى الصباح التالى بملابسه كما هى ،ومعه لفافة أسرع فسلمها إلى على مبارك . فإذا هى قفطان وجبة وحذاء وقال له : لقد أحضرتها حسب أمرك .

قال على مبارك : كنت أريد أن ترتديها قال الشيخ الطويل فى حده : إذا كان الخديو يريد جبه وقفطان وحذاء فهاهى ، أما إذا أراد الشيخ حسن الطويل فأنا هو .

ومن تلاميذه أحمد أبو خطوه وإبراهيم اللقانى وعبد الرحمن قراعه ، ومحمد بخيت ومحمد الخضرى وعبد الوهاب النجار .

وللشيخ حسن الطويل جانب آخر « خارج الأزهر » ذلك هو تلمذة أحمد تيمور باشا عليه فى علوم العربية والمنطق والصرف والبلاغة .

فقد اشار أحمد تيمور فى مذكراته إلى : أن الناس كانوا ينفرونه منه ويرمونه بالزندقة . غير أنه وجد فيه خيرا كثيرا « فقد أخذ حسن الطويل بمذهب ابن تيمية . وأنكر على المبتدعين وحض على استحضار الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، واستشهد بها فى حل المشكلات وعرف بالزهد وعلو النفس عن الدنايا والبعد عن الرياء وعنى بتربية النفوس،أقرأ تلاميذه كتب ابن سينا والرازى واقليدس . مارس الرياضة البدنية وقضاء (عطلة الأسبوع) فى الريف وتوفى ١٣١٥ هـ ١٨٩٩م .

وقد تعرف حسن الطويل إلى جمال الدين عندما قدم مصر ، وكان يزوره لماما ، ولم يكن بينهما ود متبادل وكان جمال الدين يقول: ليس من علماء الأزهر كالشربينى والطويل .

* * *

وبعد فأن هذه الصورة للفكر والمجتمع لم تكن إلا تهويمه الفجر فقد كان لا بد من صوت جهير وروح جديدة .

مراجع الفصل

مجلة الضياء = م ١٨٩٨
جريدة البلاغ = مارس ١٩٣١
مجلة الرسالة = م ١٩٣٤
الفكر العربي المعاصر : لأنور الجندي

(٢)

من حارة أم الغلام إلى قهوة متاتيا

(٢)

من حارة أم الغلام إلى قهوة متاتيا

ولم يلبث أن شق هدوء الحياة الفكرية فى مصر صوت ملىء بالحيوية والقوة .

ففى عام ١٨٧١ وصل إلى القاهرة السيد «جمال الدين الأفغانى» موقظ الشرق بحق ، رجل أفغانى مروع ، استطاع أن يهز الشرق كله ، الهند ، الأفغان ، إيران ، تركيا ، مصر . كل من اتصل به أصابه مس من كهرباء فكره اليقظ . التقينا بآخر علم حى عرفه وعاشره وهو الأستاذ عبد القادر المغربى علامة الشام ، وكانت لنا معه جلسات طوال ، لم يكن جمال الدين يملك إلا لسانا بليغا وقلبا مليئا بالإيمان بالحرية والإسلام والوحدة ومقاومة النفوذ الأجنبى فى مختلف صوره، كان صيحة المقاومة التى دوت وامتدت منها كل حركات المقاومة ، والثورات ، ولقد اتصل به فى الشرق عشرات من الأعلام : شكيب أرسلان وعبد القادر المغربى ، وعبد المحسن الكاظمى فى العراق ، ومحمد عبده وإبراهيم اللقانى فى مصر .

وأقام السيد جمال الدين فى منزل متواضع بجهة كوم الشيخ سلامة بالعتبة بالقاهرة ، ثم حارة أم الغلام بحى الحسين وكانت ندوته « هى قهوة متاتيا » أمام حديقة الأزبكية ليلا ، حيث يتجمع حوله المثقفون ، ولم يلبث أن اختلف مع الأزهريين من ناحية ورجال السراى من ناحية أخرى وليس هذا مجاله فإننا لا نؤرخ لجمال الدين وإنما نرسم صورة للعصر . .

فقد أثار جمال الدين فى مصر تحولا فى الرأى عن طريق الكتابة والندوة وحكمته المثيرة ما تزال تشهد له بأنه علامة كبرى من علامات اليقظة « أنت أيها الفلاح المسكين يامن تشق قلب الأرض بسن فأسك لتنبت منها ما يسد الرمق ، وتقوم بأود العيال ، لماذا لا تشق به قلب ظالمك ، لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك . .

كان ذلك فى أواخر عصر اسماعيل ، وتوفيق يتطلع إلى منصب أبيه ، وقد التقى به جمال الدين فما لبث أن قال له : أنت موضع أملى فى مصر أيها السيد ، غير أن الأمور لم تلبث أن تحولت ، وثارت العواصف عند ما تقلد توفيق منصب الخديو . فقد طلب منه جمال الدين تغيير رجال الحاشية فهم مصدر الخطر عليه ، وسمع رجال الحاشية بما دعا إليه جمال الدين وأحسوا بالخطر ، فألبوا على جمال الدين واستعملوا لذلك قنصلي فرنسا وانجلترا اللذين كان لهما هوى فى ذلك فهما أيضا يخشيان تدخل جمال الدين ، ونفوذهما مرتبط بنفوذ الحاشية ، وانضم إليهما قنصل إيطاليا ومن هنا كان الأمر بإقصاء جمال الدين من مصر .

وقد ظنوا أنهم بذلك قد قضوا على هذه الصيحة ، غافلين عن الأثر الذى تركه جمال الدين والذى عجل بقيام الثورة العرابية وما كان بعدها من مواقف . .

ولقد عاش جمال الدين بعد أن ترك مصر ١٨٧٩ حتى توفى ١٨٩٧ مؤثراً تاركاً بصماته أينما حل ، ومرت به بعد أن ترك مصر عشرات التجارب فى أوربا ، حيث أصدر العروة الوثقى مع الشيخ محمد عبده ، وعرض عليه عرش السودان فرفضه ، وفى روسيا حيث زارها ثم عاد إلى فارس وغادرها بعد قليل إلى أوربا ، ثم دعاه السلطان عبد الحميد إلى «الاستانة العلية» فقبل ، وأمضى سنوات حياته الأخيرة فى سجن من ذهب ، فقد احتجزه السلطان وأحاطه بسياج من الرقابة ، ومنعه من الخروج وراقب مقابلاته ، حتى أحس فى أيامه الأخيرة بأنه لم يحقق بعض ما كان يطمع ويؤمل ، ولكنه كان مطمئناً إلى أنه قد أدى واجبه . فهو لا يني يروى لكل من يتصل به هذه العبارات «يهمنى أن أصل للطمانينة القلبية فقط إننى استطعت فى حياتى أن قلت الحق ولم أكتمه . لا رغبة ولا رهبة بل جاهرت به وانى بلغت من الشجاعة مرتبة فعلت معها بعض ما أقول » .

ويمضي فيقول :

ولدتُ (١٢٥٤) وعمرتُ أكثر من نصف عصر ، واضطررت لترك بلادي الأفغان مضطربة تتلاعب فيها الأهواء والأغراض : وأكرهت على مبارحة الهند وأجبرت على الابتعاد عن مصر وإن شئت قل نفيت منها ومن الاستانة ومن أكثر عواصم الأرض .

إني أعتقد أن السجن يطلب الحق من الظالمين العتاة رياضة ، والتقى فى ذلك السبيل سياحة والقتل شهادة وهى أسمى المراتب فأنا عن نفسى غير راض ، ذلك لأن الخمول قد تصدى لى فلم يوصلنى إلى اسمى مرتبة وهى مرتبة الشهداء ، وحطنى فى مصاف المنفيين من أرض إلى أرض إلى أرض والمسجونين فيها فما أبعدنى فى كل هذا عن أولى الهمم » .

ولكن هل كان جمال الدين كذلك ، الحق ، إن أثره فى عصره جد واضح عما حققه فضلا بعد أن مضى .

* * *

لقد لقى جمال الدين الأفغانى فى مصر أهل بيئات متعددة ، وعاش فى مجالات عدة ، لم يقف عند الأزهر وحده ، ولكنه بدأ منه . وأثر فيه ، وانقسم شباب الأزهر لديه ، فريق يؤازر رأيه مثل الشيخ محمد عبده وفريق يعارضه مثل ابراهيم الهلباوى المحامى الذى عرف من بعد بتاريخه وموقفه من حادث دنشواى ، والذى كان فى الثلاثينات نقيب المحامين بالأقدمية ، وكان من أشد أعداء للسيد جمال الدين — فيما يروى عن نفسه — ولكن صدق جمال الدين وعظمته حملاه على أن يغير رأيه ، فهو يروى عن أهم حادث غير اتجاه حياته فيقول : لعلك تدهش إذا قلت لك أننى كنت أشدَّ الناس عداءً للسيد جمال الدين الأفغانى قبل أن يقع بينى وبينه ذلك الحادث الذى أعُدُّهُ أهمَّ ما أثَّر فى حياتى ، فقد كنت طالباً فى الأزهر الشريف لم أتجاوز العام السادس عشر حين نزل السيد جمال الدين مصر وأقبل عليه الأدباء والمتنورون يستمعون إلى أحاديثه العلمية ويحضرون مجالسه ودروسه ، وكان الشيخ محمد عبده من هؤلاء الذين أُعجبوا بالسيد وتشيَّعوا له فحقدت عليه وصِرْتُ أتَرَبَّصُ به وبإخوانه الدوائر ، لأنى كنت أعتقد كما يعتقد أشياخى الذين تأثرتُ بهم إن السيد جمال الدين رجلٌ ملحد ، نزل مصر ليضلّ الناسَ ويجمع حوله شيعة ينشرون إلحاده وضلاله ، حتى أصبح قذىً فى عينى لا أستطيع رؤيته .

وصرت أتوخّى أن تقع هنة من السيد جمال الدين أو أحد أتباعه لأشفي بها

حقدى عليهم ، فقد كان السيد جمال الدين يسكن فى ذلك الحين منزلاً بعمارة العنانى بشارع أم الغلام ، وكنت مع ثلاثة من زملائى طلبة الأزهر نسكن فى غرفة من هذه العمارة أيضاً ، فذات ليلة دخل علينا أحد الضباط ومعه جندى من البوليس وأشار إلينا مخاطباً الجندى : مَنْ ضربك من هؤلاء الثلاثة ؟

فنظر الجندى إلى كل من متفقداً فلم يجد بيننا غريمه ، فالتفت إلى الضابط ونفى له أن يكون الضارب أحدنا وأنبأه أن ضاربه يبدو على وجهه ملامح العجم ، فما سمعت كلمة عجم حتى طِرْتُ فَرَحاً ، وقلت فى نفسى لابد أن يكون السيد جمال الدين أو خادمه أبو تراب هو الضارب ، ووجدتُ فى ذلك فرصة سانحة للكيد بالسيد جمال الدين وسرعان ما تقدمت لإرشاد الضابط إلى مسكنه بالعمارة .

ذهبتُ مع الضابط والجندى إلى مسكن السيد جمال الدين فلما اقتربنا من غرفته حتى قال لنا : اخلعوا نعالكم . .

فامتثلنا كلنا لأمره ، ودخلنا عليه ، فدعانا إلى الجلوس ثم عرض الضابط عليه شكوى جنديه ، فانبأه السيد أن الضارب هو خادمه أبو تراب ، لأنه وهو متوجه إلى المقهى وجد الجندى خارجاً منه وكان لابساً ملابس عادية وبيده لفافة كبيرة بها شىء ظنه الخادم أنه متاع مسروق ، فهجم عليه يريد ضبطه ، فكانت مشادة بينهما أدت بالخادم إلى ضرب الجندى وأخذ اللفافة منه قسراً ، ولكنه ما لبث أن رأى أنه أخطأ فى حدسه ووجد أن ما بداخل اللفافة (جراية) حملها الجندى إلى ضابطه فدفعها إليه واعتذر له عما بدر منه وصالحه قبل أن يبرح .

فسأل الضابط الجندى عما يقوله السيد جمال الدين فى هذه الحادثة فأنبأه بصحته ، وكان السيد جمال الدين يتحدث بعبارة فصيحة وأسلوب بليغ أثَّر فى نفسى ، وبدأت أفكارى تتغير ، وكنتُ لم أجتمع به قبل ذلك مطلقاً ، وبينما نحن جالسون حول السيد سأله الضابط قائلاً : أصحيح يا فضيلة الأستاذ أنه كان فى صدر الإسلام طائفة تزعم أن عمل البر وتعمير أماكن العبادة تغنى عن الإيمان بالله وإقامة الشعائر الدينية .

وقبل أن ينطق السيد بالجواب ظننتُ أنه سيعجز عن الردّ وقلت فى نفسى : إذا وجدت مثل هذه الطائفة فقلَّ أن توجد لها أخبار مدونة ، ولكن السيد رحمه الله قال للضابط فوراً: نعم ، ثم التفت إليَّ وقال: (أتحفظ القرآن أيها الشيخ ؟) قلت: نعم فقال : أمر هذه الطائفة منصوصٌ عليه فى آية من القرآن الكريم ، ونطق ببعض جمل من هذه الآية فتذكرت نصها : وهو « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ، لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين » .

عند ذلك تبينتُ أن الرجلَ على علمٍ غزير وذكاءٍ واسع ، وانمحتْ عن ذهنى تلك الأوهام والأكاذيب التى كنا نتلقاها عن مشايخنا عن هذا العالم الجليل .

وفى اليوم التالى عدتُ لزيارته وعرضتُ عليه الاندماج بين طلبته فاستبشرَ بهذا وقال « بالرغم من حداثة سنك أعتبر رغبتك هذه فاتحة عهد جديد لنشر تعاليمي » .

وكان هذا سنة ١٨٧٣ ومن ذلك الحين نشأت نشأةً أخرى . »

* * *

ولكن هل أثَّر جمال الدين فى شباب الأزهر وحده ، لا ، إنه انطلق إلى المجتمع كله يغزوه ، وكانت « قهوة متاتيا » مقرّه المختار ، يخرج إليها بعد الغروب فتتحلق حوله طوائف من المثقفين ، وتستمر المسامرة حتى منتصف الليل حيث يأخذ الشيخ طريقه إلى بيته المتواضع فى حارة أم الغلام .

وقد شهده مجلسه معاصر للأستاذ لطفى جمعة المحامى لم يذكر اسمه وحاول أن يرسم صورة له قال: إنه وسط بين الرجال فى جسمه لاطويل ولاقصير ، لابادن ولا نحيف ، عريض العظام واسع الهيكل ، عريض الوجه ، له عظام بارزة فى الوجنتين بروزاً واضحا ، وكان لونه زيتونياً وشعر لحيته أسود ، يلبس عمامة عالية ، وجبة وصدريه وسراويل مثل علماء الأتراك ، يتهادى في مشيته ، يتكلم في غاية التأني بصوت أقرب إلى صوت الشباب منه إلى صوت الرجولة ، أي أنّ صوته كان أصغرَ من سنه ، وكان عند ما أدركتُه فى الخمسين من عمره ، وكانت عيناه واسعتين ،وحركات

وجهه تدل على ما فى نفسه فلم يكن يستطيع إخفاء عواطفه .

وكان ساحراً خلاباً بلفظه وأسلوب كلامه ونظراته ، ولم أكن أعلم شيئاً عن حياته الخاصة ولا أين يسكن ولا كيف يعيش ، ولكن كنت أراه يأتى كل يوم إلى قهوة متاتيا ، وكانت أجمل قهوة فى مصر فيجلس تحت أحد بوائكها ، ويشرب الشاى ويدخن نارجيله ، وبعد نصف ساعة من حضوره وجلوسه يحضر نحو مائة شخص فيجلسون حوله فى حلقة عجيبة الشكل ، وكان أقربهم إليه المرحوم الشيخ محمد عبده والمرحوم إبراهيم اللقانى والمرحوم حسن الطويل .

كان أعيان مصر يتهافتون على مجلسه ويسعون فى القرب منه ويتشرفون بمعرفته ، وكان الشيخ فى كلامه يحض على الثورة والعصيان ضد الظالم ويطعن على استبداد إسماعيل ويهيج أفكار المصريين . وقد أتيح له أن يلقى دروساً فى الأزهر الشريف فحصل عليها إقبال شديد ولكن الوزير رياض باشا منعه من الاستمرار . ولما استفحل امره ، صدر الأمر بنفيه وسفرته الحكومة ليلا إلى السويس . وكان الشيخ جمال الدين طروباً ويحب مجالس الغناء وكان يتكلم باللغة العربية الفصحى فى كل مكان وفى كل ظرف ولم يلجأ مطلقاً للغة العامية وكان يصفها بأنها اللهجة المخنثة ويمقتها .

ويرجع إقبال المصريين على الشيخ وعظم تقدرهم إياه إلى أنه كان منفرداً بعلمه وكانت معارفه واسعة جداً بالنسبة لأهل زمنه .

وكانت عقيدته غير الإسلام الصحيح وإن كان يتظاهر به ولا يمكننى الحكم على عقيدة اتباعه .

وكان رياض باشا قد أمر أن يصرف له فى الشهر عشرة جنيهات مصرية وكانت له مصادر رزق أخرى ولكنه ما كان يكترث بالمال وكان يقول قولا مأثوراً كلما تهددوه بالنفى أو الإبعاد عن مصر : «إن الأسد لا يعدم فريسته أينما ذهب» ولم يستطع رياض باشا فى أى وقت بأن يخضعه لرأيه . أو يأسره لأنه يجرى عن رزقه أو يكرم وفادته بل بقى الشيخ طوال مدة إقامته مستقلا متمتعاً بحرية رأيه بل ثائراً ناقماً كعادة الفلاسفة المتطرفين .

كان يسكن بيتاً علوياً فى الدودية أو المغربلين بباب الخلق ، لم يكن متزوجاً ولم نعرف له علاقة بالنساء وكان يمقتهن ولايذكرهن بخير .

عرف بصداقته المرحوم إبراهيم المويلحى ، والسيد حسن النية ، سليم الطوية ، بينما المويلحى صاحب دهاء وحيل ، فكان يعكّر فى بعض الأحيان جو العلاقات بين الحكومة والشيخ ، وكانت الحكومة تثق فيه لجهل رجالها معتقدون أنه لايوجد من يفهم أفكار الأفغانى غير المويلحى ، ومادام المويلحى قال إن هذه الأقوال مضرة بالخلق وخادشة للأذهان فيجب تصديقه .

ومازال رياض يتحين الفرصة حتى نفى جمال الدين وقطع بذلك حبل الأمل فى الإصلاح وكان جمال الدين يطلق على محمد عبده روح الجماعة أو عقل الحلقة » .

☆ ☆ ☆

ولقد عرف جمال الدين كيف يصطفى الشباب المثقف المتطلع إلى الكتابة فعلمه ووجهه ، وفتح له آفاقا جديدة فى الصحافة ، ومن هؤلاء سليم عنحورى وأديب إسحق . ولقد كان سليم عنحورى أكثر التصاقاً به فهو يعرف نظام حياته الخاص ، ويروى « أنه كان يقطع بياض نهاره فى داره حتى إذا ما جن الظلام خرج متوكئاً على عصاه إلى ملهى قرب الأزبكية يدعى (قهوة البوسطة) وجلس فى صدر فئة تتألف حوله على هيئة نصف دائرة ينتظم فى سمطها اللغوى والشاعر والمنطقى والطبيب والكيماوى والتاريخى والجغرافى والمهندس والطبيعى فيتسابقون على إلقاء أدق المسائل عليه وبسط أغوص الأحاجى لديه ، فيحل إشكالها فرداً فرداً ويفتح إغلاق طلاسمها ورموزها واحداً واحداً بلسان عربى لا يتلعثم ولا يتردد بل يتدفق كالسيل . من قريحة لا تعرف الكلال فيدهش السامعين ويفحم السائلين ويبكم المعترضين . ولايدع هذا الشأن شأنه حتى يشتعل رأس الليل شيبا وترعى غزالة الصبح نرجس غزالة الظلم فيقفل إلى داره بعد أن ينقد صاحب الملهى كلما يترتب له فى ذمة الداخلين فى عداد ذلك المجمع الأنيق .

يقول سليم عنحورى : وكان « أديب إسحاق » قد بعث به حنين الخورى إلى القاهرة مصحوباً بكتاب وصاه إلى جمال الدين فأحسن هذا لقياه لما توسمه فيه من أمارات الذكاء ومخايل النجابة ولزمه ثمت ملازمة اللام للالف . وأقبل عليه إقبال الهائم العانى الـكلف ، فحصل له امتياز صحيفة اسمها (مصر) واتخذ له دكان بباب الشعرية ، هيأ له فيها من أدوات الطبع بالحرف البولاقى المشهور ماقوى معه إصدار تلك الصحيفة فـكانت ترد مودعة فصولا وأمالى منسوجة بيراع جمال الدين ومنشورة باسم المزهر ابن وضاح ، أصارت لتلك الصحيفة شأناً مذكوراً ثم رأى أن ثغر الاسكندرية أقرب لاصطياد الأخبار فوفق بين أديب وسليم ، وأوعز إليهما بنقل الإدارة إليها ، بعد أن مكنهما من نوال امتياز آخر لصحيفة يومية دعياها (التجارة) ثم أومأ إلى كاتبيه الشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقانى أن يخدما تينك الصحيفتين قلماً وسعياً مااستطاعا إلى ذلك وجعل يواصلهما بشذرات من قلمه البديع ، وخطرات من فسكرة المزرى بلالأ الرفيع . حتى كان سبب شهرتهما كما كانا بتعظيمهما له فى النعوت والألقاب من مثل « مهبط أسرار الحـكمة واسطرلاب فلك العلوم واسطقس هيولى الفلسفة » إلى غير ذلك مما اعتادا أن يصفاه به فيسبب علاء شهرته وانتشار صيته . وله فى صحيفة مصر مقالتان إحداهما فى الحـكومات الشرقية وأنواعها ، والثانية سماها (روح البيان فى الإنكليز و الأفغان) ترنمت لها أعطاف أولى العلم طرباً ومالت إليهما أعناق الحـُكّام السياسين عجباً ، حتى أن غلادستون زعيم الحرية فى انـكلترا أثبت فى بعض الصحف رسالة تشهد له أنه من أعلام الشرق وأعيان العلماء حالة كون الإنجليز من أعدائه الألداء .

ولما شخص المؤلف (سلم عنحورى) إلى القاهرة ١٨٦٨ تعرف به وانتفع بصحبته ولازمه حيناً من الدهر فى أوقات اجتماعه وخلواته .

وكان ممن ساعدوه إلى الوصول إلى الخديو إسماعيل والتمـكن منه وسوقوه إلى الاندماج فى سلك الإخباريين ، فنال امتياز صحيفة دعاها (مرآة الشرق) ومطبعة سماها (الاتحاد) .

وكان قد أمر زعيم تلاميذه الشيخ محمد عبده أن يقرظ كتابه (كنز الناظم) فوصفه برسالة ضافية الذيل، نسج أكثرها بقلم جمال الدين ونشرت فى عدد ١٣٦ من صحيفة الأهرام. فإنه كان من خلقه الأخذ بناصر كل مغنم إلى العلم وشد أزر كل ذى ميل للأدب، ومع أنه كان كثيرَ الأنفة شديدَ الوطأة على الحكام يعاملهم بالعجب والخيلاء ويرنو إليهم بعين المقت والازدراء، تراه بالعكس كثير التعظيم والتكريم لأولياء العلم وأنصاره، مهما كانوا خاملين قاصرين، يبذل لهم الأنس والدعة ويخفض جانب الرقة والدماثة، ويؤاسى محتاجهم ومحتاجهم بكلما يقدر عليه. وتصل يده إليه، وفى خلال عام ١٨٧٨ زاد مركزه خطراً فى البلاد وسما مقامه لأنه تداخل فى السياسيات وتولى رئاسة جمعية (الماسون) العربية وصار له أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية، من مثل محمود باشا البارودى. وعبد السلام بن المويلحى النائب المصرى فى دار الندوة وأخيه إبراهيم كاتب الضابطه، وكثر سواد الذين يخدمون أفكاره ويعلون بين الناس مناره من أرباب الأقلام من مثل الشيخ محمد عبده وابراهيم اللقانى وعلى بك مظهر والشيخ الزرقانى وأبى الوفاء القونى فى مصر وسليم نقاش وأديب اسحق وعبد الله نديم فى الاسكندرية فتغيرت ثم لهجته فى أحاديثه، وأخذ يقرب منه العوام ويقول لهم أثناء مكالماته ما معناه (أنتم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد وربيتم بحجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين تسومكم حكوماتهم الحيف والجور، وينزل بكم الخسف والذل وأنتم صابرون، بل راضون. وتنزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلّب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط وأنتم فى غفلة معرضون. فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حياة، وفى رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة، ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم ضاحكون تناوبكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس، ثم العرب والأكراد والمماليك، ثم الفرنسيس والمماليك والعلويين وملكهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ويهيض عظامكم بأداة عسفه، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لاحس لكم ولاصوت. انظروا أهرام

ولا صوت

بمصر وهيا كل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوه وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم » .

. إلى غير ذلك ما من شأنه أن يحرك الماء فيجعله ناراً ويثير نسيم الصبا فيغادرها أعصاراً ، فبدأت تنتشر حركة الخواطر فى الديار المصرية وأخذ القوم يشكون من حكومتهم متململين . ويتطاولون بأعناقهم إلى ما يقول مشرأبين .

* * *

ومنذ ذلك الحين طارت الشرارة الأولى من شرارات الثورة العرابية وكان المؤلف قد لمح إلى هذا فى بعض أعداد صحيفة (مرآة الشرق) لقوله فى الافتتاحية :

أرى خلل الرماد وميضَ نارٍ وأخشى أن يكونَ لها ضرامُ .

فثار بعض قادة الجند (بولسن) و(بلينير) الوزيرين الأجنبيين وأوسعوهما خزياً وإهانة . واجتمع فى بيت الشيخ البكرى ثم فى بيت (راغب باشا) لفيف من أعيان البلاد وعمد الأرياف وأجمعوا على تغيير الوزارة النوبارية ثم التوفيقية ، ثم زاد انتشار الخواطر الثوروية وكسبت صحف الأخبار أهمية ، ما كان لها أن تكسبها فى أسمى البلاد مدنيةً . وحينئذ رأى المؤلف أن المسلك وعر والموقف خطير . فمال إلى إلغاء التحرير بالتى هى أحسن ، والجنوح فى هذا الأمر العسير للتى هى أقوم .

فاعتزل الجريدة بعد أن أحال امتيازها إلى رجل أصارها طوع إشارة الأفغانى فوكل بها كاتبه (إبراهيم اللقانى) فبدأ من العدد السادس عشر بإيعابها مبادىء الثورة وأمالى الشكوى والتعريض . وبعد حين ناب الأفغانى عن الأمة بسفارة إلى الخديو ، فذكرت ذلك (مرآة الشرق) بطنطة عادت عليه بالوبال ، وعليها بالتعطيل والنكال ، والسبب الظاهرى لتعطيلها غير هذا وأما المطلعونَ على الحقائق فيعلمون أن الباعث عليه إنما هو انتماؤها إلى الأفغانى .

وكان قبل ذلك قطع فى الاسكندرية بضعة أيام خطب فى أثنائها بقاعة (زيزينيا) فى النساء جمعت ألوفاً من الفرنكات .

ولما علا الأريكة الخديوية (توفيق) وكان من الواجدين على جمال الدين فأخذ يجوس مرامى أفعاله ، ويرود مرامى أقواله حتى علم أنه ممن ينزعون إلى إبدال

الحكومة المقيدة بجمهورية ثورية تحدثه نفسه بتولى زعامتها فاغتاله بعض الشرطة وهو عائد عند بزوغ الفجر من مقامه الليلى المعلوم وكان قد ارفض عنه أصحابه فاستاقوه إلى دار الضابطه ، وذهبوا به ثمت إلى محطة السكة حينما أرسل من طريق الاسماعيلية إلى بورت سعيد .

ولما رأى قنصل العجم فى ذلك الثغر (وكان ماسونياً) أنهم مزمعون على بعثة بطريق جدة إلى بلاد فارس ، عرض عليه مائة دينار برسم النفقة فأبى مع كونه لم يملك عندئذ درهما . أما مكتبته فحجزت عليها الحكومة وضبطتها .

وكان روح الثورة قد امتد فى القطر بحيث لم يكن إجلاء الأفغانى إلا ليزيده سرياناً وانتشاراً . منذ ذلك العهد احتجبت عن المؤلف أخباره ، حتى ظهرت فى باريز صحيفة العروة الوثقى موسومة باسمه وموشاه بقلم دهقان رجاله الشيخ محمد عبده فعلم من نزعها أنه عاود الاستمساك بالدين الحنيف وجنح إلى نهج خطة جديدة تكسبه ميل العالم الإسلامى ورضاه عنه .

آية من آيات القرن التاسع عشر ومعجزة من بدائع معجزاته ، ولو لم يكن طموحاً إلى المعالى بإفراط وإعجال ، وعاجزاً عن كتمان مبدأه وغايته لرحب به التاريخ وأفرد له من أسفاره صفحات تترى .

كان يجتنب النساء ويعظم نفسه عن الشهوات . ويكره الحلو ويحب المر . وقلما خلت جيوبه من حشت الكينا والراوند ينتقل بهما تفكها . يأكل الوجبة مرة كل يوم ولا يأكل إلا منفرداً ، يكره الكتابة ويتثاقل منها ، فإذا رام إنشاء مقالة ألقى على كاتب مثل ابراهيم اللقانى إلقاء قلما يراجعه ويصلحه ، فيجىء من أول وهلة مسبوكاً مفرغ المعانى بقوالب لفظ لا تنقص عنها ولا تزيد » .

* * *

ولم يقف جمال الدين عند طائفة معينة ، بل تعددت لقاءاته ، حتى مع الذين عرفوا بجرأة فى الرأى فى ذلك الوقت المبكر من الزمن ، وكان الدكتور شبلى شميل الطبيب

السورى قد حمل لواء ترجمة آراء دارون ودعا إليها واشتبك فى معارك من أجل مفاهيمه المادية ، هذا الرجل أيضاً كان معجباً بجمال الدين .

❀ ❀ ❀

يقول فى مذكراته : إن جمال الدين كان من لوامع عصره عالماً واسع اطلاع فى علوم الأقدمين وفلسفتهم ، ذا ذكاء مفرط وأدب رائع ، على شجاعة فى القول لا تصدر إلا عن نفوس مستقلة كريمة ، وكان ذا حديث طلي شهى ، لا يمل منه سامعه مع فصاحة عربية ، فى التزام القواعد واختيار الألفاظ ولكنها ممزوجة ببعض لكنة أعجمية ، تنم عن أصله الغريب ، وإنما وقعها على الأذن كان محبوباً ، وهو لم يكن يعرف لغة من لغات الأفرنج الحافلة الأفكار المديدة والعلوم الحديثة ، ولكنه كان ذا مقدرة عجيبة على التحصيل ، حتى إنه ليستفيد منك الشىء الجديد ويصبه فى قوالب المعلوم المختمر فيه ، ويوهمك أنه معروف له منذ زمن طويل ، وجمال الدين لم يكتب فى ما أعلم شيئاً ، وإنما كان يلقى على آخرين مقالات ضافية تنشر فى جريدة مصر تحت أسمائهم ، ولولا الشيخ محمد عبده اليد الكاتبة لما كان لصوته صدى ، ولبقيت تعاليمه حديثاً يلقيه بحسب مقتضى الحال . فهو فيلسوف من الفلاسفة المشائين أو بالحرى الرواقيين ، ورواقه كان رواق القهوة التى بجنب قهوة البورصة القديمة . ولعل تلاميذه لا ينسون فى مقتبل الأيام أن يحيوا ذكره فى هذا المكان ، وقبل جريدة مصر كانت شهرة جمال الدين مقتصرة على الإخصاء وأعماله محصورة فى دائرة مريديه ، أما جريدة مصر فكانت سبباً كبيراً لإذاعة صيته ونشره فى الآفاق .

ولما عرفت (أديب إسحق) بجمال الدين كانت معرفتى بهذا الأخير حديثة العهد ، فقد كنت أسمع به وأنا فى الاسكندرية فلما أتيت إلى مصر وددت أن أتعرف به ، وكان يتردد علينا فى بيت (حنا عيد) قنصل دولة البلجيك ، فلما أبديت رغبتى هذه لعيد ، ضرب لى موعداً بالاجتماع به عنده فى إحدى السّهرات ، ولما تعارفنا أخذنا ننتقل من حديث إلى حديث .

قلت إن جمال الدين كان من الفلاسفة الرواقين ، أى أنه كان ينشر تعاليمه فى طى المحادثات الاعتيادية ، ولكنها كانت محادثات خلابة فى لذة المعنى وحسن الانسجام

ولم يتهيأ له أنه وقف خطيباً إلا مرة واحدة أظهر فيها أنه خطيب مفوه أيضاً ، وكان ذلك بمسعى أديب إسحق ، وفى تياترو زيزينيا على محضر من جمهور غفير من علية القوم من رجال ونساء من السوريين والمصريين ، فألقى خطبة اجتماعية سياسية أبدع فيها معنى ومبنى وجرأة وبقى يرتجل الكلام نحو ساعتين من دون أن يبدو عليه أدنى تعب أو تلعثم حتى خلب العقول وأقام الناس وأقعدهم كأنه ربطهم بسلاسل كلامه يلعب بهم كما يشاء .

ولما بلغنى أن جمال الدين بعد أن نفى من مصر ببضع سنين كتب رسالة باللغة الأفغانية فى نفى مذهب الماديين ترجمها الشيخ محمد عبده إلى العربية دهشتُ لعلمي بأن الرجل لم يكن من المتدينين . ويصعب على بعد اختبارى الرجل بنفسى من جهة سماعى عنه بعد ذلك أن أبدي فيه حُكْماً جازماً ، ولكنى أرجح جداً أنه لم يكن من المؤمنين . »

* * *

وليس فى مصر فقط يجد جمال الدين مَنْ يعجب به ، ولكن فى كل مكان ، وكلهم يتحدثون عنه ، ويذكرونه فى مذكراتهم وآثارهم ، والشاعر التركى الكبير عبد الحق حامد ، يلتقى بجمال الدين فى لندن وهو سفير لبلاده ، ثم يلقاه مرة أخرى فى استانبول بعد أنْ قَبِلَ دعوة السلطان عبد الحميد وعاد إليها ..

ومن حول جمال الدين ترتسم الصورة ، صورة الحياة فى الشرق كله ، لا فى مصر وحدها ، فقد أثّر فى الفكر آثاراً لا تُمْحَىَ ، فى مصر ، من قهوة متاتيا ، وفى استانبول ، مازال مؤثراً متصلاً بالناس ..

يقول عبد الحق حامد شاعر الترك الأكبر فى مذكراته :

لما حضر السيد جمال الدين إلى لندن للمرة الأولى لم أكن فيها ، ولم أكن أعرفه ، وإنما عرفته فى جيئته إلى القسطنطينية فألممتُ به إلماماً ، وفى زيارته الثانية للندن اجتمعتُ به فأحببتُه الحبَّ كله ، وعرفته المعرفة الحقة ، وجَدَّدْتُ شرف صحبتى له .

لست أدرى لماذا كان بعضهم ينسب إلى إيران هذا العلامة الأفغانى السيار

الديار بين القسطنطينية والقاهرة ، وفى كثير من بلاد أوروبا وآسيا ، وعندى أن ذلك الإنسان الكامل لم يكن إيرانياً ولا أفغانياً وإنما كان رجل الدين والإيمان والعلم والوفاء ، وما كان بابياً ولا وهابياً كما يقال ، وإنما هو واعظ الإنسانية الفذ ورسول شخصيته وحوارى نفسه .

وبينما هو يلقى خطبه ومحاضراته فى دار الفنون بالقسطنطينية ، وفى الجامع الأزهر بالقاهرة ، وفى انجمن إسلام بمدينة بومبى ، وفى سجون طهران وشوارعها ، فإن كلمة غير مألوفة صدرت منه فى إحدى الخطب ذكر فيها النبوة فى جملة الصناعات فكان ذلك سبباً لقذفه من بلد إلى بلد ، وما برح غير ذى وطن حتى اتخذ جنة الخلد وطناً ، ولم يدرك سامعوه يومئذ أن النبوة من سامى صنع الله صانع الملكوت ، وبها تحولت الأوثان أبداناً ، وصارت الأصنام أناماً ، وهل الانقلاب الإسلامى العجيب إلا مما صنعه الله على يد رسوله الأعظم (صلى الله عليه وسلم) . ؟

كنت وأنا فى لندن على صلة دائمة بالسيد جمال الدين ، وكان يرى أن (ناصر الدين: شاه فارس) أشد الملوك استبداداً وجوراً ، أما السلطان عبد الحميد فإذا لم يكن شيئاً فهو خليفة على كل حال .

وكان السيد يسكن غرفة علوية صغيرة **Mansarde** فى منزل مُعَدٍّ للأجرة فى حي متطرفٍ من أحياء لندن ، ففيها يطالع ويكتب ومنها يأكل وينام ، ورغم فاقته فإنه كان يُرَىٰ فى سعادةٍ وراحةٍ ، وإذا نزل من غرفته اجتمع ببعض المستشرقين وحادثهم وحادثوه فى الأمور السياسية والفلسفية .

وكان خوجه تحسين وشقيقى نصوص بك من أقرب الأصدقاء إلى هذا العلامة الحكيم أو من حوارييه . وكان الأستاذ إذا نظر إلى السماء من نافذته فى تلك الغرفة الشبيهة بالمرصد ربما رأى خياله بين النجوم .

ولم يكن جمال الدين حسن الرأى فى سفيرنا رستم باشا ، وإنما كان سيء العقيدة فيه لأن السفير كان يرى نجاة الدولة العثمانية على يد الإنجليز ، والسيد يرى ذلك مما ينافي فكرة الجامعة الإسلامية .

واستدعى الشيخُ أبو الهدى الصيادى ، السيدَ جمالَ الدين إلى القسطنطينية بإرادة سلطانية ، فقال لى السيد إنه لا يستطيع الآن أن يلبى الدعوة انتظاراً لما يتوقع حدوثه فى طهران .

ولست أدرى ماالذى شجع السيد جمال الدين ـ فجأة ـ على السفر إلى القسطنطينية فقد جاءنى فى يومٍ من الأيام مودعاً فخرجتُ فى اليوم التالى لتشييعه ، وقال لى عند الافتراق :

ـ نعم أنا ذاهب إلى دار الخلافة ، ولا أزال أذكر كلمتك فى الإحتماليين (النفى والإجلاء أو التقريب والإعلاء) ولعله يكون وسيلة لخدمة عامة ، أقوم بها إذا حفتْ بى ظروف معقولة ، أما التقريب والإجلاء ، فهذا ما لا أبالى به ، وأنا قد تعودت الإحتفاظ بمبادئي في السجون والمهاجر ، قد يسجنون شخصي أما فكري فليس فى استطاعتهم أن يسجنوه .

قال السيد كلمته هذه وذهب إلى العاصمة العثمانية .

* * *

ولما عدتُ إلى القسطنطينية علمتُ أن السيد يسكن قصراً فى حى (نشان طاش) فذهبتُ لزيارته غداةَ وصولى ، إنه انتقل من الغرفة العلوية فى لندن إلى قصر فى القسطنطينية ، ولكن هذا الشخص كان هو وقصره فى نطاق الحصار .

ودخلت عليه غرفته وأنظار محاصريه من الجواسيس تتعقّبنى بلحظاتها ، فوجدته محاطاً بالمراقبين عليه ، ولكن النشاط والهمة لم يفارقاه ، وكان يتظاهر بالضحك والابتسام احتياطاً غير أنى استطعتُ أن أكتشف ما تكنه نفسه من وراء ذلك من ضيق ساحق ، وإنه لعذاب أليم أن يتسلّى المرء بمصاحبة من لا يريد صحبته مجاملة للبيئة وذوى السلطان ، وكان عند زيارتى له كأنما يعاتب زائريه بما يجاملهم به من كلمات الإيناس وينظر لى نظرات ذات معاني كبيرة وأردتُ غير مرة أن استأذنه بالخروج فكان يستمهلنى إلى أن تفرق من عنده وبقينا منفردَين . فقال :

أراد السلطان أن يقلدنى الأوسمة ذات الدرجات الرفيعة وأن يلقبنى بألقاب الرتب العالية فلم أوافقه ، فكنت أقول له إن عطفكم عليَّ واهتمامكم بى رتبة لا تعلوها رتبة .

أما موقفي أنا فمضحك ، لى قصر وخيل ومركبة وخدم وحاشية ، وقد ألحق بى السلطان مريدين كثيرين ولعله لاحظ أنى شيخ فأطرفنى بهم ، ودراويش هؤلاء يطوفون بمنزلى ليلاً ونهاراً ، وإذا ركبت عربة لا يقصرون فى ملاحقتها ، ولكنى أعترف بأنهم لا يُقلقون راحة شيخهم .

* * *

واجتمعتُ بالسيد جمال الدين مودعاً عند ما أزمعتُ العودة إلى لندن فرأيته فى يأس وضيق صدر ، وكان قد تقرر إرساله إلى بعض الأقطار لتوثيق رابطة الإخاء الإسلامى ثم عدل السلطان عن ذلك فى آخر ساعة بسبب عداء بين السيد والشيخ أبو الهدى .

وقال لى السيد : « إنى لما كنت أسكن الغرفةَ العلويةَ فى لندن كنت أستطيع خدمة أمتى أكثر مما أستطيعها هنا » .

وكانت قد بدت فيه يومئذ آمارات مرض السرطان فكان هذا أيضاً مما أزعجه ، غير أن خُلُقَهُ المعنوى كان أشد عليه من خوفه على حياته . »

* * *

ومن أعماق سيبريا يجد جمال الدين تلاميذه ، ويطوف بهم ، ويؤثر — ليس فى العالم العربى وحده ، ولا فى العالم الإسلامى — ولكنه يذهب إلى روسيا ويؤذن ويصلى فى الأبروا أمام القيصر ويثير الزوابع والأعاصير ، وتلميذه عبد الرشيد إبراهيم الذى عاش داعياً للإسلام يطوف العالم يحكى قصته مع هذا الرجل ...

« كان أول اجتماعى بجمال الدين فى بطرسبرج عاصمة الروسيا عام ١٨٨٩ وكانت أخباره قد سبقته إليها ، وكنت إذا ذاك فى عنفوان الشباب ، وكان قلبى — ومازال — ممتلئاً فتوة ، فلما قابلت جمال الدين احتفيت به أبلغ احتفاء ، ورأيت أمامي رجلاً فذاً جبارَ الذهن خارقَ الذكاء ، تترقرق الملاحة من وجهه ومن شعره المسترسل ، وتلمع عيناه ببريق حاد نفاذ ، ولم يكد يستقربنا المجلس حتى شعرت بأنى أعرفه منذ الأزل .. فله رحمه الله طريقة خاصة فى جذب القلوب إليه ، طريقة جمالية

أفغانية . لم أر شيئاً منها فيمن لقيتهم من عظماء الشرق ، وكنت قد دعوت نفراً من علماء المسلمين فى الروسيا وجلسنا نتحدث ، والحديث ذو شجون ، وانتقلنا من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق ، حتى قطعت الحديث بسؤال فقهى لم يكد يسمعه جمال الدين حتى سخر منى وقال مبتسماً : أمازلت تهتم بالمسائل الفقهية ، مستغرق فى طوفان من المتناقضات ، فعجبتُ من هذا الإمام الذى يسخر من كتب الفقه ، وصمتُّ ولم أقل شيئاً ، ثم قام أحد العلماء اسمه ضياء الدين وكان شاباً مثلى ، فسأله عن الروسيا وهل تتخذ البلاد الخاضعة لنفوذها داراً للإسلام أم داراً للحرب ، فقال جمال الدين ألـكم حرس من المسلمين أو قائد أو إمام ، فقال ضياء الدين : كلا ؟ قال جمال الدين : إذن فـكيف تـكون داراً للإسلام ، أعلم يابنى أن ليس فى الشرق دار للإسلام إلا عاصمة الخلافة الإسلامية ، أما ماعدا ذلك فالإسلام برىء منه وبذا ختم مجلسنا الأول .

فلما رأيتُ جاذبية جمال الدين وبُعْدَ نظره وحلاوة أحاديثه ، لازمته ملازمة الظل وكنت لا أفارقه ، حتى يأمرنى بمفارقته ، وقد غلبه النعاس وتوثقت بيننا عرى الصداقة ، وسحرنى رحمه الله بيانه وظرفه وحنانه ، ورافقته فى جولاته فى بطرسبرج ، وعرّفته بنفرٍ من الأكابر الذين أعجبوا بهذا الإمام الجليل .

وبعد بضعة أيام أبدى الأستاذ رغبة فى زيارة إحدى دور التمثيل ، فلما اقترحت عليه « دار الأوبرا » سألنى أن أحجز له شرفة قريبة من شرفة القيصر فحجزتُ الشرفة . وذهب إلى الأوبرا بالجبة والقفطان والعمامة ، ولفت دخولنا الأنظارُ ، وجاء القيصر اسكندر الثالث ومعه القيصرة والأمراء والوزراء وكبار السياسة .

وبدأ الرقص والغناء والتمثيل . وأزلت الستارة ثم رفعتُ عن منظر جميل ساحر ، وإذا بجمال الدين ينظر إلى ساعته وكأنه نسي شيئاً ، ثم يقوم ويفترش جبته ويستقبل القبلة ويقول بصوت جهورى : نويت أن أصلى صلاة العشاء : الله أكبر ، وإذا بالأنظار تتجه إلينا فى عجب ودهشة ، وإذا بى أرانى هدفاً لنظارات النساء وحيرة الرجال . . واستمر الرقص والغناء والـكل فى شغل عن الرقص والغناء وكثر الهرج والمرج ، وجمال الدين يصلي وكأنه أمام الـكعبة ثم رأيت القيصر

والقيصرة والأمراء وقد التفتوا إلينا والـكل يتهامسون فيما بينهم ؛ ثم طرق الباب. ودخل الجنرال جريفن وبادرني بالسؤال عن معنى ذلك ، فتصبب العرق من جبيني وشعرت بالأرض وقد مادت ، والأضواء وقد مارت وغدت تنساب حولي ، ولما كرر الجنرال سؤاله قلت له : سله بعد إتمام الصلاة ! فانتظرنا كلانا إتمام الصلاة والـكل على أحَرّ من الجمر ، ولم يتحرك جمال الدين أثناء صلاته قيد شعره .

ولما أتمها خرج إلى الردهة وأجاب الجنرال قائلا (وأنا أترجم كلامه إلى الروسية) قال نبينا عليه الصلاة والسلام: لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل فالله ألهمني أن أصلي في تلك الساعة وفي هذا المـكان ، ولا يسعني في ذلك الوقت امبراطور شامخ ولا خاقان متوج ، فاذهب إلى مولاك وأعد على مسامعه ما قلته .

فعاد الجنرال وأخبر القيصر ما سمعه من جمال الدين ، فعجب القيصر أشد العجب ، وأبدى احترامه لمثل تلك القوة الدينية التي لا ترهب شيئا ، على أني عنفت جمال الدين بعد خروجنا من دار الأوبرا ، وقلت له بصريح العبارة : لقد وضعتني في موقف حرج وأخجلتني أمام معارفي ، وأمام القيصر ، فابتسم رحمه الله ابتسامته الساحرة وقال في هدوء :

ماذا تريد مني ! ألم أبلغ كلمة الإسلام إلى قلب الروسيا إلى القيصر والقيصرة والأمراء والوزراء ، لقد أديت الرسالة ولايعنيني ما ينجم عنها ، فدع رسمياتك واعلم أن الإسلام لا ينتشر إلا بمثل هذه الجرأة .

وهنا صمت الأستاذ وأخذ يفـكر : وقد رفأ سفينته في مرفأ آخر ، ثم اجتمعنا في الآستانه أيام السلطان عبد الحميد وكنت أتردد على منزله كما كان يفعل خاصة الأتراك ، وكان عبد الله نديم من أخص ندمائه كما كان علي أدهم المصري وغيره من المصريين يترددون على منزله كل يوم .

وكان جمال الدين يرحب بالقادمين ولايستقر به المجلس حتى ترى المحبة والأخوة ، وقد سجت فوقه ، والعلم والإيمان وقد تلألأت أنوارها على الحاضرين ، ودخل علينا ذات مرة أحد المتصوفين فلما حان وقت الصلاة نبه جمال الدين إلى ذلك ، فأهمله هذا مراراً ، فلما ألح عليه الصوفي التفت إليه قائلاً :

إذا مضت الصلاة لها قضاء ، ولكن ما الصحبتنا قضاء . فأفحم الصوفى ببديهته الحاضرة ، وصفق الحاضرون إعجاباً بتلك الروح السمحة .

وكان لجمال الدين راتب يتقاضاه من عبد الحميد شهرياً ، فكان الرسول يأتيه بما قيمته خمسون جنيهاً من المجيديات الفضية ، فيأمره جمال الدين بإفراغ الكيس فى وسط المجلس ، وهنا يهجم الجالسون على الفضة ويتطاحنون على سبيل الوصول إلى أكثر عدد ممكن من الريالات ،وكان « عبدالله نديم » يأخذ بيمناه فيملأ جيبه الأيمن ، ثم بيسراه فيملأ جيبه الأيسر ، ثم يحاول أخذ ما تبقى فلا يجد المال من أثر .

وحدث أن امتنعتُ عن أخذ المال ذات مره فألح عليَّ رحمهُ الله بأخذه ، فأصررتُ على الامتناع فما كان منه إلا أن أخرج منديله وملأه بالفضة وناولنيه قائلاً فى غضب : فهمت مرادك ياشقى ، لقد تعمدتَ هذا الامتناع لتلجئنى إلى مَسِّ المال الكريه بيدى ، خذ فقد بلغت مرادك وكان يقول دائماً : إن السلطان يرسل إليَّ الفضة أما الذهب فقد أبقاه لأبي الهُدَى ..

* * *

ولقد كان « عبد الرشيد إبراهيم » من دعاة الإسلام المنبثين فى الأرض ، ولد فى مقاطعة سيبريا فى الشمال الشرقى من آسيا الروسية عام ١٨٥١ وانتقل صغيراً إلى المدينة المنورة فتلقى منها معارفه الأولى ثم التحق بخدمة الحكومة التركية حتى لقى جمال الدين الأفغانى فأعجب به وظل يعمل معه واشترك فى جيوش الدوله العثمانية فى جميع حروبها إلى معارك اليونان قبيل الحرب الأولى ، وقد زار مصر ١٩٣٠ وطاف بقاعَ المعمورة ، قاصداً إلى اليابان فالصين فتركستان الشرقية حيث يقطن ما يقرب من العشرين مليوناً من عنصر التتار الذين يمتازون بالشجاعة والقوة وسلامة الصحة والأبدان وبأنهم رجال حرب وكفاح اشتهروا بالبطولة والفروسية من قديم الزمان مجاهداً لتفديتهم بالروح العالية الإسلامية .

وقد نشر عشرات المقالات فى صحف مصر وفى صحيفة الفتح التى كان يصدرها السيد محب الدين الخطيب .

وقد صوّر في محاضرة له ألقاها بجمعية الشبان المسلمين (فبراير ١٩٣٠) كيف التقى بجمال الدين فقال :

رأيتُ فيه طلعةً بسامةً مارأيت أحسن منها ولا أجمل فضمني إلى صدره مرتين، فلما وصلنا منزله أمر البواب ألا يدخل علينا أحداً في هذا اليوم وطلب لنا الشاى، وأخذ يسألنى عن روسيا وأحوالها السياسية فواريتُ الإجابة احتياطاً لأنى إلى ذلك الحين لم أكن أعرف حقيقته فقال لى :

ألم تكن عضواً فى المحكمة الشرعيه الإسلامية ومقتضياً بها .

فقلت في نفسى : من هو هذا الرجل الذى يعرفنى ويعرف أحوالى . ثم بادرنى بقوله : أما سمعت باسم جمال الدين . فقلت : بلى ، قال : أنا هو . فقبلتُ يده وضمّني إلى صدره مرة ثالثة كأن الله شرحَ صدري .

وبعد ذلك حضر الأستاذ السيد عبد الله نديم المصرى ، وأراد أن يقدمنى للأستاذ فقال له : أعرفه وإن شاء الله سينفعنا .

وسألني الأستاذ : هل تعرف اللسان الروسى ؟ وأدهشنى من الأستاذ أنه كان يعرفنى ويعرف أخبارى كلها. هل تقرأ الجرائد الروسية فقلت: لا .. لأن نقودى لا تكفى لشرائها . فقال: أنا أعطيك ثمنها وتخبرني بما ينشر فيها ، فاشترك في ثلاث جرائد مهمة .

* * *

وسألته عن موطنه فقال : لا وطن اليوم للمسلمين .

إن الذى يعرف معنى كلمة لا إله إلا الله ، لا يستجير بأحد ولا يطلب المعونة من أحد ، إن محمداً كما علمنا التوحيد علمنا حرية النفس والحرية الشخصية . وعندما علم أن السلطان عبد الحميد سيرسل بعض علماء الأتراك إلى اليابان قال :

إن العلماء الحاليين نفّروا المسلمين من الدين الإسلامى أفترسلهم إلى بلاد اليابان لدعوة الكفار إلى ديننا .

وعدت إلى روسيا لنشر الدعوة فحُكم علي بستة شهور ، ولكني هربتُ من السجن إلى اليابان ، وكان ذلك سنة ١٩٠٥ فتحققت كرامة الأستاذ بعد موته، ومكثت في اليابان مدة ثمان أشهر كنت فيها موضع الإجلال والاحترام ، ولقد ظنوا أني موفد من قبل السلطان عبد الحميد للدعوة الإسلامية .

وحضر إلى الآستانة سياسيٌّ كبير من سياسي روسيا قاصداً مكة للحج ، فقال الأستاذ: لا بد في الأمر شيء ، عليك أن تراقبه وتحدثني بعد ذلك بأمره وبما تراه منه، فراقبت الرجلَ مراقبة دقيقة، وكان يدعى عبد العزيز فما رأيت فيه ريب قط ، فقال الأستاذ لابد من سفرك خلفه حتى يعود إلى بطرسبورج ، ثم سلّمني كتاباً أملاه عليّ لتسليمه إلى أحد كبرائها الروسيين ، وأخبرني أني في سفري هذا إما أن أحيا حياة طيبة وإما أن أموت فخضعت لقوله ، وذهبت إلى هذا الرجل ودعوته إلى الإسلام وذكرت له بعض نقط في كتاب السيد الذي استدل فيه على بطلان التثليث ولكن الرجل كان فطناً . فقال لي : هذا الكلام ليس من عندك ارتجالاً . فأخرجتُ له الكتاب وكان مكتوباً بالروسية فسر به ودعا وكيله وأمره أن يسلمني ما أريد من المال وكلّفني أن أطبعه في صوفيا .

فلما علمتْ روسيا بأمري أرسلتْ خلفي الجواسيس ، فلما وصلتُ إلى الآستانة قبضت عليّ السفارة الروسية، وساقتني إلى روسيا المحاكمة عام ١٨٩٥ . ولما صرت في السجن مات رئيس نظار روسيا وتولى الرئاسة (اسفينا بولك ميرسكى) وكنت أعرفه من قبل فأخرجني .

وقد كانت صحبتي لجمال الدين ثلاث سنوات وستة أشهر .

ودخلت عليه ذات يوم فدعاني بيده لأنه ما كان يستطيع التكلم وأخذ ورقة وقلماً وكتب : فيها : تشهد بالله أن آخر كلام النبي : أمتي أمتي أمتي .. وأنا أقول : ملّتي ملّتي ملّتي .. وبعد ساعين رجعت إليه فقالوا: توفاه الله (١٨٩٧)

مراجع الفصل

لطفى جمعة : البلاغ الأسبوعى م ١٩٢٩ .

(محمد أبو شادى) : جريدة الظاهر : شوال ١٣٢١هـ .

عبد الرحمن البرقوقى : مجلة البيان : م ١ سنة ١٩١١ .

محمد كرد على : مجلة المجمع العلمى العربى .

رشيد رضا : مجلة المنار سنة ١٩٠٥ .

الأهرام : ١٨ أكتوبر سنة ١٩٣٥ .

فرح أنطون : مجلة الجامعة سنة ١٩٠٦ .

- ٣ -

مِنَ الرِّوَاق العبّاسِي إلى عين شمس

(٣)

من الرواق العباسي إلى عين شمس

لم تلبث ندوة «جمال الدين» أن انفضت، عام ١٨٧٩م، ودخلت الحياة الفكرية في معركة الصراع السياسي مع النفوذ الأجنبي، وتفاعلت روح الأزهر، مع كلمات جمال الدين، فأبرزت مدرسة ضخمة، في مجال السياسة والفكر وإصلاح المجتمع وتجديد الإسلام .. فانطوت صفحة أحمد عرابي والبارودي ومحمد عبيد بالهزيمة الغادرة في التل الكبير .. ولم تلبث الحياة أن بدت بصورة جديدة.

وتركز الضوء على «محمد عبده» ،وذهب محمد عبده إلى الرواق العباسي بالأزهر، وجلس يلقي دروسه، ولا يقبل في الندوة إلا من كانوا منطلقي الفكر، قادرين على التحرر من الجمود .. وبدا الأزهر يتألق ..

وكان الشيخ محمد عبده قد نُفي بعد الثورة العرابية فقصد إلى بيروت فباريس فبيروت مرة أخرى وعاد حيث بدأ المجتمع في صورة جديدة في ظل الاحتلال، وفي هذه الفترة ظهرت ثلاث ندوات: (١) الرواق العباسي حيث كان يلقي محمد عبده دروسه. وصالون الأميرة نازلي فاضل، و(٣) منزل الإمام في عين شمس، وكان هو شخصياً حجر الرحى في الندوات الثلاث، ومعه باقة من أتباع جمال الدين وتلاميذه الذين لم يشهدوا قهوة متاتيا ومن هؤلاء «لطفي جمعة» الذي تبهره صورة ندوة محمد عبده «الإمام» كما كان يلقب، فإذا قيل الإمام عُرف أنه الشيخ محمد عبده.

«كان الشيخ محمد عبده الذي أدركته عام ١٩٠٢ ربعةً من الرجال، أسمرَ اللون أبيضَ الشعر، حديدَ البصر، ليس نحيفاً وليس بديناً، وكانت تقاسيم وجهه تحببه إلى كل من يلقاه، ودع عنك خفةَ الروح والجاذبيةَ القوية. وكان صوته هادئاً جميلاً يتكلم بتؤدة وبساطة، وقد تعرفتُ إلى الشيخ بغير واسطة فكتبتُ إليه خطاباً ثم زُرته وتكررت زياراتي له مرات، وكان مجلسه يحفل بكبراء مصر وأدبائها وبعض

الأجانب ، كما كان بيته في عين شمس ملجأ الكثيرين من ذوى الحاجات وطلاب المقاصد الشريفة ، وكان بين الشيخ وبين مستر « بلنت » أواصر مودة قوية ، وكان « بلنت » يقيم فى قصر فخم ذي حديقة غناء فى قرية الشيخ عبيد على مقربة من « عين شمس » وهو الذى أقطع الشيخَ الأرض التى بنى عليها بيته بالطوب الآجر الذى لم تنضجه النـار ، وكان يزور الشيخ لابساً عباءه وعقالاً ومعظم حديثهما بالعربية .

وكان الأستاذ يدعو بعض نجباء المصريين ويحملهم لدى « بلنت » ليأنس إليهم ومنهم محمد المويلحى وعلي يوسف وحافظ إبراهيم وكان « بلنت » يُقَيِّدُ أحاديثهم .

وكان الشيخ محمد عبده فى أيامه الأخيرة مريضاً بسرطان فى الكبد متبرماً بالحياة ضجوراً من الذى عاناه فى حياته التى كانت سلسلة جهادٍ وكفاحٍ .

وكان الأستاذ الإمام يتكلّم متدفقاً كالسيل ولكنْ فى هوادة ورقة ، ولئن شَعَرَ السامعُ بقوة الحديث وكلامه وتدفقه ، فإنما يشعر أيضاً بأنه ماء النيل عذب السلسبيل ، وكان الشيخ عدا أحاديثه فى المسائل العامة على هذا الأسلوب المتأنق يتكلم أحياناً ويروي مُلَحاً يطلق عليها اسم اللطائف وبعضُهـا مقتبس من الآداب الأجنبية .

* * *

وكان الشيخ محمد عبده يدخل إلى قاعة مجلس شورى القوانين ، وقد وضع على عينيه نظارة عوينات ، وحول رقبته مزوء وفى إحدى يديه قفاز ، والأخرى عارية ، وفيها لفيفة كبيرة (سيجار) من طبقات هافانا ، وكان يسير نحو قاعة الاجتماع وهو يقرأ عادة كتاباً أو جريدة ويستمرّ في قراءاته إلى أن يبلغ منتصف القاعة ، فينهض جميع الأعضاء لتحيته ويتهافتون عليه ويبسطون أكفهم مرحّبين ، فيلمس تلك الأكف المبسوطة بأطراف بنانه .

وكان الشيخ قد أوجد لنفسه فى المجلس مركزاً ممتازاً ، وذلك بعلمه وفصاحته واهتمامه بالمناقشة وعدم تدخّله إلا عند النقطة المهمة من المباحثة ، فلا يتكلم فى لغو ولا يسهب ولا يقترح إقتراحاً مستحيلاً ..

* * *

٢ — ومن رواد مجلس الإمام وتلاميذه « عبد الرحمن البرقوقى » هذا الشابه

الذى وجهه أستاذه إلى الصحافة الأدبية وعلّمه ، فاصدر من بعد مجلة « البيان » كبرى مجلات ماقبل الحرب العالمية فى بعث الأدب العربي والترجمة الرصينة لأروع الآثار الأدبية الغربية وهو لايني يتحدث عن أستاذه :

« فى ذات يوم من أيام ١٩٠٤م كنت بحضرة أستاذى شيخ الحكماء وعمدة العلماء الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده رضى الله عنه، وقد كنت قبله طوال المدة التى (تزهرت) فيها على عمياء من أمرى لا أعرف للعلم معنى إلا أنه فى الكتب ، ولا أفقه له غاية إلا نقل ما فى هذه الكتب من الخزائن الخشبية إلى الخزان العظيم (الرءوس) فما زال رحمة الله يخلّص من نفسى ويصقل من أطرافها ويرهف من حواشيها حتى أطلعها من تلك الظلماء مطلع الكوكب من السماء ، فإن شخص الأستاذ لم يكن إلا مدرسة لمن يحسن أن يدرس إشارته ويتبين ملامحه ويستوضح شمائله .

قلت للامام : مسائل ثلاث غاب عنى مقطع الحق فيها .

كيف يكتب « العالم » وكيف يكتب « الصحفى » ، وكيف يكتب « الأديب » ، وما هى مفاصل الحدود بين الثلاث :

قال : أراك تمهّد لغرضٍ وإن وراء لفظك القلق لمعنى مطمئنا ، ويُخيّل إليّ أن لك هوىً فى مزاولة الصحافة .

قلت : هو ذاك يامولاي ، وما بى أن أعلم إلا ما أعمل ، وإلا فأين أقع من أدبك إذن ؟

قال : فاعلم أن الحقائق النفسية مطلقة ، لاقيد لها وأن الحدّ لايثبت على الحقيقة بتمامها ، وهى معنى الكمال إلا إذا كان للكمال المطلق حدّ محدود ، وإنما تؤتى هذه الحقائق من جهة العرف وتنتقص فى مواضعات الناس ، وأنت خبير بأن مجرى العرف فى أمةمن الأمم لا يكون إلا بحسب مافى مجموعها العقلى من القوة أوالضعف وتواطأنا على أن من ينشىء صحيفة وأن كتبها غيره ، سميناه صحفياً ، وتواضعنا من قديم على أن من يحفظ قطعة من اللغة سميناه أديباً ، وليست الصحافة عندنا بأحوج إلى الحقيقة الصحفية عن غيرنا منها إلى حقيقةالعلم وإلى حقيقة الأدب، فإن أردتَ أن

تصحح معنى العرف وتصلح خطأ الاصطلاح ورغبت فى أن تكون بحق، أحد الثلاثة فكن الثلاثة جميعاً .

* * *

٣ — وكان مصطفى صادق الرافعى من رواد مجلس الإمام ، وقلما وجد لقائد أو رائد أو زعيم تلاميذ ينظرون إليه على هذا النحو، بالإكبار والإعجاب والتقدير ، أنظر كيف يصفه الرافعى :

« نظرتُ إلى عينيه ذات مرة فخُيِّل إليَّ أن فيهما رهبة الأسد حين يجلى بنظرة كبريائه ، فمددتُ النظر إليهما، فإذا روعة إنسان هو أرفع من إنسانيتنا ، وإذا أنا ألمح فيهما ذلك الشعاع الغريب الذى ينبعث من أعين الحكماء ليصل بين السرِّ الكامن فى المعقول والسر الكامن فى العقل ، وكأنه استشعر ذلك فتبسم ، فكان لنظرته جلال سماوى رحيم أشرق على نفسى كما تشرق على روح الطفل ابتسامة أصله الإنسانى . كان منطويا على حقيقة روحانية يسطع ضياؤها فى عينيه وينتشر على ما حوله ، فلا يشعر من يجلس إليه أنه جالس مع الرجل ، ولكن مع النفس العالية التى هى فيه ، وكان أعظم هيبة من الملوك لأن هؤلاء يحيطون أنفسهم بالديوان والمواكب ، أما الشيخ فكنت تراه حيث رأيته كالمحراب حيث يكون لا يقف عنده إلا من وقف ليخشع .

رجل لم يخلق من قبل زمنه لأن الأقدار المصرفة دخرته للقرن الرابع عشر تجعله وأصحابه أهل النهضة الثالثة فى الإسلام (نهضة الأخلاق ثم نهضة العلم ثم نهضة العقل الإسلامى) .

ولست أدرى على أن روح نبت هذا الرجل ، ولكن الذى أعرفه أنه حين أثمر فنضج خلاً، أذاقَ الناسَ من ثمره طعم، معجزةَ الفكرِ العربي .

* * *

٤ — وممن حضروا حلقة الشيخ محمد عبده فى الرواق العباسى « محمد كرد على » العلامة السورى الذى أنشأ المجمع العلمى العربى عام ١٩٢٠ واستمر رئيساً له حتى توفى (١٩٥٣) وقد كان فى هذه الفترة مهاجراً فى القاهرة: «حضرتُ دروسه

فى الرواق العباسى فى الأزهر ومجلسه الخاص فى داره فى عين شمس أو دور بعض مريديه ، وسمعتُ بعض خُطبه فى الجمعية الخيرية ، فكنتُ أقول سبحان من خصه من بين معاصريه ببلاغة اللسان وبلاغة القلم ، وما حضرتُ له درساً ولا مجلساً ولا خطبةً ، إلا تمنيتُ لو يُطوَّلَ إلقاؤه أكثر مما طال ووددتُ أنْ أكون كُلِّي آذاناً تسمع ، وقلوباً تعي وتفهم ، لقد تعلم الفرنسية فوق الأربعين فلم يأت عليه إلا أشهر حتى كان يجيد فهمها ثم كان يتكلم بها كأحد أهلها ، وقد أتقنها دون عناء فقد كان يحضر فى الصيف دروساً فى هذه اللغة فى كلية جنيف ويتمرَّن على الكلام فى السياحات ، وأذكر أنى صحبتُ أحدَ علماء المشرقيات الألمان لزيارته فى داره ، وكان الحديث بالفرنسية فى موضوع التربية والتعليم ، فما غلط الأستاذ غلطةً واحدةً فى الساعة التى قضيناها فى حديثه ، وأبان عن بديهة مؤاتية دهش لها صاحبي الألماني وبقي أياماً يحدثني بأثر تلك الزيارة فى نفسه .

ولقد عطف عليَّ منذ تشرفتُ بالاجتماع إليه ، وهيأَ لي التعرف إلى طائفةٍ من رجال مصر في العلم والقضاء والإدارة والسياسة والأدب ، وذكر لي السبب الذى دعاه إلى تعلم الفرنسية فقال: إن الذي زادني تعلقاً بتعلم لغة أوربية هو أنى وجدتُ أنه لا يمكن لأحدٍ أن يدّعى أنه على شىء من العلم يتمكن به فى خدمة أمته ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغى ، إلا إذا كان يعرف لغةً أوربيةً ، كيف لا ، وقد أصبحتْ مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوربيين فى جميع أقطار الأرض .

* * *

٥ — ومن تلاميذ الإمام ، ذلك الشاب السورى الذى قدم إلى القاهرة ليتلقى عليه وخلفه فى حمل لواء الدعوة وأنشأ مجلة المنار : « رشيد رضا » وقد وعى صاحب المنار من أحاديث الإمام إليه قدراً كثيرا يكشف صورة العصر ، قال له الإمام :

« إن نفسى توجَّهتْ إلى إصلاح الأزهر منذ كنتُ مجاوراً فيه بعد التلقى عن السيد جمال الدين ، وقد شرعتُ فى ذلك فحيل بيني وبينه ، وكنتُ أترقب الفرص فما سنحتْ إلا واستشرفتُ لها وأقبلتُ عليها ، حتى إذا صدفت الموانعُ لويتُ وصبرتُ مترقباً إلى فرصةٍ أخرى ، وبعد أن عدتُ من المنفى حاولتُ إقناع الشيخ محمد الأنبابى شيخ الأزهر بشىءٍ من ذلك فلم يصادف قبولاً . قلتُ له مرة : هل لكَ أيها

الأستاذ أن تأمر بتدريس (مقدمة ابن خلدون) فى الأزهر ووصفت له فوائدها، فقال إن العادة لم تجر بذلك، فانتقلت به إلى شجون الحديث إلى ذكر الشيوخ وسألته : منذ كم مات الأشموني والصبان، قال : منذ كذا. قلت إنهما حديثا عهد بوفاة وهذه كتبهما تقرأ بعد أن لم تجر بذلك العادة فسكت ولم يدخل فى الحديث.

وأردف الأستاذ الإمام إن بقاء الأزهر متداعياً على حاله فى هذا العصر محال فهو إما أن يعمر وإما أن يتم خرابه، وإنى أبذل جهد المستطاع فى عمرانه، فإن دفعتنى الصوادف إلى اليأس فى إصلاح، فإنى لا أيأس من الإصلاح الإسلامى، بل أترك الحكومة وأختار أفراداً من المستفيدين فأربيهم على طريقة التصوف التى ربيت عليها ليكونوا خلفاً لي في خدمة الإسلام، ثم أؤلف كتاباً فى بيان حقيقة الأزهر أمثل فيه أخلاق أهله وعقولهم ومبلغ علومهم وتأثيرهم فى الوجود وأنشره باللغة العربية ولغة أفرنجية».

وتربيتهم على التصوف.

* * *

وقال رشيد رضا :

وحدثنا بأمر الامتحان فى الأزهر حديثاً كله تنديد بشيوخه وبتعليمهم، بل قال إن الكثير من مدرسي الأزهر لا قابلية له الآن لأن يكون فيه طالب علم.

قال الأستاذ الإمام: كنت فى الامتحان أسأل أحد الطلبة عن عبارة ليكمل ألفاظها المفردة بإدخال ضمائرها وبيان متعلق ظروفها. هذا إن أحسن الجواب فأسأله عن المراد بهذه العبارة فلا يجد جواباً.

وقال رشيد رضا : كان مراده قلب هيئة الأزهر دفعة واحده، ولكن قيل له إن الشيوخ يصعب عليهم ذلك، ولا بد من أخذهم بالتدريج. وقال إن مداخلته بالحكومة إنما هى لأجل الأزهر لأنه لولا مركزه فى الحكومة لايقبل له قول ولا يستطيع أن يعمل فيه شيئاً، وأنه يعلم أن كثيراً من الشيوخ الذين ينقادون له الآن، ساخطون عليه فى نفوسهم مع أنه سعى لعلماء الأزهر بمبلغ خمسة ألاف جنيه وكانوا فى غاية الضيق.

ومما ينقمون عليه أنه لايطول أكمامه مثلهم، يركب الحصان ويلبس الجزمة عند ركوبه. ولما ولاه الخديو السابق القضاء قال لناظر الحقانية : لقد خلقت لأن

أكون معلما لا أن أكون حاكما، فقل للخديو يجعلنى فى دار العلوم ، فلم يقبل الخديو وقال : إن الحكومة أرادت الإصلاح .

وقال وإن المصريين منهم من يعتمد على فرنسا . . وعلى . . وعلى وكل هذه أوهام ، والصحيح أنه لا يضمن لنا الاستقلال والحياة للأمة إلا شىء واحد وهو التربية والتعليم الصحيح .

وقال : إن جميع ما حولنا — ولا سيما حكامنا وعلماءنا — يدل على اليأس ، ومع هذا فإن لي أملاً كاملاً ، ويوجد رجل آخر فى مصر له نصف أمل ، سأسأله عنه (إنه عبد الكريم سلمان صديقه) .

وسألته عن الكتاب المعهود (السيرة النبوية) فقال : إنه لم تتمه وإنه لابد له منه ومن كتب أخرى . ولكن يحتاج إلى مساعد حاذق أمين ، يفحص له عن النصوص ، فإن جميع أرباب التآليف الكثيرة كالغزالي وغيره كانوا كذلك وإلا فإن الوقت لايتسع لتلك المؤلفات ، وإنه لم يجد ذلك المساعد ولا المال .

فقلت « ستجدنى إن شاء الله من الصالحين » وربما يحصل بينى وبينه ارتباط عظيم ، ولو جئت مصر غير متعلق بغيري ربما كان أولى ، فإني أجد قبولاً عظيماً عند الكبراء والوجهاء من أهل العلم وأهل الحديث . وما تكلمت أمام أحد إلا اعتبرني اعتباراً زائداً .

وأخبرنى الأستاذ (الإمام) أيضاً أنه شرع فى تأليف رسالة فى التوحيد منذ كان فى بيروت وأنه سيتمها ويقرؤها درساً في الأزهر ويقرأ كتاب السيرة المعهودة أيضاً إذ قراءته تدعو إلى إتمامه .

قال إن بعض الكتب التاريخية وغيرها ربما لايوجد فيه من العبارات المفيدة إلا عبارة واحدة أو إثنتان والباقى لا أهمية له، فاستخراج المفيد صعب .

* * *

أما سيرة (الإمام) فى مصر ، فالكل يعلم أنه ملك زمام الأزهر وأنه هو الساعى إلى انتظامه وشيخ الإسلام فمن دونه تبع له ، وفى إنشاء الرواق الجديد ويسمى

بالرواق العباسى وهو حسن جداً وقد سمى بمبلغ من النقود ليوزع على النابغين فى الامتحان من الطلبة وسيوزع قريباً فى احتفال يخطب فيه هو .

أما من حيث الحكمة فقد سمعت أنه يأتي الساعة واحدة فيحلّ المشاكل ويفصل الدعاوى المتراكمة وينقلون عنه حكايات لطيفة فى بيان الحيل وكشف الدسائس .

وذكرتُ له أن غرضى الأول تلقي الحكمة منه فى أوقات الفراغ ، فسر لذلك وعهدَ إليّ أن أجيء إلى بيته صباح يوم الجمعة (نهار غد) وأنه يأخذنى حيث يذهب .

فاتنى أن أكتب لكم أنه قال للسيد جمال الدين الأفغانى عند ما كان فى فرنسا : دعنا من السياسة ولنختر لنا مكاناً مهملاً لا اعتبار له فى نظر الحكام (أوما معناه) ونُعَلِّم به ونُرَبِّي بعضَ الأولاد ، فلا تمضى عشر سنين إلا ويبرع منهم جماعة على رأينا يقلدوننا فى ترك أوطانهم والهجرة فى نشر العلم والدين فنرسلهم للجهات وإن السيد الأفغانى أبى عليه هذا وقال له : أنت مثبط فلم يكن مندوحة من الانصياع له .

وقال : لو أن السيد ترك السياسة والتفت إلى التعلم لأصلح إصلاحاً عظيماً .

* * *

٦ — ومن أصدقاء الإمام مستر « بلنت » المؤرخ البريطاني المشهور مؤلف كتاب « التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر » وقد صَوَّرَ بلنت في مذكرات لم تنشر في كتابه لقاء الشيخ محمد عبده بالفيلسوف الانجليزي سنبسر أثناء زيارته لبريطانيا (١٠ أغسطس ١٩٠٣) حيث دار بينهم حديثٌ طويل : سبنسر

س : هل الشرق يسير فى تفكيره على النمط الذى يسير فيه الفكر في أوربا .

م ع : إن ما يتعلم الشرق من الغرب هو الخبيث دون الطيب ، على أنه لا يزال أنضج الفكر عند الاثنين سواء .

س : إذا رجعنا إلى جوهر الأمور فإني أظن أن الفكرة السائدة عن القوة الخفية المحركة للعالم والتى يقولون عنها « الله » ونقول نحن عنها God ، أن الربّ ليس فيها خلاف بيننا .

م.ع : إننا نعتقد أن الله كائن وأنه ليس بشخص .

س : إن التمييز فى ذلك صعب الفهم والإدراك ، يظهر لي أنكم تعتقدون

بقصور العقل عن الإدراك الإلهي . وهذه تشبه نظرية الذين يجهلون الله وهى النظرية الموجودة بين كثيرين فى أوربا .

م.ع : الله يعلم كل شىء فى كل وقت . وليس له يوم وليس له غد ، وهو واحد أحد صمدٌ ، وعلمه دائم ، ولا تبديل لكلماته ، مدركٌ لكل شىء ، خالدٌ ، لا يشابه الحدوث وإني أُسَمِّي هذا كائناً ولا أسمية شخصية .

* * *

٧ — وكانت للشيخ محمد عبده جلسات فى داره بعين شمس ، هذه الدار التى وهب له أرضها صديقهُ مستر « بلنت » وقد وصفها كل من شاهدها بأنها دار صغيرة كانت مبنية من الطوب اللَّبِن . وقد وصفها حافظ إبراهيم فى رثاء الإمام :

فيا منزلاً فى عين شمس أظلنى　　وأرغم حُسّادي وغَمّ غداتي
دعائمه التقوىٰ وأساسه الهدىٰ　　وفيـه الأيادي موضع اللَّبِنات
عليكَ سلامُ الله مالك موحشاً　　عبوس المغاني مقفر العرصات
لقد كنتَ مقصودَ الجوانب آهلاً　　تطوف بك الأمال مبتهلاتِ
مثابةُ أرزاقٍ ومهبطُ حكمه　　ومَطْلَعُ أنوارٍ وكنز عظات

وكان الشيخ قبل بناء هذه الدار يقطن فى منزله القديم بحى الناصرية بالسيدة .

وكان الشيخ — على حَدِّ رواية لطفى جمعة — يصبح فيغدو إلى مجلس الشورى ، ثم يخرج من المجلس ظهراً فتناول طعام الغداء ويذهب إلى الأزهر ، فإذا كان اليوم يوم جلسة الإدارة جلسها وعمل فيها عمله ثم ينتقل إلى مكتب الإفتاء ، حيث ينتظره أصحاب الحاجات المختلفة فى جميع مصالح الحكومة وغيرها والمستفتون والزائرون وكُتّاب الجمعية الخيرية والأزهريون من علماءَ ومجاورين فينظر فى هذه الأمور إلى ما بعد العصر ، ثم يخرج إلى ديوان الأوقاف ، إن كان اليوم جلسة المجلس أو مجلس إدارة الجمعية الخيرية ثم يعودُ بعد الغروب إلى الأزهر فيقرأ الدرس ؛ ويتجه بعد العشاء ، قاصداً داره فيجد العفاة وأصحاب الحاجات ينتظرونه فى المحطة وفى البيت يعرضون عليه حاجاتهم ، وبعد هذا كله لم تكن تخلو دارهُ من

السامرين الذين يتكلمون معه في العلم والأدب والمصالح العامة والخاصة .

ويقول الشيخ رشيد رضا: جئته مرة بداره بعين شمس (١٨٩٩) وكان قد وُعِكَ غداةَ يومه، فرأيته ينظر في ثلاث كتب عربية ، يقرأ المسألة في كل منها ، فسألته مابك؟ ما هذا الذى تنظر فيه؟ فقال: إنه التَهيُّج العصَبي الذى يلمُّ بي أحياناً من الفكر في الأمور العامة ، وهذه كتب في أصول الفقه الهُو بمباحثها عن القرآن ، فإنى إذا فكرتُ فيه، رأيتُ بعد المسلمين عنه فيقوى التَهيُّجُ العصبي .

وقال الشيخ رشيد إنه بدأ في تفسير القرآن بالرواق العباسي في غرة المحرم ١٣١٧ هـ (١٨٩٥) وعُيِّن مفتياً في نفس الشهر .

وقال إنه تلقى خطاباً يهدده مرسله بالقتل ، فقال له الشيخ رشيد: إن لك أعداءً لا يخافون الله وإنك تجيءُ دارك في الليل وهي في الخلاء بعيدة عن العُمْران فلو نظرتَ في ذلك . . .

وسأله مرة ماذا تصنع إذا هجم عليك لصٌّ في الليل ، أتُطْلِقُ عليه الرصاص من هذا المسدس؟ وأشرت إلى مسدس معلق بسرير نومه ، فقال: لا يجوز إطلاق الرصاص في البيت فإنه يزعج النساء والعيال وليس عندى للصِّ إلا القبض عليه والأخذ بقوف رقبته .

وكان ينام طائفة من الليل ثم يقوم في السحر ويلبث بعد السحر إلى أن يصلى الصبح ثم ينام حتى ترتفع الشمس . وكان ينفق ويتصدق في كتمان .

* * *

٧ — ومع هذا كله فقد كان محسوداً وله خصوم ، وقد جلس إليه حافظ إبراهيم ذات مرة في فناء منزله ، فدار الحديث على ما يرمى به حاسدوه من الرشوة فقال :

ـ والله يا حافظ لو كنت أقبل الرشوة لسال هذا الفناء ذهباً » .

كان الخديو عباس بعد أن وقع الخلاف بينهما يوغل معه في الخصومة : يقول الدكتور محمود عزمي «سمعتُ الخديو عباس يقول : كان الشيخ عبده يتقدم إليَّ بمشروعاته الخاصة بالأزهر والقضاء الشرعى فكنتُ أطلبُ إليه أن يعود لعرضها عليَّ بعد يومين أو

ثلاثة أيام ، وكنت أبعث إلى ستة أو ثمانية من العلماء أجمعهم حولى وأقول لهم غداً ، أو بعد غد سيحضر الشيخ عبده ليعرضَ عليَّ مشروعاته ، وها أنا أدفع إليكم بها إلى الآن لتدرسوها وتحفظوا ملاحظاتكم عليها ، وسأجمعهم به غداً أو بعد غد ، وسأرى من الذى سيغلب ، هو أو أنتم ، ثم كانوا يحضرون عرض الشيخ عبده لمشروعاته ، فأقول : ما رأيكم يا مشايخ؟ فينبرى له المشايخ يعارضونه ويناقشونه ، وكان أمعنهم فى المناقشة الشيخ بخيت . وكان من وجوه إمعانه وضروب استفزازه أنه لا يخاطب الشيخ عبده إلا بقوله : لا ، لا يا شيخ محمد ، مش كده ، يا شيخ محمد » .

وقد صورت بعض المصادر الصحفية : أن الشيخ « بخيت » كان من أشد المعارضين لحركة الإصلاح التى قام بها الشيخ محمد عبده ، وقد دفعه إلى هذه المعارضة شهوة المنافسة وتحريض أولى السلطان ، كان فى نفسه طموح إلى مساماة الإمام فى منصبه ونفوذه وشهرته .

* * *

٨ — وكانت هناك صحف تحمل لواء « الغميزة بالشيخ عبده » كما عبَّر عنها الشيخ رشيد رضا ، وفى مقدمة هؤلاء « محمد أبو شادى » المحامى المشهور صاحب جريدة الظاهر ، وقد عارضه فى فتواه فكتب فصولاً طويلةً يهاجم بها اجتهاد الشيخ عبده ، ثم جمعها فى كتاب أطلق عليه هذا الاسم :

« تقرير ملي يتضمن المشروع فى دين الإسلام : نشر فى صحيفة الظاهر ٢٩ شوال سنة ١٣٢١ » ،

وهذه هى القضية من وجهة نظر محمد أبو شادى :

« أذاع أشياع الشيخ فى الصحف التى استخدموها لغاياتهم أن فضيلة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ، مجتهد ، وأنه من ذوي الآراء فى الدين الإسلامى محتجين بقول العلماء عن المفتى المجتهد فى نظر المذاهب الأصلية ، أن بلوغ درجة الاجتهاد ليس بالشىء السهل على عصرى مثل حضرة الشيخ المفتى بل إن ذلك يكاد ممنوعاً عقلاً وإن كان جائزاً فى نفسه ، أما وجه كونه يكاد يكون ممنوعاً ، فلأن الثقة العامة ركنٌ من أركان دعوى الاجتهاد ، فإذا ادَّعى مُدَّعٍ أنه من المجتهدين واختلف الناس

حقيقة أمره، سقطت دعواه خصوصاً إذا لم يفرق بين الاجتهاد المطلق والاجتهاد المذهبي.

وإذا أراد مفتى مصر أن يحرز ثقة الجمهور كما أحرز أولئك السلفاء الصالحون فليس عليه إلا أن يحترم مذاهبهم ويكون عضواً لهم فى تنفيذ أحكام الملة التى استنبطوها من السنة .

وإذا تصفحنا تاريخ الأستاذ المفتى نجده كان منذ أعوام مالكى المذهب، ولم يدخل مذهب الإمام أبى حنيفة إلا وقت أن إشرأبّ إلى الوظائف الملية المحظورة على غير الأصناف من العلماء، فهو فى المذهب غير حجة تخول له حق الترجيح . وإنما هو مجرد عالم فاضل كغيره من العلماء الموقرين . فلا نعترف له باجتهاد وإنما نعترف له بالعلم والذكاء والفضل وبُعد النظر فى الأمور المادية والأدبية .

وإن كان يرى من ظروف الأحوال ما يضطره لأن يقول غير المعروف فى كتب الفقه والدين ، فإن حُسْنَ مقصده لاريب فيه ، ولا يمكننا أن نتهم الشيخ بسوء القصد فى دعوى الاجتهاد وإنما دفعه حسن ظنه إلى ما كان هذه نتيجته ومن عجب إن أبو شادى قد تَحَوَّلَ من بعد إلى موالاة الإمام ومعاداة خصومه حتى أنه وضع التراب على رأسه يوم موته .

* * *

وكان قد قدم إلى مصر رجل من مسلمى الترنسفال ورفع فتوى إلى الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية وقد أفتاه فضيلته برأيه الخاص .

الأول : فى لبس القبعة حيث أن فريقاً يلبسونها هناك .

الثانى : فى أكل ذبيحة القوم هناك وهم فى يخالفون أحكام الدين فى كيفية الذبح .

الثالث : فى صلاة الشافعية هناك خلف الحنفية .

فما كان من حضرة الشيخ إلا أن أباح لهم لبس البرنيطة مالم يقصد لابسها الخروج من الإسلام ، وأباح لهم أكل لحم الأبقار المضروبة على رأسها حتى تتحطم بالشاتور ، ولو لم يذكر اسم الله عليها وأباحَ للشافعى منهم أن يصلى خلف الحنفي» اهـ .

* * *

ومن خصوم الإمام : «محمد توفيق» صاحب مجلة «حمارة منيق» الذى انتهز فرصة

سفر الشيخ إلى أوربا ونشر له صورة فوتغرافية مع سيدة أمريكية ، كما نشر بعض القصائد يُشَهِّرُ فيها بالإمام ، وكذلك فعلت جريدة (النهج القويم) وقد أشارت (المنار) إلى أن صاحبها صَرَّحَ بأن الشيخ سليمان العبد هو الذى أغراه على الغميزة بالشيخ . .

* * *

٩ — ولعل أقوى مواقفه فى الخصومة الفكرية وحدها كانت مع « فرح أنطون » صاحب مجلة الجامعة حين نشر فصولاً فى مجلته هاجم فيها الفكر الإسلامى العربى على نحوٍ أحسَّ معه الشيخ محمد عبده أنه يحتاج إلى رَدٍّ ، ومن ثم كتب الشيخ مقالات متوالية يدافع عن الفكر الإسلامى نشرت فى كتابه « الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية » وليس هذا شيء مجهول ، فإنه بين يدى القراء وما نريد فى بحثنا هذا أن نتعرض للمطبوع من المؤلفات إلا بقدر إلقاء الأضواء ، إنما نحن نبحث عن الصور الغامضة المختفية فى بطون الصحف فنبرزها لتكون عوناً للباحث ، ولذلك أثرنا تنسيق هذه النصوص فى صورة اجتماعية للعصر تكشف عن ملامحه ودوافعه وأعلامه ونوابغه وتياراته .

ولندع فرح أنطون نفسَه يُصَوِّرُ كيف جرى الاتصالُ بينه وبين الشيخ محمد عبده خلال سنوات طويلة ، لنرى صورةَ العصر وملامح الشيخ وخلقه :

« نذكر طرفاً من تاريخ اتصالات الجامعة بالشيخ محمد عبده قبل المناظرة فى مسألة ابن رشد وبعدها ، هذه المناظرة التى كان الدوى البعيد فى جميع أنحاء العالم العربى . لم نجتمع قط بالشيخ محمد عبده ، إلا أنه دارتْ بينه وبين الجامعة رسائل تبلغ العشرين وأول رسالة كتبها بعد صدور الجزء الأول من الجامعة فى أول ظهورها ، فإنه لما اطلع على الجزء الأول عَهِدَ إلى صديقٍ لي من أكابر المصريين أن يبلغ الجامعة رضاه عن خطتها وعن مشربها فبعثتُ أشكره على الْتِفاتَتِهِ هذه إليها فبعث إلى :

« لا تأخذ الإبطاء بالإجابة فمن الشواغل مالا يذكر ، وقد يمنع عن الجواب ما أكبر . نذكر ثنائى على مشرب الجامعة وإنما يثنى على العامل عمله ، ويحدث عن الفاضل فضله ورجائى أن يتم لك ما أحسنت قصده ، وأن يصحبك النجاح فيما وجهت عزمك نحوه .

محمد عبده (١٩ إبريل ١٨٩٩)

ثم صدر الجزء الثالث من الجامعة لسنتها الأولى وفى صدره مقالة عنوانها « الآخاء والحرية » فكتب الأستاذ إلينا :

«قرأت الجامعة في عددها الثالث فإذا كله حسن، وأحسنه الكلام فى خير الأمرين منحة الحرية للشرقيين قبل أن يستحقوها ، أو إعدادهم لها قبل أن ينالوها واختياركم الثانى . وقد ذكرنى ذلك كله ما كنت أقوله من اثنى وعشرين سنة ، وهو تاريخ حركة أذهان الشرقيين فى شئونهم وإحساسهم بما وصلوا إليه وما سيقبلون عليه، فاستحسنت أن أبعث به إليكم حتى إذا رأيتم نشره نشرتموه على أنه كلام سُمِعَ عني وحفظه بعض إخوانى ، كما هى الحقيقة ، لا على أنى بعثت به اليوم لأن الناس يعلمون أنى لا أراسل الجرائد . . وليس مما تذكرونه من ذلك شىء يخالف الحقيقة .

وهنا أورد شذرة فى عشرين سطراً من كتابته الرقيقة المرصوصة المتماسكة كأنها دبيب النمل :

١

« إنما ينهض بالشرق مستبدٌ عادلٌ « مستبد » يكره المتناكرين على التعارف ويلجىء الأهل إلى التراحم ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه فى منافعهم بالرهبة أن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة .

٢

« عادل » لا يخطو خطوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبه الذى يحكمه ، فإن عرض حظ نفسه فليقع دائماً تحت النظرة الثانية ،فهو لهم أكثر مما هو لنفسه ، يكفى لإبلاغهم غاية لا يسقطون بعدها خمس عشرة سنة ،وهى سن مولود يبلغ الحلم ، يولد فيها الفكر الصالح وينمو تحت رعاية الولى الصالح ويشتد حتى يصرع من يصارعه ، حتى إذا عرفت الأفكار مجاريها بالتعريف وانصرفت إلى ما أعدت له بالتصريف ، وصحّ شعورٌ بالتعليل ، واستقامتْ الأهواء بالتعديل ، أباح لهم من غذاء الحرية ما يستطيع ضعيفُ السن قضمه ، والناقِهُ من المرض هضمه ، (هل يعدم الشرق كله مستبداً من أهله ، عادلاً فى قومه ، يتمكن به العدل أن يصنع فى خمس عشرة سنة ما لا يصنع العقل وحده فى خمسة عشر قرناً » .

وفى السنة الثالثة من الجامعة ألقينا سؤالاً على أهل الفهم والأدب وهو : «هل النهضة الأدبية فى الشرق نهضة حقيقية ، وماذا يجب فعله لترقيتها » فأجاب كثيرون من أدباء مصر والشام على هذا السؤال ، وقد شرّف الأستاذُ يومئذ الجامعةَ بجوابين على هذا الموضوع (الأول) فى بضعة أسطر قَصَدَ به إظهار رضاه، عن الجامعة وقد وقّع عليه هكذا « الفقير إلى الله وحده : محمد . . » وقد قصد به إلى مداعبة أدبية خفيفة لأنك إذا أضفت كلمة « عبده » إلى كلمة محمد كان توقيعه سجعاً .

والأستاذ رحمه الله كان ولعاً بمثل هذه المداعبات والنكات الأدبية أما الجواب الثانى فقد كان ضافى الذيول ،وقد نشرناه فى عدة صفحات تحت عنوان « بين عالم مصرى وعالم سورى » وكان العالم السورى (جبر ضومط) والعالم المصرى فضيلة المفتى . وإنما نتذكر أننا حذفنا من رأى الأستاذ عدة أسطر فى عدة مواضيع لتضمنها قَرْصاً شديداً لبعض الجرائد المصرية ، ولعله كان يعني الجرائد التى كانت معاديةً له .

وقد بلغنا أن هذا الحذف ساءه يومئذ ، ولكنه كان يبلغنا عن عنايته بالجامعة وثنائه عليها ، من ذلك أنه زارنا يوماً أحدُ الأصدقاء وقال : كنت اليوم فى المحافظة (دار حاكم الاسكندرية) وكان الأستاذ المفتى ضمن حلقة فيها يحادثهم عن الجرائد وتأثيرها وأهميتها فسمعته يقول : قد يَرِدُني أحياناً البريد وفيه عشرون جريدة ومجلة فلما أرى فى بريدى مجلة الجامعة فأول ما أمُدُّ يدي إليها . .

وهذا هو السبب الذى منعنا من مخاشنة الأستاذ رحمه الله فى أثناء المناظرة فى « ابن رشد وفلسفته » فإننا لم نجد من الوفاء والأدب أن نجزيِ الإحسانَ بالإساءة .

ثم كانت المناظرة فى ابن رشد وفلسفته .

وأصلها أن الجامعة بدأت يستخرج فلسفة العرب وتترجم أكابر فلاسفتهم وعلمائهم لنجمع تراجمهم . فأفتتحنا عملنا بترجمة ابن رشد فى (السنة الثالثة) فوجد قراء الجامعة فى مصر على الخصوص أن هذه الطريقة تجربة مطلقة من كل قيد طريقة جديدة مستحبة .

ففي ذات يوم ونحن نعد ترجمة الإمام الغزالي لنشرها ، كما نشرنا ترجمة ابن رشد وردنا كتاب من مصر يقول مرسله فيه : إن الأستاذ المفتي كان بالإسكندرية وقد بعث أخاه ليسألكم زيارته فلم يجدكم في الإدارة فعاد إلى القاهرة ، وكان غرضه أن يسألكم هل تريدون أن تنشروا في الجامعة رداً طويلاً على مقالة ابن رشد . .

فلما قرأت هذا الكتاب (عصبت رأسي) كما يقول العامة، لأني ما كنت أحب أن يرد الأستاذ على الجامعة في مسألة إسلامية .

إلا أني لم أتعلم قط الفرار من البراز ، فأجبت إيجاباً ،وكانت المناظرة التي يعرفها القراء ، ولم يقع للأستاذ مناظرة رنانة أخرى في مصر ، سوى مناظرته مع المسيو هانوتو وزير الخارجية الفرنسية في مسألة شرقية، وفي هاتين المناظرتين قال حافظ إبراهيم :

وأنت لها إن قام في الغرب مرجف   وأنت لها إن قام في الشرق مرجف

حافظ ، حافظ إنك لم تحاسب نفسك لمّا نظمتَ عجز هذا البيت .

وقد اهتم العالم الإسلامي والشرقي في مصر وخارج مصر بهذه المناظرة والأخرى اهتماماً لم ير لمناظرة غيرهما في الشرق . .

ولست أذكر هنا تاريخ كتابتي ، فأكتفي بأن أقولَ إن جميع قوايَ وحواسي تجمعت في مدة ثلاثة أشهر ليلاً ونهاراً في موضوعٍ واحدٍ فقلَّ نومي ، وانقطعتْ قابليتي للطعام ، وما سطّرتُ آخر سطرٍ فيه حتى انطرحت في الفراش لحمّى شديدةٍ اعترتني ، فكان جميع قواي التي كنت أستحثها على العمل قد نفذتْ ورزحتْ أول ما علمتْ أنها فرغت من عملها ولم يبق عليها شيء منه .

أما كيف انتهت المناظرة ، ولماذا انقطعت بغتةً ، ولم يرد بشأنها كلمة في الجامعة بعد كتاب ابن رشد فسببه أننا رأينا من أصالة الرأي إقفالَ الباب قطعياً .

فطبعنا كتاباً مفتوحاً إلى فضيلة المفتي (ثلاثة آلاف نسخة في ١٦ صفحة) وتركنا نسخاً من هذا الكتاب تصل إلى فضيلته قبل توزيعه ، واشترطنا للعدول عن توزيعه

أن يعدل بعض أخطائه عن الشتائم التي يوجهها إلى الجامعة ، فبعث فضيلته بالحال كبيراً يعتمد عليه لإيقاف توزيع الكتاب فشرّفَ سعادته إدارة الجامعة بزيارة منه على أن يقفل هذا الباب ، ولو نشر هذا الكتاب المفتوح الذى لم يبق لديَّ إلا نسخة واحدة منه لأنى أحرقته فربما كانت عاقبته سيئة جداً .

* * *

وقبل وفاة الأستاذ بعام ذهب فى الصيف إلى بلاد الانكليز ومن هناك عرج على الجزائر وتونس فلقي من الإجلال والاكرام ما لايلقاه إلا العظماء والأمراء ، وقد استقبله علماء الانكليز وأساتذتهم استقبالاً يفوق استقبالهم أستاذه جمال الدين الأفغانى ، لأن الأستاذ المفتى سار إليهم وهو لايحمل فقط قبس الشرقى ، بل كان يحمل وظيفة الإفتاء الكبرى للمسلمين فى جميع الأقطار .

وقد أرسلتُ بعد عودته خطاباً قلت فيه « وأغتنم الفرصة لأستأذن فى نقل درسكم البليغ الذى ينشره المؤيد فى العلم والتعليم مع الإلمام بشىء من سياحتكم إلى الغرب التى فيها شرف للشرق .... للدلالة على الإخلاص لفضيلتكم ولكي تعلموا أن ما نشره فلان عن إرسال وشايات هو اختلاقٌ محضٌ » .

وقد كتب المفتى يقول :

أشكرك على التهنئة وعلى الميل إلى استدامة الصلة ، وأحب أن تعرف أن ما يسمى وشايات لا سلطان له عليَّ ، وإني لا آخذ بالكلمة التى تلقى إليّ إلا إذا قام عليها من الأدلة ما يحصل اليقين ، ثم إن قلبي لا يسع ما يسميه الناس عداوة وليس فيه مكان لذلك ، ولكن قلبي قد يحتقر ما لاقيمة له ، أحياناً يظهر ما يجد من ذلك وأحياناً لا يبالي بإظهاره ولا كتمانه . وما ذكرتَ ، لم أطّلع عليه أو لم ألتفتْ إليه ولا وقت عندي لتحقيقه ، على أنه إن لم يكن فيه تلميح أو تصريح بذكرك فلم حملته على نفسك . على أني قد علمتُ حق العلم أن وشايةً قد وصلتْ من الاسكندرية إلى الجزائر ، ولكنك لم تخطر ببالى عندما تحققتُ ذلك ،

تَقَلَّمَ تُسِيءُ الظنَّ لمجرد ذكر لفظ يشمل مدنية بتمامها ، إن من يشغل بهذه السفاسف كثيراً لا يليق بهم أن يكونوا فى عمل مثل عمل مجلتك . ولو أنك راجعت دفتر أعمالك لوجدتَ من أكبر ما يصح بقلبي أن يتأثر له ذلك المطبوع الذى أرسلته إليّ ولكيلا يبقى منه أثر في نفسي لم أبق له أثرا عندي . وعلى كل حال فلا تجعل لهذه الأمور سلطة على نفسك ولا أظن أن عنفوان الشبيبة يمنعك من بذل الجهد فيما أحبُّ لك ولكل من يعمل عملا يرجى منه الخير .

أما ذكرك لمجمل ما ألقيته فى تونس فإليك من ذلك ما تحب ، غير أنى أوجب أن ينسب إلى جريدة (الحاضرة) التى تنشر فى تلك المدينة لأمرين :

الأول : أنه من حقها ، والثانى أنه بعبارة صاحبها ، وفيها مالا يصدر من قلمى العربي عادة ، وإذا أشرت إلى شيء من سياحتى فليكن بعد تحري ما تعلم من ذلك » .

* * *

فأنت ترى أن الأستاذ رحمه الله وضع فى جوابه خَلاًّ وخمراً فأجبته بخطاب عتاب ، فأرسل لي يقول :

« لو احتقرتُكَ ما كتبتُ إليك كلمة وإنك لتسيءُ الظن بنفسك أكثر مما يسيئه غيرُكَ ، وكنتُ أودُّ لو كنتَ لنفسك أفضل مما أنتَ لها اليوم ولكن اللهم عرِّفنا بأقدار أنفسنا ، فذلك اللهم أنفس ما تعطي وأفضل ما تهبُ . » ا . ﻫ

* * *

ويتصل بهذا على نحوٍ من الأنحاء ما أثاره الشيخ عبد ربه مفتاح من أن الشيخ محمد عبده « نقل » ولا نقول عبارة الشيخ « سرق » من كتابات الشيخ محمد بخيت ودوّنه فى حاشيةٍ مطبوعة ١٣٢٣ﻫ مما نشر من قبل سنة ١٣١٣ﻫ ، يقول الشيخ عبده ربه مفتاح فى حديث له بجريدة الأهرام (٢٨ أكتوبر ١٩٢١) : على أن الشيخ محمد عبده لم ينقل من الشيخ بخيت فى الموضع المتقدم فقط ، بل

نقل عنه فى مبحث إثبات الواجب ، ومبحث العلة ومبحث قدم العالم . . ثم يقول : «ونحن لانرى فى النقل عن المعاصر والمتقدم بأساً ما يؤخذ على الناقل » .

* * *

ولقد نشر الشيخ محمد عبده فصولاً فى جريدة المؤيد عام ١٩٠٠ رد فيها على جبرائيل هانوتو وزير خارجية فرنسا الذى وَجَّهَ بَعْضَ الإتهامات إلى الإسلام والحضارة والفكر العربى الإسلامى ، نشر هذه الفصول بتوقيع لم يصرح فيه بإسمه ثم نشرت من بعد فى كتاب « الإسلام والنصرانية » .

مراجع الفصل

مذكرات سليم عنحوري : من ديوان سحر هاروت ـ ١٨٨٥ م

لطفي جمعة		: (نوفمبر ١٩٢٩) البلاغ الأسبوعي .
إبراهيم الهلباوي		: الهلال م ١٩٢٩ .
أنور الجندي	☼	: مدرسة جمال الدين .
	☼	: الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب .
	☼	: رجال كانوا مصابيح .
الدكتور شبلي شميل		: مجلة الزهور م ١
عبد الحق حامد		: مجلة الزهراء م ٢ .
عبد الرشيد إبراهيم		: السياسة اليومية عام ١٩٣٤ .

– ٤ –

من الحيّ اللاتيني إلى البُعْكوكَة

« صالون نازلي فاضل الأدبي »

- ٤ -

من الحيِّ اللاَّتينْي إلى البعكوكة

شهدت القاهرة عشرات الندوات والسهرات ، وكان صالون « نازلي فاضل » أبرز هذه الأندية في أوائل القرن ، ولكنه كان مقصوراً على عددٍ قليل من النوابغ ، ولما غاب جمال الدين الأفغاني لم تلبث قهوة متاتيا أن حاولت استعادة مكانتها فكانت مجلساً لبعض رجال القلم ، من أمثال الشيخ عبد القادر المغربي ، والسيد عبد الحميد الزهراوي وهما من مهاجري الشام أبان حكم السلطان عبد الحميد وحتى عام ١٩٠٩ وهو العام الذى انتهى فيه حكمه ، وكذلك حسن وصفى رضا وإمام العبد والشيخ محمد محمد الشهير بالشربتلي الصحفى الفريد الذى كان يحرر من هذه القهوة كل يوم أربعة أو خمس جرائد أسبوعية .

وكانت هناك قهوة (جراسيمو) حيث يجلس إبراهيم المويلحى وحافظ إبراهيم ومحمود واصف ، وأحمد فؤاد صاحب الصاعقة ، وفى قهوة استانبول يجلس كُتّاب الترك الأحرار الذين نفتهم الحكومة التركية ، ويجلس عبد الرحمن الكواكبي الحلبي الموطن صاحب كتاب « طلائع الاستبداد » والمعروف بآرائه الجريئة فى إصلاح الشرق ، ثم بدأ هؤلاء وأغلبهم من الشاميين المقيمين فى مصر أو المتمصّرين . يهجرون قهوة متاتيا وجراسيمو وهما من قهوات عمارة متاتيا إلى « الاسپلنددبار » حيث انضموا إلى زبائنها من كبار الصحفيين وزوّارهم من القادمين من الشرق « ولو نطقت مناضد عمارة متاتيا لحدّثتكَ عما سُطِّرَ على رخامها من عمليات السمسرة فى مضاربات الأراضي وما رسم عليها من مسطحاتِ العِمارات » .

وفي الحي الحُسَيني نَشَأَتْ هذه النزعة وَوَجَدَتْ مجالها فى بعض مقاهي ذلك الحي الذي أطلق عليه لقب «الحيّ اللاّتيني » تَشَبُّهاً بما يطلق فى باريس على الحي اللاتيني المجاور للسربون والكوليج دي فرانس والبانثيون .

يقول بعض من أرخوا لهذه القاهى : كانت قهوات سيدنا الحسين أهمها (قهوة أفندية) مقر المتصوفين والمجاذيب وبعض الدجالين ، وهى قريبة من الباب الأخضر ، وكانت مشهورة بجوار المرحوم الشيخ عيسى مصلح رضى الله عنه ، ولا يزال بيته مفتوحاً ، وهذه هى القهوة التى كان يجلس فيها الشيخ محمد النجار الزجال المعروف ، صاحب مجلة الأرغول والشيخ الليثى والشيخ القوصى الذى مَثَلَ أمام أحد الباشوات الأتراك وهناك نظم دور « على روحى أنا الجانى » .

وكان نادى أدب وشعر وطرب ، وقد انتهى بنهاية جيله . . .

«أما الشيخ الأفغانى فقد حمل أولاده وتلاميذه إلى قهوة متاتيا أو اصطانبول (القهوة المواجهة الآن لميدان العتبة وحديقة الأزبكية) وكانت قهوة رومية تتقن صُنْعَ النارجيلة ، أما زبائن القهوات البوهمية فهم خليط من الصناع من أهل الحى ، وبعض العلماء الشرعيين ، وبعض الراغبين فى علوم اليازرجة والكيميا وصانعى الطوابع والمنجمين وبعض التجار ، وليس بينهم طالب أزهريّ واحد ، فلما ضاقت الدنيا الحديثة فى شارع فؤاد وعماد الدين وضواحى الأزبكية ببعض الواعين للأساطير القديمة عادوا مرة أخرى إلى الحى اللاتينى حيث هناك الشاي الأخضر والشيشة والقاعات الواطئة الضيقة ، والدكك المفروشة بالسجاجيد والكعك المحمص بخميرة الحمص ، ولحمة الرأس التى يبيعها (شارقة) الشهير بجمع شمل القطط والكلاب حول طبليته الفخمة ، كان كل هذا موجود ، حتى بائع النشوق (السعوط) التى كان يجلس على دكانه الشيخ السمالوطى أحد المجدِّدين من المالكية وصديق المرحوم الشيخ البشرى الكبير (والد عبد العزيز البشرى) .

* * *

وقد رسم المرحوم محمد تيمور لقهوة متاتيا صورة فى بعض رسائله على هذا النحو : « خلف المحكمة المختلطة ، وأمام بنك الكريدى وفى كنف دكان مدكور ، وَقَفَتْ قهوة متاتيا وَقْفَةَ الرجل الديمقراطى متهلِّلة الوجه ، باسمة الفم ، تجمع من الناس ، الغنى

والفقير ، ما أجمل قهوة متاتيا وهى تنظر لحديقة الأزبكية نظرة الهاذىء وهى تقول لها وهى تبتسم :

أنت شاسعة الأرجاء ، وأنا صغيرة ، ولكنى أضم تحت لوائى عدداً من الناس. ما أجمل قهوة متاتيا ، وقد وقف على كل باب من أبوابها رجل اسرائيلى أمام خوانه الصغير ، بعد أن وضع عليه قدرة الفول المدمس ، وقد جلس فيها الصحفى صاحب الجريدة الأسبوعية التى تصدر لسب الناس وانتقادهم ، ما أجمل النغمات الموسيقية فى قهوة متاتيا ، نغمات حجارة الطولة ، ممتزجة بأصوات بائعي اليانصيب » .

* * *

وهناك عشرات من الندوات التى نشأت من بعد ، منها سرآى آل عبد الرازق ، الواقع خلف سراى عابدين ، والذى كان يعمره رجال السياسة والآدب وخاصة رجال حزب الأحرار الدستوريين ، وكان العشاء فيه إجبارياً على الزائرين وفى بيت الأمة ، وفى جريدة السياسة ، وفى جريدة الأهرام ، وكان بار اللواء ندوة خاصة آخر الليل للأعيان والصحفين ، يحضرها الدكتور محمود ثابت والشيخ التفتازانى وداود بركات رئيس تحرير الأهرام .

وكان للشيخ مصطفى المنفلوطى ندوة يحضرها بعض خريجى الأزهر ، وأعضاء نادى الموسيقى وعلى رأسهم حسن أنور ومحمد عبد الوهاب والشيخ سيد درويش وكان بار الانجلو ندوة لبعض الوارثين .

وفى "محل صولت" كانت تعقد حلقة أمير الشعراء شوقى ويحضرها فكرى أباظه وهيكل ومحمود عزمى ومحجوب ثابت ، وأحياناً تعقد فى محل ليبتون . وقد ذكرت الصحف أن ندوة أطلق عليها اسم « أنصار التنكيت للمحافظة على الفرفشة والدعابة ضد التبويز » كانت تعقد فى مقاهى عماد الدين يحضرها سليمان نجيب وحسين شفيق المصرى وظاهر لاشين وأحمد رامى والدكتور ناجى .

وقد حفلت أنباء الصحف فى أوائل القرن بأخبار صالون (نازلي فاضل) وأعظم رواده : محمد عبده وتلميذيه قاسم أمين وسعد زغلول . ومن رواده : محمد المويلحى ، محمد بيرم ، مصطفى فهمى ، بطرس غالى ، إبراهيم اللقانى ، الدكتور صروف . وقدبرز صالون نازلي عقب الاحتلال فى مقرها بشارع جامع عابدين (دارآل عبد الرازق من بعد) إلى أن توفيت فى نهاية عام ١٩١٣ وكانت أخبارها ذات أهمية فى الصحف ، ويرجع هذا الاهتمام إلى أن والدها (مصطفى فاضل باشا) كان رئيس حزب الأحرار فى تركيا وقدقرن اسمه بالدستور العثمانى وأخى الخديو إسماعيل وقد تزوجت الأميرة من خليل أبوحاجب أحد علماء وأثرياء تونس .

وكانت نازلى معارضة للسلطان عبد الحميد ، موالية للنفوذ البريطانى ،وإلى كرومر بالذات وكان على بعض الروايات يزورها ويحضر إجتماعاتها . وقد دافعت عنها مجلة المنار (الشيخ رشيد رضا) لصلة الصداقة بالشيخ محمد عبده عام ١٨٩٩ وقال محررها : أرجف المرجفون بأن سفر الأميرة إلى بلاد المغرب يقصد به السعى فى إنشاء الخلافة العربية وقال إنها - أى الأميره - فيما نعلم أعقل أميرات المسلمين ومخلصة للخلافة الحميدية وأشار إلى أنها قابلت مولاى عبد الحكم حاكم المغرب الأقصى ثم أضاف قوله : إنها أول أميرة مسلمة شرقية زارت تلك البلاد ، ولما وصلت إلى البلاد الإسبانية وعاينت آثار الأندلس العربية والإسلامية تحركت عندها عواطف الأسف على تلك الأمة العظيمة ، فلم تتمالك أن أسترسلت فى البكاء » .

هكذا كانت هذه الأميرة ، الموالية للاستعمار ، تجد التقدير من بعض الصحف وأقل ما كان يوجه إليها أنها من أنصار أحرار العثمانيين وتحمل إليها عبارات التكريم سليم سركيس فى مجلة «مراة الحسناء» فإذا سألها ١٨٩٧ عما تقرأ قالت : إنها تقرأ الكتب الإنجليزية ، وبعض الكتب الفرنسية ، ولكن الأدب الانجليزى لديها أجمل . .

ثم ما لبث أن هاجمها بعد أن ذهبت إلى الاستانة ١٨٩٨ وقابلت السلطان عبد الحميد وانحازت إلى حزبه وهجرت حزب الأحرار .

وقال « إن النفوس التى كانت بالأمس حية قدماتت كالأزهار التى تقع فى الطريق فتلطخها الوحول قبل أن يدوسها الناس .

وقد صور قصرها فى صورة حالمة ؛ قال :

فى ٢٧ أكتوبر ١٨٩٧ نحو الساعة الرابعة بعد الظهر وصلت إلى قصرها وعلى أبوابه الخدم والحشم ، فدخلتُ إلى باحةٍ فسيحةٍ جميلة ، وهناك قابلتنى خادمة الشرف وسارت بى إلى غرفة صغيرة حسنة الرياش كثيرة الصوروجاءتنى جارية سوداء بالقهوة والسجاير ، ثم دعتنى الوصيفة ، وتقدمتنى إلى سلم يؤدى إلى الطبقة العليا من القصر فوصلتُ إلى قاعة يعجز قلم البليغ عن وصفها ، وأقمتُ أترقب بروز البدر من خدره. وبينما أتأمل فى مكتب عليه بعض الصحف ، إذا أقبلتْ باسمةَ الثغر طلقةَ المُحَيّا فى ثوب من الزهر ، فرأيتها كما يرى مكاتب جريدة أوربية أميرات الإفرنج فى الزى والهيئة، تمشى على مهل بعظمة لا يعتورها شىء من الكبرياء ، وأقبلت تحادثنى بلطف أزال هيبتى » .

* * *

هذه الدار هى التى كان يؤمها الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وكرومر والتى كانت كما قال كاتب آخر « ملتقى الكبراء وقادة الرأى »؛« وفى قصرها تحل عظائمُ الأمور ، وتُعقد مسائلُ الإصلاح الاجتماعى وتُنشر طرائفُ الآداب والعلوم ».

وقد أشار تلميذ الشيخ محمد عبده : الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى أثر الأميرة فى حياة الشيخ محمد عبده فقال : إنه أثر من ثلاث وجوه :

(١) أسلوبه الكتابى فإنا نلمح فى أسلوب الأستاذ (فى العهد الأخير) ميلاً إلى الدعابة والخفة كما فى الفصول التى كتبها فى مجلة المنار عن سياحاته .

(٢) إلمامُهُ بكتابة موضوعات لم يكن من قبل ليعرض لها ، مثل كلامه عن الرسوم والتماثيل محبذاً .

(٣) نشأ الأستاذ على عداوة انجلترا التى شهد تشريدها لأستاذه جمال الدين وإحباطها لمساعيه الإصلاحية ، وله فصول ضد بريطانيا تتأجج ناراً نشر أغلبها فى (العروة الوثقى) التى أصدراها فى باريز ، أما بعد اتصال الشيخ بالأميرة وكانت صديقة اللورد كرومر فقد تلاشت عداوة الشيخ من صدره وأصبح يجهر فى كتاباته ودروسه « إن بريطانيا أحسن الدول استعماراً » وقال الشيخ مصطفى : إن الشيخ كان يجمع بين حبها وإجلالها وكان يشعر بنشاط روحه واستعلاء ذوقه ويحس بالراحة فى قصرها ، وكان لها أثرها فى نشاط الشيخ فى سن الشيخوخة »

ولا يحمل هذا القول من الأستاذ مصطفى عبد الرازق معنى الاتهام ، فإن الشيخ محمد عبده الذى كان خصماً عنيفاً لاستبداد الخديو ، لم يكن من اليسير أن يحقق مطالبه فى الإصلاح إلا بأن يستعلي على الاستعمار ونفوذه ويدعو إلى نشر العلم كوسيلة بعيدة المدى لحلّ قضايا الشعوب المحتلة .

وقد هاجمت الصحف « نازلى فاضل » لأنها أقامت مأدبة عشاء للورد كتشنر الانجليزى (ديسمبر ١٩١٠) وقالت إحدى الصحف وهى « العلم » لسان الحزب الوطنى أن امرأةً مسلمةً نسيتْ آداب الدين وأقامت لجناب اللورد كتشنر الانجليزى الجنس مأدبة لابد أن تكون حضرتها بنفسها ، وهى تعلم مقدار تأثير مثل هذا التصرف الغريب فى أمةٍ شرقيةٍ إسلاميةٍ ، وهى فيما نظن تعلم أنه جاء ليحصن الاحتلال ويضاعف قواته على الحدود الشرقية والغربية ، وليخدم أمته وبلاده فهل جهلت الأميرة مقاصد ضيفها الكريم يوم دعته إلى مائدتها .. » ؟

وليس اللورد كتشنر فقط فيما نعلم هو الذى دعته الأميرة ، ولكن هذا مسيو جرنفيل فى كتابه مصر الحديثة يذكر أنه تناول الطعام على مائدتها مع حسين رشدى رئيس الحكومة والأمير حيدر فاضل الشاعر التركى المعروف وقال : لقد قضيت ساعتين لا أنساهما ما حييت ، وهما الساعتان اللتان قضيتهما فى زيارة الأميرة نازلى ، حيث قضَتْ على سياحات طويلة فى البلاد الاوربية ومعاشرة نخبة من أهل العلم والفضل والسياسة سواء فى القاهرة واستانبول وباريس ولندن ..

وقال إن القصر قد زينت جدرانه بعشرات من صور مشهورى العصر .

وإن ندوتها يحضرها محمد عبده وعبد الكريم سلمان وعلي يوسف ومصطفى فهمى وسعد زغلول وقاسم أمين ..

وأشار إلى أن كتاب (تحرير المرأة) كُتِبَ فى هذا الصالون ، وأن إبراهيم رمزى من كُتّاب العصر أصدر مجلة باسم المرأة المسلمة وأشار إلى أن إبراهيم الهلباوي كان من أكبر مؤيدى حرية المرأة .

وقد صوّر الدكتور فارس نمر بعض ما كان يجرى فى صالون نازلى فاضل وكان الدكتور فارس نمر صاحب المقطم من الموالين لها وقد تحدّث عنها ، وكيف أنها على قدر عظيم من الجمال وقد تلقت تعليمَها على أيدى جماعة من الأساتذة الأوربيين ونالت حظاً كبيراً من الثقافة ، وأنها تزوجت من خليل باشا أبو حاجب وزير الخارجية ، وأنها كانت سفيراً للدولة العثمانية ، ظهرتْ مكانتها فى أرقى صالونات أوربا واتصلت بالكثيرين من أمثال بسمارك ودزرائيلى وغيرهما .. ولما توفي زوجها عادت إلى مصر ، فبدأتْ صالونَها ..

وقال : إنها كانت الشخصية التى أفاءَتْ ظِلَّها على حركة جمال الدين وأظهرت عطفها على أولئك الشبان المجاهدين ، وقد حدث فى هذه الأثناء أن ظهر كتاب لدوق داركور يطعن فيه على المصريين طعناً مُرّاً ويخصّ النساء بأكبر قسطٍ منه ، إذ رماهن بالجهل وضعف مكانتهم فى المجتمع فأهاج ذلك الشاب (قاسم أمين) وتطوع للردّ على كتابه .

قال الدكتور فارس نمر : « وهنا نصرح بحقيقة لا يكاد يعلمها إلا ندرة فى مصر ، هذه الحقيقة أن كتاب قاسم أمين الذى ردّ فيه على دوق داركور لم يكن فى صف النهضة النسائية التى كانت تمثلها الأميرة نازلى ، بل كان الكتاب يتناول الردّ على مطاعن المؤلف الفرنسى ويرفع من شأن الحجاب ويعده دليلاً على كمال المرأة ، ويندّد بالداعيات إلى السفور واشتراك المرأة فى الأعمال العامة .

ولما ظهر كتابه ساء ما به إخوانه : أمثال محمد المويلحى ومحمد بيرم وسعد زغلول ، ورأوا فيه تعريضاً جارحاً بالأميرة نازلى وتشاوروا فيما بينهم فى الردّ عليه ، واتفقوا أخيراً أنْ أتولى الكتابة عن هذا المؤلف وعرض فصوله . وانتقاد ما جاء فيه خاصاً بالمرأة .

وبدأت فى كتابة سلسلة مقالات عنه ، ولكن ذلك النقد لم يرق قضاة محكمة الاستئناف ، ورأوا فيه مساساً بهيبتهم إذ أن قاسم أفندى كان أحدهم ، ورأوا أن أفضل وسيلة يبذلونها لكى أكف عن الكتابة أن يرجو أحدهم الأميرة نازلى فاضل لكى تطلب إليّ ذلك . وتطوع الشيخ محمد عبده للقيام بهذه المهمة .

وذات مساء حضرتُ إلى صالون سمو الأميرة كما حضر الشيخ محمد عبده ومحمد بيرم والمويلحى ، وبعد قليل تحدث الشيخ محمد عبده فى هذا الشأن مع الأميرة فالتفتت إليّ سموها وقالت : إنها لا تجد بأساً فى أن أكف عن الكتابة فى الموضوع ، وكانت هى لم تقرأ الكتاب ولم تعرف أنه يشمل الطعن فيما تدعو إليه .

فلما رأى ذلك محمد المويلحى قال لسموها : إنه يدهش من طلب الأميرة وخاصة لأن الكتاب يعرِّضُ بها .

فبدت عليها الدهشة ، وكانت إحدى نسخ الكتاب موجودة عندها وعبثاً حاولتُ أن أقفل باب الحديث فى هذا الشأن ، وخاصة بعد أن لحتُ عليها معالم الاضطراب والجد والعنف . فلما اطلعتْ على ما جاء به ثارتْ ثورةً شديدةً ووجهت القول بعنف إلى الشيخ عبده لأنه توسّط فى الموضوع .

ومرت الأيام بعد ذلك واتفق محمد عبده وسعد زغلول والمويلحى وغيرهم على أن يتقدم قاسم أمين بالاعتذار إلى سمو الأميرة فقبلت اعتذاره ثم أخذ يتردد على صالونها ، وكلما مرت الأيام ازدادت فى عينه وارتفع مقامها لديه وإذا به يضع كتابه الأول عن المرأة الذى كان الفضل فيه للأميرة نازلى والذى أقام الدنيا وأقعدها بعد أن كان أكثر الناس دعوةً إلى الحجاب » .

* * *

ولكن الأميرة نازلى لم تكن موضع تقدير كل الصحف ، ولم يكن الرأى فيها سلبياً على الإجماع ، بل لقد كشفت صحف الحزب الوطنى عن بعض ما نسب إليها فى مجال الحركة الوطنية فى مصر ، وهذه هى الصورة : اشتهرت هذه الأميرة منذ زمن بحبها

للإنجليز والإعجاب بهم، وبما تظن أنهم أتوه بمصر من الأعمال، وقد عُلم عنها أنها تعتقد بعدم كفاءة المصريين لأي عمل ، وأنه لابد لهم من وَصِيٍّ يدبر شئونهم ، وأن الانكليزي هو خير وَصِيٍّ حتى يردّ الأمانة إلى أهلها . وقد حاولتُ كثيراً أن أقنعها بأن المصري لا ينقص عن غيره كفاءة ، وأنه من الواجب عليها بصفتها مصرية (ولو حكماً) أن لا تحابي أعداءَ البلاد ، وأن لا تشهد فى مواطنيها هذه الشهادات ، إذ يتخذ الأجانب من تصريحاتها حجةً عليها ، ولما أيستُ منها الأصرار على احتقار كل ما هو مصرى وميلها الكُلّي للإنجليز قطعتُ كل علاقة معها دون أن أتعرض لها بكتابة أو انتقاد تاركاً لها الوقتَ وأدلة تقدم المصريين تبرهن لها عن خطئها فى حكمها فترجع من اعتقادها .

ولكنها أبتْ إلا أن تستهدف لهؤلاء المصريين فأخذتْ تطعن منهم فى محادثتها مع إحدى محررى البروجريه بعد أن طعنتْ فيهم فى حديثها مع السير جرنفيل صاحب كتاب مصر الحديثة . حيث قالت : « إن الشاب المصرى لا يساوي ثمن الحبل الذى يشنَقُ به » كيف تقول الأميرة بأن المصريين منكرون للجميل وهى تعلم أنه لولا اعترافهم بالجميل نحو رأس عائلتها لما كانت هى تأخذ من المالية شهرياً ما يكفى لحاجة عامة عائلة مصرية على الأقل ، ولو كانت بمصر حكومة دستورية لطلب نواب الأمة قطع مرتب الأميرة أو تعلن – أى الحكومة – إظهارها للاستياء العام من احتقارها للمصريين » .

(٢١)

ندوة « بعكوكة وحيد »

أما البعكوكة فهو اسم ندوة : وحيد الأيوبي . هذا الرجل الثرى الذى بدأ حياته صديقاً للاستعمار وأنشأ حزباً أسماه « الحزب الوطنى الحرّ » جعل لسان حاله جريدة المقطم ليناوئ الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل ثم لم يلبث أن اعتزل السياسة ، ثم شغل نفسه باللغويات فكان ينشر بين حين وحين تصحيحات لغوية . وكان وحيداً يعمل للخليفة عبد الحميد فى مصر بعد إلغاء الخلافة ، أما البعكوكة : فهى ندوته التى وصفها أحدهم بأنها عبارة عن ثلاث ترابيزات فى قهوة بميدان الأوبرا ، يلتقى حولها طائفة من الأصدقاء « يقضون الليل فى التشنيع على عباد الله » .

وليس للبعكوكة مقر ثابت ،فهى الكونتننتال ، أوجروبى ، أو الكافيه دى لابيه .

ومن رواد بعكوكته : حلمى طماره ، ادوارد قصيرى ، توفيق السلحدار ، عبد المجيد نافع ، حسن الشريف ، حسن السندوبى ، أحمد رمزى ، الدكتور أحمد عيسى ..

وقيل كان وحيد الأيوبى يملك نحواً من مليون جنيه أضاعها فى الشباب وقد كان يركب قطاراً خاصاً إلى حلوان ويدفع خمسة جنيهات أجراً له ، ورفض أن يركب فيه عدلى باشا .

وقيل إن أحمد فؤاد صاحب جريدة الصاعقة كان يحمل عليه حملات عنيفة ، فدعاه إلى العشاء معه فى حلوان وفى العودة استأجر له قطاراً خاصاً .

وقد سخرت منه مجلة السياسة الأسبوعية فقالت : إنه بعد أن ترك السياسة أصبح عالماً لغوياً ، يقتل فراغ وقته بتصيد الألفاظ العربية الحوشية فى قواميس اللغة ، فإذا ظفر بواحدة منها جعلها سؤالاً ينشره فى الصحف ، ويوجهه إلى العلامة اللغوى « وحيد » ، ثم يجيء وحيد فيهدر هدير الإبل فى شرح اللفظ الغريب الحوشى بلغة يكون قد تسقطها من غرائب ما فى القواميس من حوشى مهجور ولو أنك تقرأ له

سطرين إذن لصعدت جبالاً ، ولعانيت أهوالاً وأنت على كرسيك .

وكان يقيم الحفلات والمآدب ما ترى فيها صورة قريبة من ألف ليلة . وهو صاحب مأدبة لخمسة من الأصدقاء يقدم فيها من فاخر الطعام والشراب ما يزيد عن حاجة الثمانين في أعظم سعة وفى أطيب شهية ، وهو من المؤمنين بنظرية بلزاك : « السياسة صناعة من لا عمل له » .

ولم يكن لوحيد من عمل فهو إذن سياسى وهو إذن صاحب حزب .

* * *

ولقد كان هناك « آل لطف الله » وهم جماعة من أثرياء السوريين الذين عاشوا فى مصر ، وأثروا ثراء كبيراً ، وكان لهم ندوات ، وشعراء ، وصحفيون ، ويلتهمون طعام موائدهم ، ويكتبون عنهم ، وكان سليم سركيس من أكبر الدعاة لهم ، ومجلة « سركيس » حافلة بالأحاديث عن ندواتهم وأحفالهم ، ومن أصحاب الندوات نور الدين مصطفى ، وهو أحد كتاب الخطوط المبدعين ، وكانت له مكتبة تضم ٢٠ ألف كتاب ثلاثة أرباعها من المخطوطات والآثار اليدوية المنوعة ، وأكثر من مائتى مصحف لأكبر الخطاطين والنقاشين فى النثر ، وتضم مكتبته صورة من التوراة ، وصور أخرى متعددة .

ومن هؤلاء ميرزا مهدى رفيع مشكى ، وكان من رجال الرابطة الشرقية ، وشاعر انتشر اسمه وعلا صيته ، بالحق أو بالباطل « ولى الدين يكن » .

وهكذا كانت ندوات هذه الفترة عامرة بالشخصيات الفارسية والتركية والعربية والمصرية فى تداخل عجيب .

مراجع الفصل

الحديث	: م ١٣ = يناير ١٩٣٩
جريدة العلم	: فبراير ١٩٠٩
« «	: ديسمبر ١٩١٠
مجلة سركيس	: يناير ١٩١٤
المنار	: م ١٨٩٩
السياسة الأسبوعية	: يناير ١٩٤٧

— ٥ —

ندوة البكري = من الخرنفش إلى العصفورية

ص٧٥

(١٠٦)

[ندوة البكري]

من الخرنفش إلى العصفورية

أثارت ندوة البكرى فى قصر الخرنفش أحاديث ذات وهج ، فقد كان « توفيق البكرى » شخصية ذات ضوء ، وغموض ، رجل نحيل ساهم ، يلى مناصب ثلاث : شيخ مشايخ الطرق ، شيخ الأشراف ، شيخ السادة البكرية ، زميل الخديو عباس فى مدرسة الأنجال ، ثم خصمه ، صديق كرومر ، مؤلف أديب ، صاحب صهاريج اللؤلؤ وعديد من كتب وله آثار فكرية فى الصحف .

ولندع صديقنا الصحفى « . . . » يصف إحدى الأمسيات فى قصر الخرنفش :

« منزل البكرى[1] بالخرنفش: منزل تاريخى كبير كان يملكه الخديو إسماعيل ، كانت حديقة الأزبكيه فضاءاً فسيحاً تتخلله بعض الأعشاب والأدغال وفى وسطه بركة ماء تشرف على بعض المنازل الكبرى ،وكان منزل السادة البكرية أكبر تلك المنازل، فلما انتزعه إسماعيل منهم عوّضهم عنه قصراً بالخرنفش هى (سراى عباس الأول) وفى مناسبة المولد النبوى ، رأيناه فى مجلسه مع بعض مشايخ الطرق الصوفية ، ورجال الطرق جالسين يتلون الدلائل بصوت مرتفع متناسب فى نغماته ووزنه ، سمعنا ضجة أذكار مقبلة من الشارع، وما لبثنا حتى وجدنا الأعلام والمصابيح الكهربائية تتهادى عند باب الدار ، وخلفها الرجال يجهرون بالأذكار والأدوار . يتقدم كل قسم منها خليفة ومصباحان ، كان كل قسم منهـا يتقدم بجملته إلى صاحب السماحة حتى إذا ما استقر أمامه صنع من نفسه نصف دائرة من جهته ثم أخذ فى تلاوة الأذكار ، حتى إذا انتهى ، أفسح لغيره من الأقسام الأخرى .

---

(١) مما يذكر أن هذا المنزل قد هدم الآن وليس له أثر .

ويقول سليم سركيس : أدخلني إلى مكتبه سنة ١٩٠٥ ، في غرفة ملأتها طاولة مستطيلة ، حافلة بالكتب والأوراق ، والأكياس ، لأن سماحة السيد يضع أوراقه وآثاره القلمية في أكياس صغيرة ، ويكدره الكلام أثناء اشتغاله بالكتابة ، ويكتب غالباً بقلم رصاص وغالباً يدخن . وسماحته كتب أكثر من كل كاتب مصريٍّ، لكنه بخيل بنشر كتاباته ، وهو يشتغل الآن في إعداد كتابٍ عن الغزل سبق أن بدأه في بلاد الريف وجعله في شكل أجوبة متقطعة » .

* * *

وفي ندوة البكري بالخرنفش ، دارت مناقشات وجاءت وفود ، ومن خلالها كَتَبَ حفني ناصف رسالتَهُ المشهورة التي كانت إلى عهد قريب تدرس للطلبة كنموذج للرسائل البليغة ، (وفيها عتب حفني ناصف على البكري) ، أنه زاره في داره ، فلما أقبل قاموا له فسلم عليهم ، فلما اقترب منه أغضى عن يده الممدودة ، وتجاهل وجوده في داره وانشغل عنه بغيره . وقد أورد حفني ناصف هذا العتاب في عبارة بليغة :

« ولنتمثل محدثنا في أحد مقاعد تلك القاعة الكبرى الفخيمة المفروشة بأنفس الطنافس ، والمذهبة السقوف والجدران ، نحيف الجسم ضئيله ، كأنما الدرس والبحث قد أطفأ فيه جذوة الشباب وأشعلاها في عيناه البراقتين اللتين تحدثانك قبل لسانه عن علم واسع واطلاع كبير حتى أنه لا يكاد يبدى رأياً دون أن يؤيده بقول فيلسوف كبير أو عالم أوربي أو شرقي شهير » .

ولكن توفيق البكري لم يلبث أن اختلف مع الخديو عباس ، وحالف الخليفة العثماني ووقعت القطيعة ، وتوترت الصلات ، فلما جاء موعد حفل المولد النبوي تخلف رجال البكري عن احتفال مشايخ الطرق . فدارت بينه وبين الخديو عبارات بدأها الخديو نابية ، فرد البكري بعنف ، وترك الحفل ، واضطربت نفسه على الأثر ، وملأه الخوف ، وتحول الخوف إلى خيالات ، فمرض مقلق توجس فيه الشر من قبل رجال الخديو حتى كان يرى الأشباح في اليقظة ، وأخذ يحس بالاضطهاد من كل من حوله . وعاش ثلاث سنوات في هذا التهويم العصبي .

ثم نقل إلى مستشفى العصفورية في لبنان سنة ١٩١٢ فأمضى بها ستةَ عشرَ عاماً ،

وعاد إلى مصر سنة ١٩٢٨ فلم يلبث طويلا حتى قضى عام ١٩٣١ وقد حاول سليم سركيس أن يرسم صورة قاتمة للسيد البكرى فى منفاه الاختيارى :

ذهبت بالأمس إلى المخزن الأمريكانى لأزور فاكهة المجالس صديقى وقريبى «نسيب المشعلانى» وحانت منى التفاتة فرأيت على الحائط صورة زيتية غير كاملة للسيد محمد توفيق البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية نقيب الأشراف ، وكان قد بدأ بتصويره (سليم حداد) المصور ، قبل أن هجر الريشة إلى التجارة ثم بقيت لديه غير كاملة ، وهى من الرسوم التى لا يؤمل أن تكمل . أولا : لأن المصور هجر التصوير ، وثانياً : لأن السيد توفيق البكرى قد نكب بعقله فهو الآن فى مستشفى العصفورية فى بلاد الشام .

وروى محدثى : أن الآنسة مارى مشعلانى كانت ذات يوم فى حديقة مستشفى العصفورية فَاسْتَلْفَتَ نظرَها رجلٌ يطوفُ الحديقة ،فقيل لها إنه السيد توفيق البكرى من كبار علماء اللغة العربية وكانت قد سمعت بشهرته،فاستأذنت فى محادثته فأجيب طلبها، إلا أن الرئيس أوصاها أن لا تذكر اسم الله فى حديثها مع السيد لأنه إذا سمع اسم الجلالة هاج واضطرب . وروى صاحب الصاعقة أنه زار السيد فى أيام نعيمه،فرأى فى صدر البهو لوحة كبيرة كتبتْ بخط جميل فيها (ولد فصيح آل الصديق السيد محمد توفيق البكرى عام ١٢٨٦ هـ) .

وزعم السيد شفاه الله أن الذى صنع تاريخ يوم ولادته هو إبراهيم المويلحى ، ولكن المويلحى قال ، إنه صنع له ذلك التاريخ منذ سنة واحدة بعد الإلحاح .

وحدث ذات يوم أن السيد جاء إدارة المؤيد ، وكان لى حديث معه فى الشعر الأفرنجى وتعريبه ، فقال لى إنه عَرَّبَ نشيد (المارسلييز) فاستغربت قوله وناقشته معارضاً فأصر على زعمه ، فقال الشيخ على يوسف ، لماذا لا تصدق السيد وهو قادر على ما يقول؟ قلت : إنى لا أنكر مقدرة السيد ، ولكنى أنكر عليه أنه استطاع ترجمة النشيد الفرنساوى ترجمة مطابقة فى وزنها للأصل ، أما تعريبه شعراً عادياً فغير عسير . ولكن نحن نحتاج إلى تعريب يطابق فى وزنه الأصل الفرنساوى ، حتى إذا أنشد القوم نشيدهم استطعنا الاشتراك معهم فى إنشاده بلغتنا ، ولكن على

نغمته ، كما يفعل الإنجليز مثلا ، وهذا ما أنكره على السيد ، وانصرف على أن يعود بالتعريب لإقناعى .

وبعد أيام دعانى صاحب المؤيد إلى غرفته ، وإذا بالسيد هناك فلما دخلت صاح بى السيد : أنت واشٍ ونمامٌ وجاسوس ، فدهشت لهذه المفاجأة ، ولكن صاحب المؤيد تعرض ، وقال للسيد : سآتيك بكأس ليموناده يامولانا . فنهض السيد وقال : أتريد أيضا أن تدس لى السم فى الكأس ، واتفقتَ أنتَ وسركيس على قتلى .

فسكَّن الشيخُ روعَه وقال لى السيد :

نعم أنت جاسوس ، لأنك أبلغت المحافظة أننى عربت النشيد الفرنساوى ، فأحدق البوليس السرى بمنزلى ، وهم ورائى فى كل مكان ، وانصرف غاضباً ، وبعد أيام كنت فى منزلى ، وإذا برسول يقول : إن السيد فى عربته يريد أن يراك ، وكان يوم الأحد فأسرعت ، ولما رآنى دعانى للركوب معه ففعلت فقال : أريد أن تذهب معى إلى الوكالة البريطانية لأعرض شكواى ؛ فأردت التخلص منه لما رأيت من حدته وهياجه ونصحت له أن يستعين بالدكتور فارس نمر ، فاستحسن الرأى ، وسرنا إلى منزل الدكتور فلم نجده ، وهناك تركته على أن يذهب إلى إدارة المقطم وكان آخر عهدى به ، إذ نقلوه من بعدها إلى المستشفى » .

* * *

هذا ما كتبه سليم سركيس عام ١٩١٥ فى مجلته « سركيس » غير أنه بعد عودة السيد نشرت معلومات أخرى ، تستطرد فى هذا الاتجاه ، فإن سليم سركيس نفسه قد سافر إلى لبنان عام ١٩٢٣ لزيارة البكرى فى مستشفى العصفورية ، فلما عاد كتب فى « الأهرام » عما كان يلاقيه هنالك ، مما أثار ضجة ، فقد أشار إلى أن البكرى يعامل معاملة لاتليق بمقامه ، وأن أمره مهمل كل الإهمال حتى أنهم لايعنون بأمر ملبسه فقد رآه يلبس حذاءً ضخماً منكراً وجُبّةً رثة صفراء .

وكتب السيد عبد الحميد البكرى (خليفة السيد توفيق) مُكذّباً سركيس وطلب إلى (فؤاد مغبغب) الصحفى أن يحصل على معلومات جديدة من مستشفى العصفورية : وقد أرسل مغبغب فعلاً رسالة نشرتها البلاغ والمحروسة والأهرام تصدق مازعمه سركيس وهى على لسان وكيل مستشفى العصفورية :

إن يكن من المحقق أن مرض السيد غير قابل للشفاء فجنونه يكاد لا يسمى جنوناً بالمعنى المعروف ، فهو مفكر أديب حافظ لكثير من قواه ومواهبه ، يحادثك حديث العقلاء ، وله آراء خاصة فى الشئون السياسية ويكثر من المطالعة ، وهو يدفع لنا بقائمة كتب بين حين إلى آخر نطلبها فعند نزولنا نجد كل كتاب وارد فى القائمة » .

وقد حاول فؤاد مغبغب لقاء السيد توفيق بعد عودته (يونيو ١٩٢٨) فتردد عمه وخليفته عبد الحميد فى السماح بمقابلته بحجة أنه يحتاج إلى الراحة ؛ وقال إنه أحضر عمه من العصفورية لأنه أوفد مندوبين لزيارته فتحققا سوء حاله وإساءة المستشفى لمعاملته .

قال مغبغب : فلما قابلناه وجدناه : ذكاء متوقد ، وذهن حاضر ، وذاكرة متيقظة ، وحديث سلس معقول مرتبط ، وذكر أصحابَ المقطم بالخير ، وأبدى تأثره وترحم على شاهين ومكاريوس وصروف .

وقال إنه سوف لا يقيم فى مصر طويلا ، وأنه حالما تنتهى بعض الشئون سيهجر القطر للسكنى فى إحدى جزر البحر المتوسط ، ورفض أن يصور مع ابن أخيه (السيد عبد الحميد) مبدياً علامة الأنفة والآباء .

وكان قد قال لسركيس عندما زاره ١٩٢٣ : قل لابن أخى عبد الحميد أن يأتى أو يرسل من يأخذنى من هذا المكان ومرت خمس سنوات كاملة منذ أرسل السيد توفيق راجياً إعادته إلى مصر بلسان سليم سركيس .

وقال مغبغب : لقد كان السيد توفيق البكرى عَصَبىَّ المزاج طوال حياته فكان يستخدم جاريتين للتبكير عند الفجر ونش العصافير عن نوافذ حجرته ، ومن سخرياته أنه كان يقول : سنجد خروفاً نأكل منه ، وخروفاً يأكل معنا . .

وبدأ مرضه بمخاوف وأوهام واضطربات عصبية ، فكان إذا ساورته هذه المخاوف والأوهام اضطرب وارتعش ، واختبأ فى زوايا البيت أو تحت السرير ، وكانت أوهامه تصور له أناس يريدون الفتك به والقضاء عليه ، فاذا ذكرهم أو أشار

إلى مخاوفه ذكر الخديو السابق (عباس) وجمعية الاتحاد والترقى ، ولعلاقة الخديو به تاريخ طويل ، على أنه مما لاريب فيه ويعرفه الكثيرون أنه كان للمرحوم على يوسف وأحمد العريس يد كبرى فى توتر العلاقات بين الخديو والبكرى .

وروى البكرى ، أن الخديو كثيراً ما كان يستدعيه فى الساعة الحادية عشرة ليلا ، أو فى منتصف الليل لموافاته إلى سراى القبة لأمور هامة ، مع أن غايته الحقيقة كان التحقق من بعض الإشاعات التى كان ينقلها إلى مسامعه الواشون بشأن أمور تتعلق بأخلاق السيد وعاداته الشخصية ومأكله ومشربه » .

* * *

والمعروف أن توفيق البكرى أخذ بحظ وافر من التعليم العصرى واللغة الفرنسية ؛ ودرس العلوم العربية والشرعية ، وصحب الأستاذ الإمام وحضر دروسه الخاصة فى جامع عابدين وتلقى غريب اللغة على الشيخ محمد محمود الشنقيطى الكبير ، فكتب من إملائه أراجيز العرب وشرح غريبها ، ونظم الشعر ، وأتقن النثر ، وكان حظياً عند كرومر ، حتى أنه كان يزوره فى داره ، وقد وجه إليه السلطان عبد الحميد رتبة قاضى عسكر الأناضول وهو لقب لم يحرزه أحد من مصر سواه .

فلما عاد من العصفورية ، زهد فى لقاء الناس ، بعد أن كان آية فى المزاورة والمناظرة والمحاضرة ، ولكنه ظل حاضر الذهن زكى الفؤاد .

وقد روى من راجعوا سيرته أنه فى معترك السياسة بين ثلاث رئاسات : الطرق والأشراف والبكرية ، وبين صراعات القصر والانجليز ويلدز ، اضطرب فكره ، فقد كان ذلك على حد تعبير « رشيد رضا » حملاً ثقيلاً على شاب نحيف الجسم عصبي المزاج ، مترف المعيشة ، كان حريصاً على بلوغ الغاية من حظوظ الحياة المادية والمعنوية ، إنما جنت عليه السياسة فأقصته عن كل ما كان يرجى من خدمة لأدب اللغة التى كان يميل إليها بطبعه .

* * *

أما عبد الحميد البكرى خليفته فى منصبه ، فلم يكن له فى تاريخ الفكر أو صلات

المجتمع شأن كبير ، وقد ظل شيخاً للطرق الصوفية حتى عام ١٩٤٠ ، وقد انفصلت عنها نقابة الأشراف .

* * *

وقد رسم محرر « فى المرآة » بالسياسة الأسبوعية صورة هـذا العصر ، فقال : « شهد سلفنا ما كان للسيد البكرى من قوة نفوذ وبسطة سلطان تناولت أسباب الحكم فى البلاد ، حتى وَرِمَتْ أنوفهم وانتفخوا من كبر وتتايه ، حتى رووا أن السيد البكرى كان لا يقوم لوافد كائناً من كان ، وكانت مشيخة الطريقة البكرية مملكة داخل المملكة لا معقب فيها من الناس لحكم القوم ولا رافع لقضائهم ، ولهم فى الحياة تقاليد توارثوها والتزموها ، لا يتخلون عنها مهما دارت الظروف واختلفت الأسباب .

روى من أدرك السيد (على البكرى) قال لى : إن السيد كان إذا ظمىء دعا بكوب ماء ، أقبل عشرون أو ثلاثون من الجاويشية الصوفية ، وهم رجال يرسلون لحاهم ويلبسون الجبب الخضراء والعمائم الخضراء وفى يد كل منهم عصا خضراء باسقة الطول ممنطق رأسها بنطاق من النحاس الأصفر ، ويصطف هؤلاء صفين بين يدى السيد ثم يقبل بالماء رئيس الخصيان فى رهط منهم ، حتى إذا شرب السيد ورفع إليه الكوب ، صاح رئيس الجاويشية فى مثل تنغيم المؤذن : الله يهنى سيدنا ، فيرد الجميع « آمين » ثم ينصرفون مأذونين .

وقد ترى عبد الحميد البكرى على أحدث أساليب الشريعة الحديثة ، ومازال فيها بارعاً ، حتى أحرز شهادة (النورمال) وحذق اللغة الفرنسية حتى ليتكلم بها كأهلها ، وقد قرأ كتب الفرنجة حتى أمسى أعظم قدر من بناء طبعه للغرب لا للشرق ، وبهذا ملكته برغمه العادات الغربية فهو يفكر على أسلوب القوم ويتحدث على طريقتهم ويأكل على نظامهم ويعيش فى كثير من أسبابه مثل عيشتهم ، لا يتكلف هذا ولا يتصنعه .. » .

مراجع الفصل

مجلة سركيس : م ١ سنة ١٩٠٥ .

المنـار : م ٣٢ سنة ١٩٣١ .

البلاغ : أغسطس ١٩٣٢ .

السياسة الأسبوعية : إبريل ١٩٢٧ .

٦

من شيخ العروبة إلى البابلي والقاياتي

من شيخ العروبة إلى البابلي والقاياتي وسبلنددبار

كانت ندواتُ القاهرة حافلةً بكل عجيب وغريب :

ندوة أحمد زكي باشا شيخ العروبة لها طابعها ، دار العروبة على شاطىء النيل « بجيزة الفسطاط » كما كان يسميها ، السِّماط يمدُّ كل مساءٍ ، ويشترك فيه كل من يحضر .

وهناك ندوة أحمد تيمور باشا في داره بالزمالك ، تجمع طائفة أخرى من أصدقائه ، وكلا الرجلين مشغولٌ بالمخطوطات ، مشغول بأبحاث اللغة والتاريخ ، ولكن بينهما فوارق في الطبع والسلوك والعمل ، أحمد زكي باشا رجل يحب الدَّوِيَّ ، ويرسل آرائه كالقنابل بين آن وآخر على صفحات الأهرام فيثير المعارك ، ولكنه قليل الصبر على الاعتكاف في مكتبته ، أما أحمد تيمور فإنه يقرأ في صمتٍ ويعلق على هوامش المؤلفات ، ولا يتصلُ كثيراً بالمجتمع . وهذه صورة باهرة يرسمها محمد كرد علي لهما : إنهما الأحمدان المصريان المعاصران « كان الأحمدان من أعز أصحابي قضيتُ معهما منذ سنة ١٩٠١ إلى أن اختارهما مولاهما إلى جواره أياماً وليالي فتمازجتْ أرواحنا تمازج الإخوان ، وتصافينا تصافي الوُدِّ .

(تيمور) كان من عادته أن يتبسّط في الحديث مع خاصته تبسُّطاً لا يخرجه عن حدود الأدب والدعابة البريئة ، والنكات والنوادر ثم ينقلب إلى البحث في الكتب مطبوعها ومخطوطها ، يخوض في كل ذلك من الجد بذوقٍ وشوقٍ وتقديرٍ وإنصافٍ ويهتم كثيراً بأمر المسلمين والإسلام والعرب والعربية .

ولما سكن الإمام محمد عبده في عين شمس اتخذ داراً في جواره مدةً ، ونقل إليها خزانةَ كتبه ، فلما انتقلَ الإمام إلى جوار ربه اسودّت الدنيا في عينيه فانتقل إلى جهةٍ أخرى ، وعرض دارَ عين شمس للمبيع ، وبادر بنقل خزانته إلى إحدى مزارعه في

قويسنا . ولما ذكرتُ له ما ربما يصيب خزانته من الحريق ، وهي بالقرب من مساكن الفلاحين والقصب على سقوف دورهم ، طمأنني بأنه ابتاع أرضاً في الزمالك وأنه ينوي أن يُنشِئَ فيها داراً لخزانة كتبه ؛ وبعد أن أنجز بناءها نقلها من قويسنا وقضى فيها بقية أيامه .

وكان يتصدق في السرّ بأن يجري مشاهرات على من قعد بهم الدهر عن الاكتساب ويفضل على بيوت كثيرة من المحاويج المساتيد ويدرّ عليهم رواتب مقررة تأتيهم في بيوتهم رأس كل شهر ، ويأبى عليه شرفه ودينه ومكارمه إذاعة ما تجود به نفسه لذلك أخذ العهود على من كان يعطيهم مايقوم بأَوَدِهِمْ أن لا يذكروا أنهم يرزقون منه ، ولما باح أحدهم بالسر لضغطٍ شديدٍ وقع عليه شق على المحسن فقطع المشاهرات والإدرارات كلها ، متظاهرا بالضائقة .

وعاد بعد مدة يرسل بواسطة المصرف حوالات مالية بأسمائهم ، وهم لا يعرفون مصدرها بل إن المصرف نفسه لا يعرف حقيقة اسم المُرسِل ، ولذلك صح لنا أن نقول إنه كان لا ينفق ماله على غير العلم وعمل الخير ، ويعالج في كتمان صداقته حتى لا تدرى شمالُه بما فعلت يمينُه ، وكانت أطيانه تزيد وريعها ينمو ونعمته تفشو مع هذا البذل الكثير .

وعندي من رسائله أكثر من مائة وأربعين رسالة ، هي في خزانتي أجمل ذُخْرٍ وذكرى .

كان عزوفاً عن الناس يؤْثِر العزلة ، وكان يودّ لو مكّنتْه أعمالُه في القاهرة عن الانقطاع إلى مزرعته في قويسنا يأنس بجانب خزانته ، ويستخرج فوائدها لقومه ، ..

وقد استغرق التعليقُ على مخطوطاته جانباً عظيماً من وقته ، وأن غرامه بالكتب كان يتقاضاه ، صرف الساعات الطويلة أيضاً أكبرنا ما أتى به ، خصوصًا إذا علّمنا أنه كان يتولّى كل أمرٍ بنفسه حتى كتابة الفهارس .

* * *

وكان «أحمد زكى» يتجوز فيما لا يتجوز فيه أرباب التقوى ، فكأنه تخلق بأخلاق من عاصرهم وعاشرهم ، وما رأى حرجاً فى ذلك ، ويضطره العبث واللعب إلى الإسراف ، ولذلك أنفق كل ما دخل فى يده من مال قرينته أولاً ثم من مال شقيقه ، غير حاسب للأيام حساباً ، وربما أفرط فى ذلك ، ولعل إفراطه كونه لم يعقب ولداً .

وكانت له أشياء يستخرجها فى مخطوطاته أو من جزازاته ومفكراته ويتحف بها العالم العربى الحين من بعد الآخر ، يقصد بها التعليم والإدهاش .

« غربية »

وطريقة أحمد زكى فى كتبه وترجمته ونشره أقرب إلى أن تكون غربية ، منها إلى أن تكون عربية ، والعربية فى آثار تيمور محسوسة أكثر من الأفرنجية ، والافرنجية فى كتابات زكى شائعة أكثر من العربية ، والروح الدينى يتجلى فى تيمور ، والروح المدنى غالب على زكى ، فكان هذا مستشرق شرقى ، وذاك شرقى قبل كل شىء ، شرقى بتقاليده وهدايته وتربيته وثقافته ، وتيمور جال فى دائرة ما أحب أن يخرج عنها طول عمره ، وكذلك كان زكى ، إلا أن الدواعى والبواعث كانت تضطر هذا إلى تجاوز الحد الذى رسمه لنفسه ، ولئن كانت منقطة أوسع فلم تكن فى كل حين أمنع وأمتع .

خاضَ زكى فى المجتمع وتغلغل فى تضاعيفه وقبِلهُ بمافيه من حسنات وسيئات أكثر من صِنْوِهِ تيمور ، وهذا ابتعد عن المجتمع ولم يحب أن يتعرف إلا إلى طبقة خاصة لا تنغص عليه عمله وسلامه . وهنا ظهرت بعض الشىء ارستقراطية تيمور وديمقراطية زكى ، كان حياة زكى مرحلة يتمتع بمباهجها ، ومناعمها على ما يشتهى ويتعجل النعيم لا يرجئه ، وحياة تيمور عابسة فيها شىء من الانقباض .

وكلاهما كان صادقاً فى مشربه صادقاً فى سيرته ، غير مدلس ولا موالس ، ولا متزمت ولا متخافت ، فنى تيمور فيما أحب من صنوف الآداب ، أما زكى فلم يغن الغناء كله ، فأخذ من حياة العمال والسياسيين وحياة المسرفين والمترفين وكلاهما حكمت عليه بيئته أن يكون ما كان . بل ان عدد من أخذ عنهم تيمور من الشيوخ كان أكثر من عدد من أخذ عنهم زكى ، وكانوا فى ذاتهم أشد تديناً وغيرة على الدين ، فجاء تيمور عالما إسلاميا قبل كل شىء ، يحب الانتفاع بما أنتج أهل الغرب ، وجاء

زكي عالماً شرقياً يشبه علماء الغربيين إلى حد بعيد .

٢ — وكان خير الدين الزركلي من رواد مجلس تيمور وقد وصفه في مذكراته:
بأنه وقور طويل الصمت فيه تواضع ولين يتجافى عن الناس ويعرض البحث في مجلسه فان كان بعيدا عن مكتبته والكلام في اللغة والتاريخ تريث لا يقول كلمة إلا معلقة مخافة الذلة ، ولعله به أعلم جلسائه . وإن كانت مكتبته تحت متناول يده أسرع إليها فاجتذب كتاباً يحل به الغامض أو يوضح الإشكال ، فيما القوم متناقشون فيه ، لم أسمعه وقد جالسته كثيراً يشير إلى بحثٍ كَتَبَه أو رأيٍ نشره أو كتابٍ ألفه . وكنت أحب منه الكرم بما يعلم ، جعلت لنفسي يوماً في الأسبوع أزوره عند الأصيل فأمكث ساعتين أو ثلاث أراجع كتباً أو أستوفي موضوعاً ، فما عرف قصدي حتى كان أسرعَ مني إلى ما يريد ، يهديني إلى المرجع ، وإذا لم يكن الخادم ، جاءني هو بالكتاب ، وما أدَّعي اختصاصَه إيايَ بهذا وإنما هو في جوار مكتبته غيره في بعده عنها .

ومازلت أذكر له إلقاءه بين يديَّ قمطراته ومذكراته يوم بدا لي أن أبحث عن تراجم المتأخرين . وقد عاصر بعضهم وبادَلَهم الترجمة على طريقة علماء السلف فكانت لي منها فوائد كثيرة ، وفي البعداء عن مصر مَنْ يعرف فضلَ تيمور أكثر مما يعرف أهلها ، يكتب إليه أحدهم بمباشرته تأليفَ كتابٍ أو تحقيقَ حادثٍ ، فلا تصل إليه كلمته حتى ينهض فيختار له من مكتبته مراجعَ قد تكون معدومة النظير ويبعث بها إليه مبيناً مواطنَ الفائدة فيها — وكثيراً ما رأيتُه ينقل بخطه صفحاتٍ من مذكراته أو كتبه ويرسلها إلى مستعلمٍ أو سائل .

(١٩) ٢

ندوة طلعت حرب

وكانت هناك ندوة لطلعت حرب ، ولهـــا تاريخ فى أضخم حدثٍ فى تاريخ الحركة الوطنية المصرية ، تلك هى قصة الخلاف بين محمد عبده ومصطفى كامل . كان هناك خلاف بين الشيخ المجدد ، وبين الشاب الثائر ، هل مصدر الخلاف أن هذا من خصوم الخديو وهذا من نصرائه ، هل هو الخلاف بين الاتجاه فى التجديد الدينى وبين العمل السياسى ، هل هو فارق السن بين الشيخ الذى نُفِيَ وهاجر وصاحب جمال الدين وبين الشاب الذى كان يفيض شباباً وتطلُّعاً إلى المجد .

لقد روى طلعت حرب القصة لصالح جودت فقال :

كان الود منقطعاً بين مصطفى كامل ومحمد عبده : وفى زيارة للمرحوم لطيف سليم الحجازى (باشا) والد فؤاد سليم الحجازى دار الحديث عن انقطاع الودّ فتمنّى لطيف باشا على طلعت حرب لو استطاع أن يزيل بلباقته وكياسته ما بين الزعيمين .

وكان بيت لطيف باشا منتدى لأهل العلم والأدب ، وينبوعاً لحركات الإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني وكان يجمع زهرات الصحافة ذلك الميدان وكان لطيف باشا من أفضل الناس خُلُقاً وأوفرهم علماً .

* * *

قال طلعت حرب : قابلت الشيخ عبد الكريم سلمان وكان من أقرب الناس إلى نفسى وكان من الرجال النوادر فى العلم والفضل ، واتفق أنه جارى فى العباسية وكان يقضى عندى أكثر سهرات المساء ، وكان عبد الكريم من خلصاء الشيخ محمد عبده ، فأردت أن أجعله وساطة الخير فدعوتهما معا : مصطفى كامل وعبد الكريم عندى فى البيت لتناول الغداء . وجاء مصطفى كامل والشيخ سلمان مع بعض الأصدقاء من أهل الفضل ، وجلسنا نتكلم فى مختلف الشئون العامة ونتضاحك على الطعام حتى رأيت الفرصة سانحة ، فدخلت إلى الموضوع بلطفٍ وتطرقت إليه وئيداً ،

فما أن ذكرتُ اسم الأستاذ الإمام حتى قفز مصطفى كامل من مكانه وامتقع لون وجهه وتطاير الشرر من عينيه ، وجعل يقول فى لهجة التأثر كلاماً قاسياً ليس لى أن أردده .

والى هنا غَصَّ كل آكلٍ بلقمته ، وانفضت المائدة ، وكان عليها طبق شهى من الكنافة فلم يمسه أحد ونهضنا إلى غرفة الجلوس فشربنا القهوة فى وجومٍ وصمتٍ كأنما نحن فى مأتم ثم انفضّ الجميع فى أسوأ حال .

لقد كان موقف الشيخ عبد الكريم هو أكبر ما برح بى فى هذه الساعة ، فقد رأيت أنه أهين فى بيتى ، وأنا الذى دبّرت لهذا اللقاء ، ومن هنا عددت نفسى مسئولاً عن الإهانة التى لحقت به ، ولا سيما أنه كان قال لى قبل الدعوة أنه مشفق من نتائج هذا المؤتمر ، فإنه يعرف أن مصطفى حاد المزاج وقد يشتد الموقف سوءاً بدلاً من أن يصفو الجو . فطمانتُ ساعتئذ خاطرَه ، وبددتُ هواجسَه .

فلما حدث ما حدث لم ينبس الشيخ عبد الكريم ببنت شفة ، وقد بقيت متألماً له أشد الألم بعد انصرافه فلما كان المغرب قصدت إلى بيته لأعتذر له .

وقضيتها ليلة مسهدة طويلة أحاسب فيها نفسى وأدبر ما أنا فاعلٌ فى غدي ، فلما كان الغد لم أذهب إلى الدائرة السنية وإنما بدأت بالذهاب إلى دار الأفتاء لألقى الشيخ عبد الكريم سلمان وأعتذر له فلم أجد الشيخ فى غرفته إذ كان مشغولاً عند بعض رؤسائه ، ولكنى وجدت الأستاذ الإمام محمد عبده فسلمتُ وجلستُ فلم أكد أستقرّ في مجلسي حتى بادرني بقوله : لقد قال الشيخ عبد الكريم يا طلعت بك إن الكنافة بالأمس كانت شهية ! .

فقلت : يا مولانا إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىءٍ ما نوى .

* * *

وقد ذكر طلعت حرب الشيخ محمد عبده فى كثير من ذكرياته التى رواها لصالح جودت ومما ذكره ، أن خصومَ الشيخ كانوا يروِّجون أنه لا يقيم الصلاة ، ولقد

لقيت هذه الشائعة كثيراً من القبول عند كثير من أهل ذلك العهد . قال طلعت حرب: وحدث ذات ليلة أن دعينا إلى حفلة عرس كبير بالعباسية حضرها الكثيرون من الكبراء والعظماء والعلماء وأهل العلم والفضل فى البلد ، وأخذنا حلو السمر وطيب المجلس حتى انتصف علينا الليل ومرت بعد ذلك ساعة وساعتان ثم هممنا بالانصراف، ولم تكن أسباب المواصلات فى مثل ذلك الوقت فى ذلك العهد ميسورة، فرأيت أن أدعو بعض الخلصاء إلى قضاء بقية الليل عندى لقرب منزلى ، وكان منهم الأستاذ الإمام والشيخ عبد الكريم سلمان وكثيرون من رجال الدين ، فلما دخلنا البيت وكنا على وشك الفجر ، تيمم مَنْ معنا من رجال الدين وقرأوا سورة قصيرة وأسلموا جفونهم للنوم أما الأستاذ الإمام فقد رأيته يتسلّل منهم خفية ويذهب إلى دورة الماء فيتوضأ وضوءاً كاملا ثم يتسلل إلى المصلى فيصلى العشاء حاضر ثم ينام .

وروى طلعت حرب أن ثلاثة من مشايخ الإسلام اشترى كل منهم ضيعة من ضياع الدائرة السنية قال: وكانت الدائرة السنية تبيع أملاكها بالتقسيط والفائدة ، وكنت رئيساً لقلم القضايا . أما الشيخ سليم البشرى فقد اشترى الضيعة حسب الأوضاع المعتادة ،أما الشيخ محمد عبده فقد تحرّج فكتب إلى الدائرة السنية يطلب إليها أن تحسب ثمن الضيعة وتحسب فائدة الأقساط ثم تضم الفائدة إلى الثمن ويعتبر الجميع ثمناً أصلياً يقسط عليه دون أن تذكر الفائدة فى مستندات نقل الملكية . وكتب طلعت حرب على الخطاب « الأستاذُ مفْتٍ فهو خير من يدرك أن مثل هذا التصرف لا يعفيه من أنه قد تعامل بالفائدة فعلاً » فلما أبلغ الرأى إلى الأستاذ الإمام غضب وأرسل يقول : إنه لم يكن ينتظر من الدائرة السنية مثل هذه المعاملة ، وأنت فيها . وتمت الصفقة على ما ارتآه الأستاذ الإمام .

٣

ندوة سبلنددبار

وكانت ندوة سبلنددبار من أشهر ندوات القاهرة وقد رسم اسكندر شاهين عام ١٩١٢ صورةً لها على هذا النحو :

« ندوة دائمة منذ عشرين عاما أو تزيد غير مقيدة بقانون ، أسسها فريق من حملة الأقلام وكتّاب الجرائد ، إذا اجتمع أعضاؤها أو بعضهم جلسوا إلى مقاعد لهم معروفة فى سبلنددبار ، ودار جدلهم فى متعددٍ لمواضيع ، مواضعها تتناول مسائل القصر ، والمسائل العامة ، ومسائل دول أوربا الكبرى ، غير المواضيع الأدبية والعلمية والفلسفية والاجتماع التى تعلن فيها الخواطر .

وقد جمع أعضاؤها بين معارك أهل الشرق والغرب ، ولم يتركوا قولاً لقائل .. وكان المرحوم « عبد الرحمن الكواكبى » يقول إن إجتماع هؤلاء الأدباء فى سبلنددبار أغنى مصر عن الجمعيات الأدبية المنظمة ، وبلغ من شهرة هذه الجمعية أن الشيخ عبد الرحمن عبد العزيز آل إبراهيم من أعيان العرب فى الهند اغتنم فرصة وجوده فى مصر فقصد سبلنددبار وحضر إحدى جلساتها ..

وقد أثرت فى عالم الأقطار الأدبية أعظم تأثير ، وأن أهم مايرد فى الصحف من الآراء الصائبة يرد ذكره فى هذه الجمعية ، ولطالما قرأ أعضاء الجمعية مقالات الصحف والمجلات وقصائد الشعراء ورسائل المؤلفين من قبل أن تطبع فحوّروا فيها أو حملوا أصحابها على التحوير ولم ير الناس إلا نتيجة ما أقرّت جمعية سبلنددبار .

وقد رشحت الجمعية سبع مندوبين لمجلس المبعوثين العثمانى على نشر إعلان الدستور ففازوا جميعاً وهم سليمان بستانى ، عبد الحميد زهراوى ، سعيد ماهر ، فريد بك ، إسماعيل حقى ، لطفى فكرى ، وأشهد أن ما يذكر فى محادثات هذه الجمعية هو العلم والصراحة والحرية التامة لأنهم لايخافون رقيباً ، ولايخشون عقاباً على مايقولون .

وقد اشتهرت هذه المزية عن جمعيتنا حتى أصبح كتّاب الإفرنج ومراسلوهم يقصدونها للاستفهام عن حقائق الأمور المصرية .

أما أعضاء هذه الجمعية فكثير عددهم ، منهم الدكتور شبلي شميل الذي يدور القوم من حوله ويوسّعون له صدر المجلس إذا حضر ، لأنه شيخ طائفة الأدباء فإذا كان الكلام دائراً على الأخبار السياسية بقي صامتاً لا يحفل بها ولا يلقي إليها بالاً، ولكنه إذا فتح باب الكلام في مواضيع الاجتماع والتشريع والعقائد أفاض وأسهب، ولم يبق قول لغيره ، وكثيراً ماينتهي بالحكم الشديد على الدنيا وأهلها وعلى اللاهوت وماجرى مجراه من أمور الآدميين .

والدكتور شميل مَيَّالٌ إلى النكات الأدبية ولكن السخط غالب في حديثه وهو حر وذو صراحة وإنصاف في أمياله وأفكاره ، وله ذاكرة عجيبة تعي ما كتب من نحو ثلاثين عاما إذا بدأ الكلام في المسائل التي يهتم لها أشار إلى بعض مطبوعاته القديمة وسرد المقالات كلها سطراً سطراً كأنه كتبها منذ يومين .

واشتهر الدكتور شميل بجمع بعض الأعضاء أكثر الأيام إلى الغداء فمائدته معدة دائماً لأكثر من واحد ، إذ جعل مدير المطبخ العامر صديق الجميع طانيوس عبده .

ومنهم رفيق بك العظم المفكر الكبير والعثماني الغيور ، يعرفه الناس مما قدَّم من مقالات تدل على الوطنية الصحيحة وواسع الاطلاع يحضر معظم الجلسات ، وينصف في حكمه ، ولا يتطرف .

وهو من أكابر العاملين ومن أقدمهم عهداً في طلب الإصلاح العثماني ورفيق بك قوي الحجة لا يلقي الكلام جُزافاً ولا يتعنّت .

ومنهم حقي بك العظم رجل الظرف واللطف وصاحب النية الحسنة والوطنية الصادقة ، ولست أعرف رجلاً أبعد منه عن التعصّب المذموم .

ومنهم سامي قصيري محرر المقطم ، هو على الجملة خطيب الجلسات ولاسيما في السياسة ، وله مقدرة عظيمة على إلقاء الكلام . وتمثيل وقائع الزمان وشرح معاني السياسة الحديثة .

منهم سامي أفندي جريديني المحامي وهو من أهل الاجتماع سواء في مواد القانون وشرحه أوفي بقية مواضع الكلام .

ومنهم داود بركات رئيس تحرير الأهرام ،وهو من الذين يروق الأدباء حديثهم، له معرفة بدخائل الأمور وحقائق المسائل المحلية وأسرارها لا يفوقه علم ، ولكنه فطن حكيم لا يقول كل الذي يعلمه في بعض الأحوال .

ومنهم خليل مطران شاعر القطرين وصديق سكانهما أجمعين ، لم أسمع برجل كثر أصحابه ومعارفه والسائلون عنه وعن مكانه مثله ، ولاعجب فإنى لم أسمع رجلاً يحدث الآخرين ويعجبهم بيانه وسحر حديثه مثل خليل مطران، ولو أن الرشيد حى فى أيامنا لجعله رئيس ندمائه بلامراء ، وأشهر مايقال بعد شعره ونثره وجمال حديثه، أنه أوسع الناس صدراً وأعقلهم لساناً .

ومنهم سليم سركيس وهو من ألطف الأدباء حديثا وأميلهم إلى المحاضرات الفكاهية ، يميل إلى مسائل الإجتماع والأدب .

وطانيوس عبده صاحب مجلة الراوى ، لاينظم أبياتاً إلا ولها نكتة أو نكات شعرية انقطع فى الأعوام الأخيرة لكتابة الروايات وقد طبع منها حتى الساعة مئات .

والشيخ يوسف الجازن الصحافى المشهور عرف بالذكاء وسعة الأخلاق ورقة الحديث .

والسيد رشيد رضا الكاتب الإسلامى الكبير هو على الجملة مفتى الجمعية لأن الأعضاء يقفون عند قوله فى كل مايتعلق بأحكام الشريعة الغراء ، له ولع فى تطبيق مواد الدين الإسلامى على مايجد من علوم هذا الزمن وأختراعاته .

ومحمد كرد على صاحب جريدة المقتبس الدمشقية كان عضواً عاملاً مدةوجوده فى مصر ، ومصطفى الدمياطى ، والشيخ أحمد تقى الدين ، وانطون أفندى جميل ، والدكتور خليل سعاده مؤلف أكبر قاموس إنجليزى عربى ، وأمين بستانى ، والدكتور مهدى خان وبخيت شاهين ، ويوسف بستانى .

ومن الأعضاء الأكرمين حافظ إبراهيم والشيخ سليم البشرى ، ونجيب المشعلانى فترى مما تقدم أن جمعية الأدباء فى سبلنددبار قوة فى مصر من القوات الحية العاملة، وأنها أثرت تأثيراً عظيماً فى أمور مصر والدولة العلية » .

ولى كلمة واحدة أقولها عن هذه الندوة : إنها ندوة إخواننا الشاميين الذين هاجروا إلى مصر ، والذين كانوا فى وقت ما يملكون زمام الأمور كلها من خلف الساسة والوطنيين وغيرهم لصلاتهم القوية بقصر الدوبارة وقصر عابدين ، وكانوا فى الأغلب خصوماً ليلدز والسلطان العثمانى .

— ٤ —

ندوة القاياتي و البابلي

ولانستطيع أن نترك الصورة دون أن تكتمل بالحديث عن ندوتين طريفتين: ندوة القاياتى بالسكرية ، وندوة البابلى بالمعادى أو بالسيدة زينب. أما ندوة القاياتى فقد عرفت بأنها مقر الحركات الوطنية منذ عهد عرابى بدأها السيد حسن القاياتى ، وكان من أنصار عرابى وأكملها الشيخ مصطفى القاياتى وكان أزهرياً من رجال ثورة ١٩١٩ ، ودار القاياتى بالسكرية مبنية على الطراز العربى القديم ، منظرتها منتدى الثورة العرابية وحيث كان يجلس أحمد عرابى وفريق من الضباط ، وفى ثورة ١٩١٩ كانت تزخر بجماعات الطلبة الأزهريين وقد أعتقل عبد الجواد القاياتى والد حسن القاياتى وأحمد عبد الجواد والد مصطفى القاياتى أبان ثورة عرابى ونُفياً إلى سوريا ولبثا هناك أربع سنوات .

وفيما بعد الثورة المصرية لبث ملتقى الطبقات من رجال العلم والأدب والسياسة .

ويصفها حسن القاياتى فيقول :

« عطفة القاياتى » .. تلك عطفتنا العتيدة ، قائمة حيث يحتضنها باب زويلة عند ملتقاه بالسكرية ، تلك عطفة (الألايلى) فى بهرتها دارنا القديمة الصغيرة (القاياتى) مسلك ضنك ملتوٍ كمجرى النفس وحجر الأفعى .. والاسم لأسرة تركية عريقة كانت تقطن فيها وقد ترحّلت عنها قديماً .

وبيت القاياتى قد صاحب التاريخ فى مصر فترة واتخذ اسمه من قبل أيام جدهم الاعلى (شمس الدين القاياتى) قاضى القضاة بمصر الذى نزل فى هذه الأحياء سنة خمسة وثمانين وسبعمائة هجرية .

* * *

أما دار البابلى فكانت قائمة عند تقاطع شارعى خيرت والجامع الاسماعيلى ، وهدمت عام ١٩٣٨ بعد أن عاشت أكثر من ثمانين عاما ، ومازال اسمها يذكر مقروناً بالنكات المستملحة ، والفكاهات العذبة ، وقد ظل اسم صاحبها علما على الملح الشهية ، وقد نشرت الصحف والمجلات كثيراً من ملح البابلى .. وقال توفيق

حبيب الصحفي العجوز في هامش الأهرام يوم هدم العمارة : اليوم تزول العمارة وقد زالت من قبلها الثروة الواسعة ولكن الباقي هو نكت البابلي وقفشاته وأخبار مجالسه ، وقد كان هناك رواة يحفظون نكاته ونوادره ويجمعونها في صحف مكتوبة(١) .

* * *

وكان للشيخ محمد رفعت ندوة في شارع يحي بن زيد بالسيدة ، يجتمع فيها هواة فنه الرفيع ، ويمثل الشيخ رفعت أروع صوره للأداء ، مع أروع خلق للعزوف عن اتخاذ قراءة القرآن وسيلة للكسب .

حفظ القرآن بمكتب فاضل باشا ، وكان يقرأ في سراي فاضل باشا بعد ذلك سهرة رمضان إحدى عشر عاماً ، واقترن اسمه بأعلام القراءة في مصر : أحمد ندا والقيسوني والصواب .

وقد ارتبط اسمه بافتتاح الإذاعة المصرية ، غير أنه لم يلبث أن أصيب في الثلاثينات بمرض في حلقه ، فاجريت عملية جراحية ، أنفق فيها ما كان لديه من دخل ، وكان عزوفه عن المال من أبرز شمائل خلقه ، كان يأبى المساومة في ترتيل القرآن فأذاع بالأجر الذي قرر له بلا قيد ولا شرط .

وكانوا يدفعون له خمسة جنيهات عن كل مرة ، ولا يذيعون له إلا مرتين في الأسبوع ، دعاه نظام حيدر أباد ليقرأ لديه لقاء ١٥ ألف جنيه ، فلما أحس مفاوضوه أنه يمتنع ، زادوه ظناً منهم أنه يريد أن يرفع الأجر ، وما علموا أنه عازفاً عن مثل هذا المال ..

يقول : لم أسهر رمضان منذ عشرين سنة عند كائن من كان ومن قبل كانت سهراتي في الريف ، وكانت تكلفني مالا أطيق من متابعة القراءة حتى أتعب ، عندما يحضر أحد العمد أو المشايخ ومن مضايقات السفر ومتاعبه واضطراري إلى تغيير نظام حياتي الماضية .

وأهم سهراتي في رمضان في سراي فاضل باشا ، وكان عثمان مرتضى يواظب كل ليلة على الحضور ، ومعه فريق كبير من العلماء وقال : لقد كانت في مصر قارئات منهن الشيخة أسمهان وكانت تقرأ في سوامر حاشدة بالرجال مع الشيخ أحمد ندا والشيخ حسن

(٣) راجع الفصل الأخير من هذا الكتاب .

الصواب ، وكان يعجبنى صوتها كل الإعجاب ولم أسمع بمثلها حتى الآن .

وقد كان الشيخ رفعت يسهر فى بيته مع محبى فنه، ويقضى معظم الوقت فى الاستماع إلى الاسطوانات الموسيقية من بتهوفن وموزار ، وقراءة القرآن ، وكان يذهب إلى حديقة الحيوان يوماً فى الأسبوع ،ويجلس قريباً من بيت الأسد ليسمع صوته مرة بعد مرة فقد كان صوت الأسد أكثر الأصوات عمقاً فى « القرار » ولما مرض الشيخ تعفف عن الاستجداء والمعونة ، ورفض كل ماقدم له ، وقال إنه فى فترة امتحان . . امتحان من الله . . .

مصادر الفصل

مجلة الصباح — سبتمبر وأكتوبر ١٩٤١

كل شيء — م ١٩٢٩

الأهرام — م ١٩٣٣

المصور — م ١٩٣٦

الأهرام — يناير ١٩٣٨

مجلة سركيس — م ١٩١٢

٧

من الفيشاوي إلى قهوة باب الخلق

٧

من الفيشاوى إلى قهوة باب الخلق

عرفت القاهرة عشرات من الأندية المفتوحة ، فى مناطق الأحياء الشعبية ، وكان الأزهر وباب الخلق والحلمية من أبرز هذه المناطق ، وقد تحدث « فهمى عبد اللطيف » فى أحاديث مختلفة متوالية فى الثلاثينات عن هذه الأندية فى مجلة الرسالة . واختص نادى الحلمية ومقهى الفيشاوى وكازينو باب الخلق . وقال إن نادى الحلمية كان مقامه بجوار جامع قيسون أولا ثم تجدد مرة أخرى ، وكان من أبرز شهوده الشاعر محمد الهراوى الذى كان يعمل فى دار الكتب ويسكن فى هذه المنطقة بين شارع محمد على وباب الخلق . وقد جلس فى هذا النادى شوقى وحفنى ناصف وإبراهيم هلال وحافظ إبراهيم وعبد المطلب ونسيم والزين وبيرم وعماد وحسن القاياتى .

وقال الهراوى لفهمى عبد اللطيف أنه لا يذكر أن أديباً فى مصر لم يتصل تاريخه بذلك النادى القديم .

وكان هذا النادى قائماً أيام الثورة المصرية ، فانتقل إليه الشيخ مصطفى القاياتى وكان للشيخ حاشية حافلة بالشباب المفكر الجرىء أمثال عباس الجمل ، وعبد الرحمن الجديلى والشيخ محمد البنا . ثم مات النادى سنة ١٩٢٦ وقام مكانه مطعم للفول المدمس ، ثم تجدد مرة أخرى فى الحلمية وكان يجلس فيه محمد عبد المطلب والهراوى والأسمر والزين وحسن شفيق وزكى مبارك وحسن القاياتى ، وكان حافظ يتردد عليه من وقت لآخر .

الشاعر حافظ إبراهيم

* * *

أما مقهى « الفيشاوى » فقد كانت له شهرته الدوية حول موائد الشاى الأخضر يقول فهمى عبد اللطيف : « إنه كثيراً ما ينطلق أدباء الفيشاوى على طبيعتهم فيتشاجرون بالنادرة ويتضاربون بالنكتة ويرسلون الضحكات عالية قوية كلها سخرية

بالحياة واستهانة بقسوة الدهر واستخفاف بعبث الأيام ومطالب العيش ، وللفيشاوى موسم يتم فيه المجد ويبلغ الغاية من الجلال والكمال ، ذلك فى رمضان فتجد فى حلقات الفيشاوى : لطفى السيد والدكتور هيكل ، وحفنى محمود ، وفكرى أباظة ، ولطفى جمعة .

ثم ينفض السامر الحافل ويعود الوضع إلى مستواه ، ولا يبقى للفيشاوى إلا الذين يعكفون عليه من أمثال إبراهيم الدباغ وعبد الحميد الديب .

* * *

أما كازينو باب الخلق فإن وجود دار الكتب فى هذا الحى ، ربما هو الذى منحه هذه الصفة الأدبية وجعله مهوى كثير من الأدباء والشعراء والصحفيين ، يقول فهمى عبد اللطيف « كم لهذا الحى من سهرات عامرة ومجالس حافلة ، ناهيك بمضاحيك حافظ ونسيم وأمام العبد وصاحب الصاعقة (أحمد فؤاد) ومنشىء جريدة الحمارة والشيخ الشربتلى وإخوانهم .

وكان مقر كازينو باب الخلق فى المثلث الحادث من تقاطع شارع محمد على بدرب الجماميز وأمام جامع الحسين ، وكان يسمى من قبل قهوة باب الخلق ، وكان يجلس فيها أحمد مصباح ، ومحمد المهدى ومحمود أبو النصر وحفنى ناصف ومحمد الخضرى ، يحيط بهم نخبة من طلاب الأزهر ، ثم احتل القهوة الشيخ محمود زناتى وطه حسين وإبراهيم مصطفى والزيات ومن على شاكلتهم من تلاميذ المرصفى والمهدى والشنقيطى ممن تمردوا على حواشى الأزهر ومتونه وهوامشه . ثم مرت أيام فكان يجلس على الكازينو أحمد الزين وحسن القاياتى . ولما مات الهراوى انفض سامره فى الحلمية ولم يستطع إخوانه أن يقيموا فى الحلمية فانتقلوا إلى كازينو باب الخلق .

* * *

ولكثير : من رواد هذه الأندية قصص تروى : وفى مقدمتهم عبد الحميد الديب وصاحب الحمارة والشيخ الشربتلى . ولندع عبد الحميد الديب يصور حياته بقلمه ، يقول :

دخلت مدرسة دار المعلمين وكنت أول الثلاثة الذين غربلهم الامتحان ، لسنة

أدرى أى شياطين القزم والقرود ، ركب رأسى فى منتصف العام المدرسى ؛ فوقفت من مدرس الشريعة موقف السائل المستغيث . فقال : لا أريد أن أراه فى المدرسة يومين ، وفعلا كان ، فتوجهت إلى مقهى بحى بولاق اسمه « نادى البرابرة الوحيد » وجلست أتناول الشاى :

حتى إذا كان الظهر غشى المقهى سكوت مفاجىء ، ثم ارتفع فى أحد أركانه صوت مغنى يردد لأول مرة : والله تستاهل يا قلبى ، .. فقلت مخبراً - ليه تميل ما كنت خالى ، ورمى الرجل عوده من يده وقام إلى وهو يكاد يجن من الفرح ، فصافحنى وقدم إلى بطاقته فإذا هو أحد زعماء الموسيقى فى مصر ..

وذهب إلى الكواليس ، وقدم إلى الكاس الأول وما كنت قد رأيت الخمر قبل ذاك ، وظل يسعفنى فأشرب حتى رأيتنى بين نجوم السماء لا نجوم المسرح ، وبعد ذلك أخرج من جيبه علبة فضية صغيرة ثم وضع منها قليلا من مسحوق أبيض على ظهر يدى وقال « شم ده » .

وما فعلت حتى شعرت بنشوة غريبة حلقت بخيالى .. وكلما ناولنى كأساً طلبت شمة » .

* * *

ويمثل محمد توفيق صاحب الحمارة وأحمد عباس صاحب الخلاعة ومحرر جريدة السيف لونا من احتراف الصحافة وصعلكة الأنديه أما صاحب الحمارة محمد توفيق فقد كان كزميله أحمد عباس صاحب الخلاعة لونا مظلم من مدعى الصحافة فى هذه الفترة ، ولقد توفى محمد توفيق فى ديسمبر ١٩١٦ ، فكتب توفيق حبيب الصحافى العجوز يصور حياته وموته قال :

وصاحب الحمارة من عائلة معروفة بالقاهرة وقد عنى ذووه بتربيته فاتقن أصول اللغة العربية ونظم الشعر وهو يافع وأجاد اللغتين الفرنسية والتركية ثم دخل المدرسة الحربية وألحق بحملة السودان ، له هزليات يستمدها مما يحفظه من تاريخ الأقدمين ويبتكره من الأقاصيص .

ثم أنشأ مجلة هزلية كان يطبعها على الغراء ويوزعها .

أنشأ مجلة الحمارة منذ ١٨ سنة واقتفى فى كتابتها أثر الشيخ سانو أبى نظارة

وعبد الله نديم ، والشيخ حسن الآلاتى ، والشيخ محمد النجار وغيرهم ممن اشتهروا بقوة المفارقات .

وكانت كتابة هؤلاء الشعراء والكتاب لا تتعدى الأزجال والمقامات ثم المحادثات بين شخصين يتناول حديثهما غرضاً معيناً أو حادثة وقتية ولكنهم كثيراً ما كانوا يدخلون فى عباراتهم جملاً وألفاظاً تنفر منها الأذواق السليمة .

وامتاز صاحب الحمارة عن سابقيه بتجريدها من فحش القول كما عرف بابتعاده عن الشخصيات .

ولكنه كان شديد الوطأة على مخالفيه فى السياسة فتعرض لفضيلة الشيخ محمد عبده فى مسألة الموقوذة وغيرها من الفتاوى ، فحوكم وحكم عليه بالسجن .

وربما كانت الحمارة أول مجلة عربية يطبع منها ١٢ ألف نسخة فلما رأى بعضهم هذا الإقبال اقتدوا بتوفيق ولكنهم لم يفلحوا . ثم أبطل جريدته وفتح قهوة فى شارع فم الخليج ثم نقلها إلى العتبة ..

* * *

ويعدّ أحمد عباس صاحب اليد الطولى فى النقد الهزلى فى جملة لا تزيد عن سطرين بشكل أخبارى أو سؤال وجواب .

وكانت أغلب عباراته محتوية على نكتة أو إشارة دقيقة لا يدركها إلا الواقفون على أسرار البلد ودخائل أكابرها ، واشتغل بالصحافة منذ ١٢ سنة ، فأنشأ جريدة الخلاعة ثم أبدلها بجريدة الشجاعة ، وكان كثير التعرض لدخائل البعض ولذعهم بقوارص الكلم ، ولكن حلاوة النكته ورشاقتها لم يحمياه من العقاب فسيق إلى المحاكم غير مرة وحكم بتعطيل صحيفته فاشترك مع صاحب جريدة السيف .

وبعد أن كانت الجريدة . جدية حولها عباس هزلية ، وأدخل فيها ما يعجب ويطرب من فنون الهزل والتفنن فى إيراد الحوادث اليومية ووصف الأشخاص بأمور أصبحوا قادرين على التخلص منها .

وكان يخلق من كل حادثة ما لا يستطيع لسواه استنباطه أو إدراكه . وحدث منذ شهر أن تعرض لبعض تلاميذ المدارس بكتابات عدتها النيابة مزرية بهم فساقته مع بعض المحرضين والمشاركين إلى المحكمة وحكمت عليه بالسجن ستة أشهر فتجرع كمية من الكوكايين فقضت عليه بعد ساعات وهو واقف إلى جانب جامع السلطان أبو العلا(١) » .

* * *

أما الشيخ الشربتلي فقد كان آية من آيات الصحافة القديمة ، صحافة القدرة على المدح والذم في آن ، فقد كانت هناك صحف تعيش على مثل هذه التجارات .

وكان الشربتلي يحرر عدداً منها في وقت واحد ، من مكانه في قهوة باب الخلق ، فهو قد حرر المقالات وأعدها مسبقا وترك فيها فراغاً لكتابة إسم من يمدح أو يذم ، وقد صورت إحدى الصحف شخصية هذا الرجل العجيب على هذا النحو :

« كان أقدر صحفي في زمنه ، يقبض على زمام التحرر في ١٢ صحيفة مابين يومية وأسبوعية ، كان يحررها وحده، ميزته أنه كان يكتب للعامة فلا يفهمونه ، ويطلع على كتاباته الخاصة فينكرونه ، عاش عمرا طويلا وهو يرتزق من قلمه السيال في جرائد عدة معترفا به كصحفي فذ .

لا يهمه من الكتابة إلا أن يملأ صفحات الجريدة بكلام لا يعول على إتساقه ، كتب مرة في إحدى الصحف اليومية ١٣٥ مقالا بعنوان (السرطان السياسى) كان ينزل بها إلى مجاهل إفريقيا يتحدث عن غرائبها وعاداتها دون سابق علم أو معرفة ، ثم يصعد بقلمه فيطوف بأوربا وأمريكا متصيدا أسماء أشهر مدنها مخترعا حوادث خطيرة من عندياته ، وكان قراء المقالات يعجبون بها حتى أن الشيخ محمد عبده عند ما ذكر في مجلسه اسم الشيخ الشربتلي جاهر بأنه رجل فذ .

وقال إنه رجل يكتب فيما لا يعلم ١٣٥ مقالا قادر لو وهبه الله المعرفه أن يكتب آلاف المقالات في أمر نافع .

---

(١) اقرأ فصل « الفكاهة والندماء » في آخر الكتاب .

كان يجلس فى قهوة قريبة من باب الخلق ، كما يجلس أصحاب الصناعات فى هذه الأيام على قهاوى خاصة ينتظرون عمل يومهم ، أغلب أصحاب الصحف فى ذلك العهد من الجهلاء الذين يستهويهم الربح من هذه الصناعة ، وكانوا يعرفون مكانه فيتوافدون عليه حيث يدخن نرجيلته ومعه أوراقه وأقلامه وأدواته يدفنها جميعاً فى صدر قفطانه الواسع .

النوع العالى بخمسة عشر قرشاً عن الصفحة الواحدة والمتوسط باثنى عشر قرشاً والعادى بعشرة قروش .

يروى أنه عندما عمل فى جريدة الظاهر اليومية كان يستعمل طريقته الخاصة فى ملء أنهارها بكل مايجد من مخيلته . فلما علم أن صاحب الجريده يدفع مبلغا كبيرا لتلغرافات روتر ، هز الشيخ الشربتلى رأسه وقال «مفيش لزوم تدفع كله المبلغ ده كله فى تلغرافات لاتملأ عمودين من الجريدة أنا أقدر أحررها بصورة أعظم » .

واحتاج فى بعض المرات إلى خبر يملأ نهرا من الصحيفة والعمال واقفون يستحثونه فحك عنقه بطرف القلم وبدأ يكتب خبر حريق حدث فى متجر كبير فى العاصمة وقدر خسارته بكذا من الجنيهات ثم أثنى على جهود رجال المطافى وندد برجال البوليس فى تقصيرهم وعدم مبادرتهم إلى مكان الحريق فوراً .

ولكن رئيس العمال عاد إليه بعد ساعة يقول : إن العمود ينقص سطرين حتى يكمل ، مما كان منه إلا أن تناول القلم وكتب «وبعد كتابة ماتقدم بلغنا عدم صحة هذا الخبر فحمدنا الله وشكرناه على أنه لطف بعباده » .

* * *

وقيل إن بعضا من الموتورين أغروه بالتحرش بالشيخ محمد عبده « مفتى الديار المصرية » وكانت له الأيادى البيضاء على الشربتلى ، فأرسل لقلمه العنان إلى آخر الشوط ، وأنهال على الإمام سباً وسلباً ثم رماه بالغرية المنكرة ، وكان قد اتخذ مجلسه الدائم فى مقهى صغير يسمى بار العتبة على القرب من باب الخلق ، فلا يلبث أن يوافيه أصحاب الجرائد والمجلات ، فواحد يطلب منه كتابة مقال فى ذم فلان من الكبراء فيكتبه له الشيخ كأقذع ما يكون الذم وآخر وآخر ، فلا يمضى

اليوم إلا ويكون الشيخ قد كتب لعشرات الصحف التى يلعن بعضها بعضاً ، وتصدر تلك الصحف ويطالع الناس فيها ما يرضيهم وما يغضبهم .

أما دخل الشيخ فقد كان لا يتعدى ثمن ما يشرب من المشروبات فى المقهى فإذا كانت البضاعة طيبة دس أحدهم فى يده بريال مجيدى ، وكان الشيخ الشربتلى يكتب لأبى شادى (محمد أبو شادى) ما ينشره فى جريدة (الظاهر) فى الطعن على الإمام وكان يكتب للذين ينافحون عن الامام .

وتولى رئاسة تحرير جريدة يومية كانت تصدر باسم (الأمة) ومن سخريات القدر أنه توفى يوم وفاة « مصطفى كامل » .

* * *

وفى مراجعة لجريدة مصباح الشرق (١٤ إبريل ١٨٩٧) نجد تفصيلا عن قضية الشيخ محمد عبده ضد الشيخ الشربتلى عن المقال الذى نشره فى العدد ١٤٩ من جريدة النهج القويم ، ونسب فيه إلى الشيخ عبده عدة مطاعن تتعلق بأعماله فى الأزهر ، مثل تمزيقة للكتب التى فى أيدى الأساتذة ، والادعاء بأنه سبهم وقال الشربتلى فى التحقيق إن الذى روى ذلك له هو الشيخ سليمان العبد وكان بصحبته الشيخ حمزة فتح الله وشيخ آخر ..

* * *

ويتصل حديث الندوات ولا ينتهى ، وهى ندوات تعتمد فى أغلبها على الفكاهة : بكعوكة وحيد ، وبعكوكة البشرى ، وبعكوكة شفيق المصرى ، وقد دارت هذه الأسماء طويلا على أعمدة المجلات ، وكانت تشترط فى العضو أن يكون ظريفاً مثقفاً .

ويصطلح أعضاء (البعاكيك) على تسمية كل شخص لا يليق بعضوية البعكوكة باسم (حنفى أفندى) فإذا قيل (حنفى أفندى كذا) كان معناه الرفض المطلق ..

وقد تصدر أحلامها مختلف الحفلات ومآدب الأكل : حسين شفيق المصرى ، وعبد العزيز البشرى ، وفكرى أباظة ، ومحمد عبد القدوس ومحجوب ثابت ، وحفنى محمود .

وكانت هناك ندوات متعددة جمع تاريخها فى كتب . ومنها ندوة كامل الكيلانى والعقاد ، وندوات لم يكتب تاريخها لأنها تقع بعد هذه الفترة ..

* * *

وتردد ذكر ندوة الصوفانى بالحلمية الجديدة ، وكان لهذا المنزل تقاليد منزل عبد الرازق ، تلتقى الوفود كل مساء على العشاء ، بعد التمتع بالأسمار والأحاديث ،

* * *

وعاش شارع الفجالة فترة طويلة ، ملتقى الأدباء ،وكانت به مطبعة المعارف ومكتبة الهلال ومجلات الزهور وسركيس وفتاة الشرق ورعمسيس والمحيط والمفتاح ومن هذه البقعة التى لا تتجاوز الكيلومتر كانت تصدر أغلب مطبوعات القاهرة « وكان المنفلوطى يجلس على إحدى المقاهى هناك إلى الطاولة بثوبه الشرقى الجميل يصوب نظراته وبدون عبراته واذكر فتحى زغلول واقفا إلى صندوق الحروف بجانب العامل فى مطبعة المعارف » .

وروى زكى مبارك عن عبد العزيز فهمى : أن شارع درب الجماميز فى فترة من الفترات كان يموج بالأوراق المنشورة والكتب المبدورة ، ومرجع هذا إلى أن ديوان المعارف القديم الذى أنشأه على مبارك كان مقامه فى درب الجماميز وكانت دار الكتب على مرمى البصر منه . ومن ثم تحلقت حوله المكتبات . ولابد أن يكون درب الجماميز قد سبق شارع الفجالة بسنوات طويلة .

* * *

ولا نستطيع أن نغادر الندوات والمقاهى : . دون أن نذكر حادثا هاما هز الأندية وعاش حديثها زمنا طويلا : ذلك هو حادث قهوة درا كتوس أو ما أطلق عليه الشيخ على يوسف فى المؤيد « عام الكف » وقد وقع الحادث فى نوفمبر ١٩٠٢ وقد وصف الحادث كاتب معاصر لهذه الفترة . فقال :

جاءنا أمام العيد وقص علينا الحادث درا كتوس ، وقد رأينا بعد رواية إمام العيد بيومين فى محليات المؤيد نبذة يتناول فيها هذا الحادث بالغمز واللمز ، ثم ما عتم شيخ المؤيد إن فتح هذا الباب « عام الكف » حتى إنهالت عليه بدائع القرائح ،

قرائح الكتاب والشعراء الذى افتنوا فى هذا المعنى إفتنانا ، وغاصوا على كل معنى بديع حتى استخرجوا لنا من در الشعر ألوانا ، وأنسونا بذلك ما قيل فى طيلسان ابن حرب . . » .

وقد وصف كثيرون هذا الحادث أنه كان بين المويلحى وبين محمد نشأت مداعبات ، ولما كان هناك خلاف بين المويلحى وعلى يوسف فقد انتهزها صاحب المؤيد فرصة للانتقام ، ويشير الكثيرون إلى أن محمد المويلحى قد حفظها للشيخ حتى كانت حادثة الزوجية المشهورة فانتقم منه حيث أتيح له أن يفتح باباً فى جريدة الظاهر استدرج إليه أقلام الكتاب والشعراء .

وقد كتب محمد المويلحى فى جريدة والده إبراهيم المويلحى : «مصباح الشرق» مصورا هذا الحادث فقال :

اشتغل صاحب المؤيد طول الأسبوع بالكتابة عن حادثة (درا كتوس) فكتب ما يأتى : ساءنا إن أحد أنباء الذوات المشهورين بالذكاء والنباهه قد استعمل الشدة والقسوة مع محرر إحدى الجرائد الأسبوعية المشهورة بحسن الكتابة والتوقيع والنابغ فى الإنتقادات الشخصية فضربه على خده وصفعه على قفاه. ولا صحه لما قيل من أنه جره بيده من أذنه بلا جريرة ولا ذنب سوى أن المضروب رحب بالضارب عند دخوله درا كتوس قائلا مازحا : أهلا بالفاتن أو الفتان فلم يكن من هذا إلا أن فعل به ما فعل .

وقد حدثت لنا حادثة كنا نظنها من الأمور الخاصة ؟ أنا محمد المويلحى أقر وأعترف بأنى كنت فى دكان در اكتوس فى عشته يوم السبت ٢٥ من شهر أكتوبر مع جماعة من الأصحاب وبينما أنا جالس إذ دخل محمد بك نشأت فقال لى : بونسوار مويلحى فأجبته كعادتى : أهلا بالفتنى ، فما كان منه إلا أن ضربنى بكفه على وجهى فلم أتحرك من مكانى ولم تتغير جلستى وقلت له : ما زدت أن فعلت ما يمكن لأى حمار فى الطريق أن يفعلة مع أكبر كبير . وقام الحاضرون عليه يلومونة ويعنفونة ، ثم خرج فغاب برهة وجاء وراءه كاظم بك فاضل ومن ورائهما جماعة من الأروام ، فتقدم كاظم (بك) نحوى وأخذ يشتم ويسبب ويهدد باللغة الفرنسية ويقول : قد نشرت فى جريدتك بأنى أخذت مائة فرنك فى عقد زواج

الأميرة شويكار بباريس ولابد من الانتقام منك بأعظم مما وقع لك الليلة ، فلم أجبه بمثل سبابه ، ولم التفت إلى تهديدة وأشار علىّ الحاضرون بالخروج من المكان فقلت : أنا لا أضرب ولا أهرب ، ثم انصرف المعتدون بعد ذلك إلى سبيلهم ، هذه حقيقة الحادثة ذكرناها لمن لم يطلع عليها فماذا يعيب العائبون علينا . »

ومما ذكره الدكتور محمد صبرى إن أحمد شوقى وإسماعيل صبرى قد شاركا فى هذا الحصاد الهائل من القصائد بإمضاءات مستعارة وتوقيعات مبهمة ، فالمويلحى كان قد نقد الشوقيات وتألم شوقى لهذا النقد ، وقد وقع شوقى شعره فى هجاء المويلحى بإمضاء (دراكتوس) .

٨

من الكتّاب إلى المدرسة

٨

من الكتّاب إلى المدرسة

رجلان عاشا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر يرسمان لنا صورة المجتمع :
الكتاتيب عبارة عن غرفة مستطيلة لها نوافذ صغيرة مرتفعة من الطوب الأخضر ، وتفرش أرضها بالحصير ، فيجلس فيها التلاميذ مختلطين ، ويجلس الفقيه فى الصدر على سجادة . وفى الحائط قطعتان من الخشب بارزتان توضع فوقهما « آلة العقاب » : الفلقة والجريدة ، والفلقة عبارة عن جريدة يتصل بطرفها حبل يقيد فيه المذنب وتلف الفلقة على رجليه ويرفعهما العريف .

كانوا يقولون : جريدة الفقى من الجنة ، ويسمون الفقى « سيدنا » . وله مساعد يسمى العريف ، يقوم مقامه إذا غاب ، بالقراءة والكتابة فى الألواح الصفيح ، وحفظ القرآن وتجويده .

ويدعى الفقيه للقراءة فى المآتم والختمات ، وله جعل مخصوص عن كل تلميذ يأخذه صباحاً ويسمى العادة ، أربعة أرغفة من خبز الأذرة ، يأتى بها كل غلام صباحاً ويضعها فى الطاقة القائمة خلف الشيخ أما أولاد الأعيان فيجيئون بخبز القمح أو بقرشين ، ويحضر الطالب للشيخ الجبن والعسل واللبن ، وفى أيام الحصاد يرسلون له القمح أو الأرز على سبيل الهدية ، وفى العيد يرسل الكعك ، والعايدة ، والنقل وعندما يتم التلميذ حفظ القرآن ، « حفظ الخاتمة » ، حيث يقومون بصنع نوع من الفطائر المشلتت ، أو من الرقاق تجعله طبقات بعضها فوق بعض ، ويرسل إلى الشيخ تكريماً له .

ويصور لطفى جمعة هذه المرحلة من حياته :

كنت فى الفترة الأولى التى انتهت بسن التاسعة خاملا فى كل شيء له مساس بالتعليم ، فلم أحفظ القرآن ولا قواعد اللغة العربية ولا قواعد الحساب ولم أتقن الخطين

العربى والافرنجى ، ولم أتفهم معنى الجغرافيا. وقد حكم على جميع الأساتذة بالخيبة فى فروع العلوم كلها ولم يحسن بى الظن إلا أستاذ علم الأشياء الذى قضى نصف عام فى وصف الحمار !

لم يسعدنى الحظ فى تلك السنين الأولى بأستاذ يعرف ما هو التعليم الا رجلا فاضلا ألقت به الأقدار على شاطىء تلك المدرسة ، كأنه يقابل سفينة غارقة ، كان مطربشاً ملتحيا هادئاً ، يعلمنا المطالعة العربية فى الفوائد الفكرية والمسامرات الفكرية ، وما أفظع ذكرى هذين الكتابين العقيمين وأسقم أسلوبهما . ولكن هذا الأستاذ كان من المهذبين الذين وصل إليهم شعاع من نور العلم الحديث ، فقد سافر إلى مؤتمر المستشرقين فى استوكلهم ، وألف فى وصف رحلته كتاباً وكذلك ألف كتابا فى الأمثال العامية وآخر فى المواويل ..

فأقبلت على قراءة مؤلفاته ، وقد سبب شرائى لكتبه جميعاً ــ الذى لم يتجاوز مجموع ثمنها عشرة قروش صاغ ــ غضب والدى ، الذى لم يتعود إنفاق مثل هذا المبلغ الضخم ثمناً لورق مطبوع .

قرأت فى كتبه وصفه عواصم أوربا وأدركت وجود عالم وأقوام آخرين غير الذين أراهم فى السكة الجديدة ودرب الأتر وحارة الكنيسة وكفر اسكاروس ، وتلوت أمثال العوام وتفسيرها ومواضع الاستشهاد بها وحفظت بعض الموالى والمواويل وأدركت معناها .

فهذه السنون العشر الأولى قضيتها فى جهالة تامة ومحاولات خائبة فى سبيل إدراك مبادىء الأشياء ، ولكنى لم أوفق إلى شىء أكثر من فك الخط ، وقراءة بعض أجزاء من ألف ليلة ، وسيف بن ذى يزن ، وقصص أبى يزيد .

أما الضرب فى المدارس ، الضرب الموجع المؤلم ، الذاهب بالكرامة والمحدث للأحقاد بين الأساتذة والتلاميذ فقد كان قاعدة عامة إلى درجة إحداث العاهات المستديمة كالصمم وفقد بصر إحدى العينين ، وكانت فى كل مدرسة عدة (الفلقة) التى تشبه فى نظر التلاميذ تلك (الجيلوتين) فى نظر المحكوم عليهم بالإعدام ، وقطع الرقبة وطريقة (العبط) وهى أن يتقدم فراش ضخم كالجلاد ، ويعبط الطفل ، أى يحمله

ويضمه إلى صدره بخشونه ليمكن الناظر من ضرب ظهره بأنواع شق من العصى الخيزران .

ولم تكن المدارس الثانوية عام ١٩٠٠ إلا أداة من أدوات الحكم البريطانى فى مصر غايتها إخراج طائفة من الأفندية أطلق عليهم الإنجليز وصف .

The abominable Effindi claso

ليشغلوا الوظائف الصغرى فى دواوين الحكومة ، ويعملوا تحت إشراف السادة الإنجليز الذين يشغلون المناصب العليا الإدارية .

ووضعت وزارة المعارف تحت سلطة رجل واحد هو مستر دوجلاس دنلوب : الذى صار بعد ذلك دكتوراً من إحدى جامعات انجلترا ، وكان هذا الرجل فى أول أمره مبشراً ودخل وزارة المعارف عن طريق توظفه مدرساً للغة الإنجيزية أو الخط الأفرنجى فى مدرسة رأس التين الأميرية ، وذلك منذ ٤٥ عاماً (أى سنة ١٨٩٥) وما زال المستر دنلوب يدرس ويترقى ويجمع الأمرين بيديه ويستخدم نفوذ الاستعمار فى قتل النفوس المصرية ، حتى أصبح هو الكل فى الكل فى وزارة المعارف .

ونجح فى تكوين بطانة من الإنجليز والمصريين يسبحون بحمده وينفذون جميع أوامره ، ويسيرون وزارة المعارف بحسب إشارته ، فحارب اللغة العربية وآدابها واضطهد المشايخ المخلصين فانقلبوا أفندية بائسين ، وصار دنلوب هو الحاكم بأمره ، ولم يكن وكيل (النظارة) إلا رجلا من القش كما أن الناظر نفسه كان صنما مصاباً بالصمم .

والعجيب أن دنلوب قد أخذ الوقت الكافى ولم يتعرض له أحد بأكثر من انتقاد الجرائد السيارة ، وكان يشاع فى كل صيف ، أنه سيذهب إلى حيث .. ولن يعود ، وأنه استقال لأنه مصدور ولكن عبثاً كان انتظار تحقيق هذا الحلم ، وكان دائماً يعود هذا الرجل فى شهر أكتوبر على رأس قافلة من الخواجات المجاورين حملة شهادة الأهلية .B X وكلهم معينون بمرتب قدره ثلاثون جنيها لسائر المدارس الثانوية ، وقد انتقاهم دنلوب نفسه ولا يلبث هؤلاء أن ينقلبوا أفاعى وأعداء لنا

يذلوننا ويعلموننا الصغار ، ونحن فى ريعان الفتوة وفى سن الحماسة الحقة، فيطفئون جذوتها بالتهديد والوعيد والاحتقار ، وقد وصفونا فى مكاتبنا بأننا أمة نصف متحضرة وداسوا على كل عاطفة وطنية .

وعملوا على اضطهاد كل طالب أو تلميذ يظهر عاطفته أوميله نحو تأليف القلوب أو النداء باسم الوطن، وهكذا بدأ نظام فظيع من التجسس فى المدارس ، وصار نجباء الطلاب يطاردون ويطردون، ويحرمون من دخول الامتحانات العامة ، كذلك كل أستاذ مصرى لا يباح له أن يذكر عن مصر ونازلتها شيئا ، ولا يباح له أن يقرأ جريدة ، وتاريخ مصر والإسلام نفسه كان يدرس باللغة الانجليزية فى بضع صفحات أولها « إن مصر لم تحكم نفسها بنفسها أبداً . وآخرها « وقد هزم الجيش المصرى فى التل الكبير وذبح الجنود المصريون فى ليلة ١٤ سبتمبر التى كانت قمرية ، كما تذبح الخراف وفر قائدهم عرابى باشا . . . »

* * *

ويصور قاسم أمين تجربته فى « الكتاب » فيقول :

من تنقلى بين المدارس والمكاتب أحفظ تذكاراً ثابتاً لا يزول أبدا وهو : الخوف من الضرب فى المكاتب بالعصى على الأرجل أو الكتف أو الرأس ، أو أى مكان آخر فى الجسم ، وفى المدارس بالتيلة المزفته والفلقه ، ضرب يبقى أثره عدة أيام ، لقد كنت أذهب إلى محل التعلم مصحوباً باضطراب فى العقل وخفقان فى القلب وارتعاش فى الجسم .

* * *

ويرسم « المازنى » صوره لأيام الطفولة بين الكتاب وذكريات العيد :

أذكر فيما أذكر من أيام الطفولة إنى كنت فى كتاب أو مدرسة أولية وكان أبى حياً وكنا فى رخاء وميسرة ، وكان للكتاب وقف مشروط فيه . أن يعطى كل فقير من الصبيان كسوة فى العيد ـ بضع أذرع من نسيج خفيف فى الصيف ، أوثقيله

إذا وافق العيد الشتاء ، وكانت العادة أن يحمل المجدودون من الصبيان هذه الهدية ويمضون مع زملائهم المحرومين صفوفا متتابعة إلى دار الوقف لرفع الشكر والدعاء، وعلمت أنى لن أعطى شيئا لأنى كنت فى ذلك الزمن الغابر من الأغنياء ببركة أبى وجدى ، فحزنت وشق على الأمر واستهولت أن أمشى مع الصبيان ويدى فارغة على حين يمشى من عداى متأبطين كساهم فرحين بها فاشترى لى أبى « قطنية » زاهية الألوان ناعمة الملمس ، وقال خذها وامض معهم .

فطرت بها فرحا لما تلقيتها من أبى ، فلما صرت مع رفقائى ، ورأيت أن كساهم كلها بيضاء وأن كسوتى دونهم صفراء وزرقاء وبيضاء ، كرهت ما عندى وودت لو ألقيت به فى الوحل ولم أزل بواحد من الصبية أحاوره وأداوره وأخادعه حتى قبل أن يبادلنى فأعطيته « القطنية » النفيسة وأخذت « البفتة » الرخيصة وسرت مع الرفاق مزهوا ، لا تسعنى الدنيا من فرط السرور .

وبعد موت أبى تولى إفقارنا أخ لى كان أكبر منى ، فكنس ومسح ، كما تقول العامة ، فكان شعورى بالفقر الذى صرنا إليه يحملنى على رفض كل هدية - كائنة ما كانت - تجيئنى من غير أمى أو أخى .

وكنا فى العيد نعطى بلا تقتير ، أو حساب ، وكلما فرغت أيدينا ، وذهب ما معنا، عدونا إلى أهلنا نطلب منهم ، وكان أمتع ما فى العيد البارود ، فكنا نشترى هذا وذاك ونشعل فيه النار فتطلق منه مثل أصوات البنادق ، والأراجيح تلى البارود ، وهى أنواع منها خيل تدور براكبيها حتى تدور رءوسهم ، والبعض دكك ، وتدور كالساقية ونحن معها ، ومنا الجذل المسرور والخائف الوجل ، والذى يصرخ والذى يغنى .

ومن الأراجيح لوح مشدود من الجانبين إلى حبلين معلقين ، يقف عليه المرء ويمسك الحبلين ويروح يدفع اللوح بقدميه فيتطوح من الخلف إلى الأمام .

أما الفتيات فكان ولعهن شديداً بما يسمى (على لوز) وهو سكر يحل ويعقد ويزين باللوز والبندق والفستق ، وتحمله الفتيات فى أطباق يدرن بها على الصبيان ويبيعنهم منه ، كل ملء معلقة صغيرة بمليم .

وقد دارت الأيام بنا وكبرنا فلا عيد لنا وما عيد الفقير المحروم ، وماذا عسى أن تكون فرحة الذى يحمله أهله إلى القبور لزيارة أهلها فى أيام العيد . ومازلت أذكر إلى هذه اللحظة أنى بعد موت أبى كنا على قبره فى يوم عيد ، وقد ألبست حلة مزركشة مقصبة هى شكل ضابط يتدلى من حمائلها سيف كليل ، كسيف أبى حية الشكرى ليس بينه وبين الخشبة فرق ، فكنت أخطر فى هذه الحلة وأستل السيف وأضرب به حجارة القبور والجدران والأبواب ، وأنا فرح محبور لا ألتفت إلى الدموع المتسايلة على الخدود، ولا إلى معانى هذه الحجارة القائمة والصوى المرفوعة.

٩

من الكُتّاب إلى الأزهر

من الكُتّاب إلى الأزهر

وأحياناً يكون الاتجاه من الكتاب إلى الأزهر ، وهنا تختلف الصورة ، يقول عبد الله حبيب : إن الشيخ عبدالخالق فقيه القرية ، كان وجهاً بغيضاً إلى نفسى إذ كان يرهقنى بحفظ القرآن ، كانت كلمة « اطرحوه أرضاً » التى تخرج من فمه تكفى لأن تفككُّ أوصالي وترجف مفاصلي ، فأكاد أنطرح أرضاً قبل أن يتسلمنى عملاقاه القويان اللذان كان خصصهما لشد أرجلنا والضغط على أنفاسنا ، وهو يعمل « الجريدة » المقددة الملهبة فى أقدامنا ، وكنت أتململ بين أيديهما ، وأتمرغ فوق التراب لفرط الألم من وجع الضرب حتى تكنس ثيابى الغالية أرض المستوقد القذر الذى كان يطلق عليه اسم « الكُتّاب » .

وأعود إلى البيت أجُرُّ رِجْلَىَّ جرّاً والحذاءُ فى يدى لأن الورم الذى يكون قد أصابهما قد حال دون لبسه .

* * *

وذات مساء ، كانت القرية هادئة ساكنة وكان الظلام يلف البيوت الصغيرة فى غياهبه فلا تعرف مكانها إلا بالضوء الخافت الضئيل الذى ينبعث أحياناً من نوافذها ، وكان والدى فى هذا المساء يجلس ومن حوله نفر من أصدقائه وذوى الحاجات عنده ، وكنت أجلس قريباً منه فى انتظار سيدنا الشيخ عبد الخالق الذى كان على موعد مع والدى ليأخذ منه (الختام) والختام هو عبارة عن ثلاثة جنيهات أو خمسة أو ملابس (نصف عمر) يأخذها الفقيه إذا أتم حفظ القرآن أحد تلاميذه. قال والدى وصية أبى بأننى إسميك باسمه وأدخلك الأزهر .

وكنت أرى المجاورين يعوودن إلى القرية ، فى نهاية العام فى ثياب نظيفة وعمائم

يعودون

صوقرة وأرى الناس يجلونهم ويقبلون أيديهم ، خفق قلبي لـكلمة والدى فرحاً ، وتمثلت نفسى آخر العام كهؤلاء المشايخ وفرحت مقدماً بالقفطان الحرير الذى سألبسه ، والعمامة التى سأزين بها رأسى . وعودتى إلى القرية بعد عام باسم «الشيخ عبد الله» .

يا رب السماء . . . أنا الشيخ عبد الله الغارق فى هذه الهموم بين حفظ ألفية ابن مالك واستظهار دروس النحو والصرف والتوحيد والفقه والمتن وبين شقاء البيت وغسيل الأطباق وإنضاج الطعام وإحضار الطرشى كل يوم ..

• • •

غير أنه حدث مالم أكن أتوقعه فإن الشيخ محمود أوقع بينى وبين أبى فى زيارة له وقال :

ابنك فسدت أخلاقه . ابنك اتبع هواه وخالف الشرع ، أما أنا فقد مادت بى الأرض ، وتولانى الذعر والفزع ، وعقد الهلع لسانى ..

وخطا الشيخ محمود نحو الشباك بخطى مسرعة ووقف أمامه وقال : هنا فساد أخلاق ابنك . هنا المنـكر مجسم بقصه ونصه . ومد يده إلى الشباك وظل يبعثر كتبى هنا وهناك .

ثم تناول من بينها ديوان « البهاء زهير » وراح يلوح به فى الفضاء . وقال : هذا هو السبب ياسيدنا الأفندى فى الفساد .

الشريعة السمحاء تنص على سنية الوضوء بعد قراءة الشعر وماذلك إلا لأن الشعر من المنـكرات .

وتناول والدى ديوان البهاء زهير ومزقه ورمى به خارج البيت .

• • •

٢ — ويرسم الشيخ « عبد الجليل عيسى » صورة الأزهر قبل مطلع هذا القرن على نحو دقيق شامل :

« منذ أربعين سنة لم يكن للعلوم الحديثة من أثر في الأزهر ولا فى أدمغة

الأزهريين ، وأكثر مُدرِّسي الأزهر اليوم أدركوا العصر الذى أدخل فى المعلمون هذه العلوم على نظام الأزهر فقوبل عملهم بالاستنكار ، ولم يتورَّع بعضُ ذوي الجهالة من نعتهم بالزندقة والكفر ، وقد كان الانتساب إلى الأزهر فى تلك الأيام مما يستطيعه كل ناطق بالشهادتين ، إذ لم يكن على من يريد الانتظام فى تلك الطلاب الأزهريين أكثر من أن يقدم من بلدته فيدخل إلى الأزهر ويجلس فى حلقة الدرس التى تروقه فيظلُّ مواظباً على ذلك ، ابن الثمانين يطلب العلم جنباً إلى جنب مع الصبي .

يلبسون الملابس العادية التى يلبسونها فى بلادهم وقراهم ، الشراقوه أى الوافددون من مديرية الشرقية يلبسون الثوب الأزرق الواسع ، ويضعون على رؤسهم طاقية من الصوف حمراء وبيضاء ، والقادمون من الغربية والمنوفية أو البحيرة لا تخرج ملابسهم عن جلابية من الغزلى المخطط أو الدبلان الأبيض مع تغطية الرأس بطاقية بيضاء أو لبدة من الصوف ، أما القادمون من الصعيد فإن الزعبوط الأحمر والطاقية البيضاء كانا زيهم الخاص . والجميع لا يلبسون العمامة إلا بعد أن يتقدم العمر ، ويؤذن لهم بالجلوس بجوار المدرسين ، وكان هؤلاء يمتازون بالفروجية هى ثوب واسع فضفاض يشبه الزعبوط .

كان أكثرهم يحضرون بأكلهم من بلادهم وكانوا يطلقون عليها اسم الزواده . وهى تؤلف من خبز وجبن ومش ، وسمن وعسل وبعض القراقيش أو المنين ، وهم يتخذون فى أروقة الجامع الأزهر محلا لسكناهم .

كانوا يخرجون إلى النيل طوائف فيخلعون ملابسهم ويغسلونها ويتركونها ريثما تجف من الشمس والهواء وينزلون إلى الماء للاستحمام .

وكانت المعارك تقع بينهم ، بين طلبة إقليم وإقليم .

وكانوا يتخذون من صحن الازهر منشرا ينشرون خبزهم على أديمه إتقاء لما عسى أن يصيبه من التعفن لطول حبسه فى الخزانات والصحاحير .

ويقرأ الشيخ على الطلبة الكتب فى مادته ، ومن أنس فيه تحصيل العلم وارتاح إلى قدرته على الجلوس مجلس المدرسين أذن له فى أن يقرأ كتاباً فى أحد تلك العلوم على الطلاب المبعوثين .

فإذا جلس المعلم التفت حوله حلقة تضم عشرات الطلبة ، ينهالون على بالأسئلة من كل ناحية ، فإذا استطاع أن يقنع طلبته بالإجابة على كل أسئلتهم بمثابة شهادة له بالقدرة على التدريس .

وقد ظل هذا النظام معمولا به حتى بعد أن عرفت فى الأزهر شهادة العالمية وبعد أن أصبح الطالب يحضر امتحانا تعقده لجنة .

أما « الجراية » فالأصل فيها أن كثيراً من عظماء المسلمين وأهل الثراء منهم ، شعروا بأن بين الطلبة المتفرغين لطلب العلم والذين يرجى لهم مستقبل مجيد ، من يمنعه الاشتغال بطلب الرزق عن هذا التفرغ ، فخرجوا عن بعض أموالهم وحبسوها على الطلاب للتصرف فى جراية يومية ويبلغ ما يناله جانب الطالب الواحد بين ثلاث أقة وثلاثى أقه ، فمنهم من يبيع الزائد عن حاجه من هذه الجراية لينتفع بثمنه فى مرافقه الأخرى .

ألغى نظام الجراية فى عهد المراغى اصبحوا يتناولون نقودا .

* * *

أما الشيخ « يونس القاضى » فإنه يرسم هذه الصورة البيئة الأزهرية فى خلال العشرنيات وفى ظل ثورة ١٩١٩ :

« قضيت ثلاث سنوات غير منتسب إلى الأزهر لأن السن المخصصة للطالب كانت تبدأ من خمس عشرة سنة ، ولكن طلب العلم لم يحرم على أحد فظللت أحضر الدروس وأحصل العلم ، حتى سمح بتقييد اسمى ، مع العلم بأن شهادة الميلاد لم يكن لها أى دخل ، بل يكفى أن يسأل الطبيب الطالب عن سنه أو يقدر له سنا ..

أما يوم الجمعة فما كان أشهاه من يوم عند طالب الأزهر ، فقد كان يوم رياضة ، إذ كان الزملاء والبلديات ، أبناء البلد الواحد يذهبون إلى قصر النيل سيراً على الأقدام ، وكان طريقاً فسيحاً تتخلله الأشجار ، وفى ظلها جلس باعة القصب فتجلس جموع المجاورين يمصون القصب ويتسامرون أو يتناظرون أو يتطارحون الشعر ، وعادة الذهاب إلى كوبرى إسماعيل (قصر النيل سابقاً) عادة ورثوها من أسلافهم ، فقد كان شيوخ الأزهر وطلابه يذهبون إلى قصر النيل ليغسل كل منهم ثيابه وجسمه ويتركونها منشورة على الشاطىء ، بينما يلعبون الكرة « الشراب » أو يتذاكرون مسائل الفقه والتوحيد .

أما فى القرن العشرين فقد تغير الحال لأن الطلبة اشتركوا فى السكن فى منازله بالغريب ، وحارة وليلة .

ـ وقد حولا أخيرا إلى مساكن فخمة للطلبة ـ أو الكفر أو العطوف أو وكالة حله أو وكالة الشارين ، أو وكالة الفراخ بالصاغة . . (وهذه كان لها شأن عظيم فى ثورة الأزهر) أو منزل الزهيرى بحارة المدرسة .

وهذه الأماكن كانت محل إيواء عشرة طلبة وبها يغسلون ثيابهم وأجسامهم .

ولكن الذهاب إلى الكوبرى كان رياضة الأسبوع ، ولكن المجاورين كانوا يذوقون الأمرين من عامة الشعب وغلمان الأزقة ، من حيضان الموصلى والباطنية والكحكيين والحارات المجاورة للأزهر ، فقد كان المجاور محل انتقام هؤلاء القاهريين أو كان تسليتهم .

حتى إن الغلمان كانوا يستقبلون طالب الأزهر ويودعونه بأنشودة سخيفة هى :

« ـ يا مجاور عمتك دابت ، من السلطة والفول النابت ـ »

ولم ينشدوا هذه الأنشودة عبثاً ، فإن طعام الفول النابت والطرشى هو الطعام السائغ الذى ربى فطاحل العلماء وأثرى منه بائعوه ، أمثال محمد زلط ، ومهيأ ، ونصار .

وكم عمائم أهينت وكم محافظ فرقت ، وكم زعابيط وجبب قدت من قبل ومن دبر ، وكم أقفية صفعت وكان الطالب يحمد الله على نجاته ويجد أن منطقة الأزهر والشوارع العامة هى الشوارع التى تصون كرامة العلم فى شخصه ، ومنهم من قنع بخزانته فى الأزهر ومبيته فيه ، وأكله (الزوادة) وهو عيش مجفف (ملدن) وقدرة التقلية أو جرايته التى تصرف له بعد مرور سنتين على انتسابه .

ثم رؤى أن ينفذ نظام خاص يقرب من نظام كان أشار به الشيخ محمد عبده ، ولكن الوسيلة كانت قاسية ، فكلف المرحوم فتحى زغلول باشا وكيل الحقانية أن يضع قانونا يسير عليه الأزهر .

وضع القانون الذى يفرض على الطالب الذى له حق دخول امتحان العالمية أنه

يتحن فى علوم حديثة مثل آداب المناظرة والبحث ،وكانت متممة لأكثر من عشرين علما لم يتلق منها الطالب غير أربعة عشر علما .

واطلع الطلبة على القانون الذى طبعه كتبى وكان يوزعه علينا بائع كتب متجول ، داخل الأزهر وإسمه حنفى ، نظير خمس مليمات أو أربعة ، إذا دقق الطالب فى المساومة ، فتذمروا جميعا والتقوا بأشياخهم ، فلم يجرؤ أحد منهم على إبداء رأى ، بل اكتفى بأن يتلفت ذات اليمين وذات الشمال حتى لا يقال إنه متمرد أو غير قانع بحياة الكفاف التى كانت تدر عليه فى اليوم ١٥ رغيفا و ٧٠ قرشا صاغا مرتباً شهرياً نظير تدريسه للطلبة ، وكانت البركة محتاطة بالجراية فكان يبيع جانباً منها للساكنين معه فى المنزل كما كان يبيع الجراية التى يأخذها من المقارىء ليشترى منها الأدام . . وكان نهجه : القناعة كنز لا يفنى .

كان هذا مصدر الثورة ، وضع قانون يرغم الطالب على تحصيل علوم جديدة فى بحر سنة ، هذا تكليف قاس تذمر منه كل الطلبة ، وقد انبعثت أصوات خافتة من جوانب الأزهر تقول : سيطبق هذا القانون على المستجدين ولو حققت الرغبة برفع هذا القيد لما وقعت الثورة . .

فالذى حدث أن إدارة الأزهر سارت مجدة فى تنفيذ القانون فعم الاستياء الطلبة .

وكان لى عادة لم أقلع عنها مدة انتسابى فى الأزهر وهى ركونى إلى شخص من شاكلتى فى خلقى لنذاكر دروس الغد ، وكنا نجد فى البقعة الواقعة فى الجهة الشرقيه من حيطان مسجد الحسين مكاناً هادئا بعيداً عن الغوغاء والضوضاء فنجلس نتذاكر الدروس . .

وكنا نجلس بعد صلاة العصر فيخرج كلانا (تغييرة) ملزمة كتاب الخبيصى فى المنطق ، وكان الدرس فى القضايا الكليه فنذاكر الدرس ، ونعرف القاعدة .

١٠

بين الأزهر والجامعة القديمة

١٠

بين الأزهر والجامعة القديمة

ولم يقف مجتمع الأزهر عند صورة الفكاهة، بل انتقل إلى المقالب والمعارك والقضايا، ورسم لوحات طريفه من السخرية العابثة البالغة غايتها فى باب المثالب، وكأنما كان هناك إناس بعينهم يرسمون صوراً معينة، يصبحون بعدها علامة على السخرية فى ميدانها، فكما كان الشيخ أبو العيون يرسم فى كل مجلة وجريدة علماً على السخرية بالعرى والبلاجات، كذلك كان الشيخ حمزة فتح الله يضرب مثلا على فكاهات التقعر فى اللغة، حتى كانت تنشىء القصائد باسمه وترسل للصحف ويفاجىء بها منشورة باسمه، وكانت النكات تصل إلى الغاية حتى يقال مثلا « إن معزة أكلت ورقة مكتوب عليها اسم حمزة فتح الله فبدلا أن تقول ماء قالت ماق » .

وقد حاولت إحدى المجلات أن تسخر منه فكتبت هذه الكلمات :

« كان الشيخ حمزة فتح الله بطىء الكتابة كثير التفكير، إذا أراد أن يكتب كلمة قد لا يفرغ منها إلا بعد أسبوعين، يستعرض الرسائل العربية التى كتبت من يوم أن خلقت العربية، وتسمعه يترنم فى الترام وفى المجالس والنوادى بألفاظ الغرنقل، والزقنقل . فإذا انتهى من هذا إختار منها مايحلو له، فتخرج الرسالة التى تدبجها يراعته مثلا من الجاهلية الدفينة أو العروبة الخالصة .. ويثقل وقعها على الأسماع ..

وأساليب الخطاب عنه عربية قحطانية عدنانية ولو أن المخاطب من السوقة والدهماء . سأله ناظر المعارف لماذا تخلفت عن العمل ثلاثة أيام .. فأجاب :

لقد مرضت مرضاً سكعاً، فجئت بناجع لسكعا، فاستبحت السكعا، فنظر الناظر حواليه وقال له على سبيل التفكهة : ياشيخ حمزة كان الأولى بك أن تقول :

كنت وحمى سدكه فشهدت مأدبه فأكلت حبحبه من صفيف هلعه ..

فقهقه الشيخ حمزة وقال : أنا لا أحب المحاكاة والاقتباس ! وسقط مرة فى بئر ذات غطاء من الخشب ، وصار يصرخ ويصيح فقال له أحد الجيران وقد أدلى له دلوا ليتعلق به « تشعبط ياشيخ حمزه (بالماء) فما كان من الشيخ إلا أن رفض النجاة، وقال : إنى أوثر أن أموت غريقاً على أن أسمع هذا اللحن .

وسافر مرة إلى إيتاى البارود للتفتيش على المدارس ووقف به القطار على الرصيف فنادى وقال : ياصاح ، أنت يا هذا ، «إئتنى بأتان جمزة» فتقدم الرجل إليه فلم يفهمه ، فلكزه الشيخ فى صدره بعصاه ، فاشتبكا وأخذا إلى المحق فى القسم فسأل الشيخ : ماجريمة هذا الرجل ؟ فقال : جريمته كبرى وخطبه جلل ، لقد ناديته أن أحضرلى إتاناً جمزه ، فضربنى وركلنى بعد أن همزنى وغزنى .

فسأله الضابط أن يوضح فقال :

جلجل البعير فرعدت أحشائى ..

فقال الضابط نحن لا نفهم ارموا الشيخ ده علشان نفهم ازاى يتكلم ، فأمسكوا به وحينما أنتهى قال :

«علموه أن يقول : اطرحوه أرضا ، إن شاء أن يضرب » . .

* * *

ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل ان أحمد زكى باشا الملقب بشيخ العروبة يسجل ذكرياته فى هذا المجال فيقول :

« إسماعيل صبرى » : أراد حسن الحظ أن أكون رفيقه فى السفر من القاهرة إلى الاسكندرية وكانت الشمس تحدث نفسها بالاحتجاب فى يوم من أيام الصيف أو على حد تعبير الأستاذ الشيخ حمزة (فى حمارة القيظ) .

انطلق القطار بعد صفير الوداع تشيعه المناديل المهفهفة ، والعيون الواجفة ، والقلوب الخافقة . ثم أخذ ينهب الأرض بسرعة الشباب المنقض ، وإذا بصاحبى يتنفس الصعداء ويتأوه آهة الاسترواح ، ثم يرمى بالطربوش من ناحية ويخلع الجاكتة والصديرى على المشجب (باصطلاح الشيخ حمزة أيضاً) .

وحينئذ دار الكلام على سرعة الوابور ، وعلى خضرة المروج ، ونحو ذلك من نافع الشؤون . حتى دخلنا من حيث ندري ولا ندري في ميدان الشعر والنثر ، وروائعهما عند العرب وعند الإفرنج .

فتمثلت أصمعي بغداد ، وهوجو باريس ، قد تقمصا تحت قميص صاحبي وهو يسكرني بغير مدام ، ويتلاعب بعقلي ولبي بما في جعبته من أسرار ذياك السحر الحلال .

وصلنا « بنها » ، فإذا احتكاك واعتراك بين النار والماء . أما النار ففي جوف القطار السارى بسرعة البرق الخاطف . أما الماء فكان تحت الكوبرى ، وكله حديد في حديد ، ولا تسل عن العجيج والضجيج .

قال إسماعيل : أفرأيت إلى هذا الضجيج ؟ . إنه ليذكرني بضجيج الطاقات المتعاقبة في قول ذلك المتقعر النحوى ، أبي علقمه . لقد مسه الشيطان فصرعه ، وسط الطريق ، ولما أفاق من غشيته ، رأى الناس محيطين به . وأحدهم يؤذن في أذنه والآخر يدلك بدنه ، وثالث يشد يده ، صاح بهم وهو يزجر عليهم :

« مالكم تكأكأتم على كتكأكئكم على ذى جنه ؟ افرنقعوا » .

فقلت له : ومالنا ولهذه اللغة الحزاوية هناك صرعة غرام لا صرعة شيطان . وقد أوحت إلى شاعر لا أذكر اسمه فقال :

إن كنت كنت كتمت الحب كنت كما
كنا وكنت ولكن ذاك لم يكن

حينئذ طفر اسماعيل وصفق بيديه وقال : كلنا جمايرالله . سأحاول أنظم شيء من الشعر على لسان ذلك المتعمم المتعمق ، وأستخدم الألفاظ التي جنح إليها ، فترفع على سائر أهل اللغة والأدب .

وما وصل القطار إلى (كوبرى) كفر الزيات ، حتى كان الباشا قد أتم القصيدة (الكاكائية أو الكافكافية) .

وأخذ يترنم بها والقطار يرقص على صاجات الكوبرى فكانت الترنيمة ثالثة الأثافى : اسمعوا اسمعوا :

ويا أيذا الفيصل المزجى زواجره صوب السفين وثوب السوس سربله
أشكو له كوك كى ينكف عن نكب
إن كان كلا وكل مل كاكله
أباتنى والجرشى حشوها ضجر إن مس شقى خشب العلك قلقله

وعلى الكوبرى، وقف إسماعيل وأمرنى بالوقوف أمامه ، كما يقف المريد السالك أمام شيخه الصوفى . هيا ياز كى نقيم حلقة الذكر .

— أفى هذا المقام يا أخى ؟

— نعم نعم : إن القطان بحركاته وضجاته ، وإن الكوبرى باتضاعه وارتفاعه، يكونان شريكين لنا فى الذكر والتفقير ، وأنت تعلم أن كل شىء يسبح بحمده ويقدس له .

ثم اندفع يتمايل إلى اليمين وإلى اليسار ، وهو ينشد تلك الأبيات بصوت ... رخيم أو غير رخيم .

بل إنى حمدت الله الذى أتحفنى بنصف الصمم ، والتمست من بركات صاحبى وهو فى نجواه أن يدعو لى بنعمة الكمال ولكنه كان مستغرقا فى الذكر والنشيد .

فكانت الخطوة الأولى ، وكانت التفقيرة الأولى ، ثم أخذنى الجذب بعدها ، فكنا فى الذكر والإنشاد كفرسى رهان .

وإذا بالوابور يقف بعينه ، وإذا بنا قد انتهينا إلى آخر محطة ، وإذا شيال قد دخل علينا ، ولكن مالبث أن فر منا وهومذعور ، يستغيث بالله ، ويحوقل باسم الله .

حينئذ زالت عنا غاشية الجلالة التى تطورنا بها وفيها ، فنسينا الوجود ، ومن فى الوجود ... إلا الشيخ حمزة .

(ثم) وسوس لنا الخناس بأن نكتب القصيدة على أنها شكوى لواحد من

أكبر كبار الشعراء ، وهو علم من أعلام البيان ، والحجة الكبرى للناطقين بالضاد ، وبعثناها فى بريد الليل إلى جريدة المقطم . فبادر إلى نشرها فى مكان بارز .

وتحدث الناس عن القصيد وعن منشئه ، وراحوا يتساءلون عن هذا العبقرى الذى تلاعب بالألفاظ والعقول .

وعدنا إلى القاهرة ، وكان حب الاستطلاع قد ساق بعض الأدباء إلى التهامس باسم الشيخ حمزه ، فكان فى ذلك وحى جديد ولا أقول خبائة ثانية .

فقد تظرف المرحوم اسماعيل باشا ، وكتب خطابا بالحروف المغربية بعثه إلى المقطم يعاتب أصدقاءه الأماجيد والأجاويد على نشر القصيدة دون الإشارة إلى ناظمها ، والكتاب مذيل بما هذا مناله « الفقير إليه عز شأنه ، حمزة فتح الله » .

فبادر المقطم إلى . . . ببيان الحقيقة وصاغ للشيخ عقوداً من المدح والثناء وختم مديحه بأنه إذا لم يذكر اسم الناظم فقد عرف أهل العلم والأدب أنها من نفثات يراعة الأستاذ .

وانتهى بترديد المثل المشهور « وهل يخفى القمر » .

أما الفصل الثالث فكان فى إدارة المقطم .

فقد ذهب الشيخ حمزة فتح الله إلى الدكتور صروف أو إلى الدكتور نمر لست أذكر . وبعد التحية قال الأستاذ إن القصيدة تكاد تكون منى وعنى وأكاد أكون ناظمها ، ولكنى لم أنظمها ، ولست أتنحى عنها ، ولا أتبرؤ منها ، فهى والحق يقال ليست من يراعتى ولا براعتى ولا عبارتى . على أنى أتمنى ان كنت أكون ناسج بردها .

فأطلعه صاحب المقطم على الكتاب الذى رقمه القلم ، فكان عجبه أكبر وأكثر .

— إن هذا الخط أشبه شىء بخطى ، ولكنه ليس مما كتبته يمينى ، ولا جرم أن أكون كتبته بيدى وأنا لا أدرى . على أنه مع ذلك ليس صادراً عنى والقصيدة لى دون أن تكون منى .

وكان الشيخ حمزة رحمه الله آية فى الظرف وغاية فى الفكاهة إلى رحابة الصدر ، وحلاوة اللسان ، وخفة الروح ، رغم ذلك التقعر فى الألفاظ ، وقد أحسن المداعبة ، وتذكر شكواه من السفر فى ١٨٨٩ إلى مدينة استكولهلم .

وتمنى الأستاذ لو أتيح له أن يعرف من هو ذلك الأديب الراقى إلى أقصى أعالى سلم البلاغة حتى يمكن أن يجاريه إلى هذا الحد ، الذى يحير كل لبيب نبيه ، بل حار هو نفسه فيه .

* * *

وقد سار فى كل ناد حديث قصيدة (أشكوك كوك) هذه ، قبل أن يكشف عنها زكى باشا ، وقد كتب (إسماعيل أدهم) قريب الشيخ حمزة فتح الله نبذة فى هامش الصحفى العجوز بالأهرام مصححا هذا الأمر قال :

« قصيدة أشكوك كوك بعث بها إلى الصحف باسم الشيخ حمزة صديقه المرحوم اسماعيل صبرى وكان ذلك عقب زيارته للشيخ مهنئاً بعودته من المؤتمر . فقال : لقد كانت رحلة موفقة لولا مالاقيناه من عنف كوك فأشكوك كوك . فأثارت هذه العبارة شيطان الشعر فى نفس إسماعيل صبرى المرحه فنظم تلك القصيدة الغريبة على لسان الشيخ وكان الشيخ واسع الصدر فصار كل ما يصطنعه ظرفاء الأدباء من غريب أو معقد ينسبونه إلى الشيخ ، والشيخ منه براء . حتى اشتهر بحبه لغرائب الألفاظ وتعمدها فى كتابه .

فما ينسب للشيخ من قصائد ورسائل ضخمة الألفاظ عريبها عليها مسحة التعمل والتكلف وأكثر النوادر فى ذلك مختلف عليه وضعه بعض الأدباء أمثال حفنى ناصف وإسماعيل صبرى وغيرهما من الأدباء والظرفاء للسمر والإنشراح أو افتراه بعض الثقلاء . أما الشيخ فى كتابته نثرا ونظما فكانت قريحته تدر السهل دون تعمل .

وإن أصدق وصف لكتابه ما قاله عنه أليفه حفنى ناصف :

وللغرائب تأتى فى رسائله ... طوعا وتعنو له فى الشعر والخطب

إن رامها عقال منه مرتجل ... لبت وإن تدعها أقلامه تجب

يكسو المعانى إذا عنت له كلما ... كأنما أدخر الألفاظ فى علب

* * *

والحق أن حمزه فتح الله علم من أعلام اللغة والفكر ، وله تاريخ طويل وإن كان موقفه من الثورة العرابية قد خفف كثيرا من تقدير المقدرين له ، فقد أصدر صحيفة والى بها الاحتلال وهو صاحب قصيدة « اليأس » بعد الاحتلال :

الزم باب ربك واترك كل دون .

* * *

أما الشخصية الأخرى المثيرة فهى شخصية الشيخ « طنطاوى جوهرى » ، هذا الرجل الفيلسوف الذى رشحه أعلام الفكر فى أوربا لجائزة نوبل فى التشريفات من هذا القرن ، أنه لم يترك أمراً من أمور القرآن أو الوحى أو الفلك دون أن يحثه ويقول فيه رأيا جديدا . وكانت له آراء فى عالم الأرواح والمسائل المتعلقة بها ، ولقد حضر عديدا من ندوات تحضير الأرواح ، منها ندوة فى منزل محمد رشيد الذى كان مشتغلا بالابحاث الروحية ، وشغوفا باستحضار الأرواح بطريقة الكتابة باليد بحيث يضع القلم على المائدة وتتخدر أعصابها فتكتب بلا إرادة . يقول : فلما استقر بنا المقام أغلق علينا باب الغرفة التى كنا فيها وأخذ يحضر روح جان دارك فلما حضرت بدأ محمد تيمور يسألها عن أشياء تخصه باللغة الفرنسية فقلت له : إنا نريد روحا نفهم كلامها باللغة العربية . فكتبت روح جان دارك : لعلكم تريدون روحا عالية ؟ قلت : نعم فكتبت : هارون الرشيد ، وذلك بخط متقن شبيه بالخط الكوفى القديم الذى نراه على الآثار العربية .

ولقد سئل الشيخ طنطاوى جوهرى عن السر فى قدرته على إعطاء هذه المعانى التى أهلته للصدارة فى مجال أبحاث ما وراء الطبيعة فقال :

أحسن الأوقات عندى فى تأليف الكتب مايكون قبل الفجر إلى طلوع الشمس ، ولكنى لاأتقيد به . وأخرج للإقامه فى الحقول فتكون الرياضة بدنية والعقل فى فسحة من التفكير ، وكثيرا ما تتجمع أفكارى وتتوارد وأنا فى هذه الرياضة فأعود لأكتبها غير مقيد بوقت .

وقد تتوارد أفكارى وتهجم هجوما عنيفا وحينئذ فلا بد من أن أقيدها بسرعة ، وفى أى وقت وفى أى ورق كان .

وكثيراً ما تكون المشاهد الطبيعية السماوية ليلا والزينة الأرضية نهاراً باعثاً على حدوث أفكار جديدة فى النفس أدونها فى الكتب .

وقد كنت أشعر شعورا عميقا حين بدأت أضع مقدمة كتاب جواهر العلوم الذى هو أول كتاب أخرجته للناس بأن جمهورا عظيما من الناس سيتأثر وجدانهم بما تأثر به وجدانى .

وكانت الغبطة تملأ نفسى كلما سمعت ضجة تقوم حول مؤلفاتى ، لأنى أعلم أن ذلك لم يكن ناشئا إلا عن اهتمام العلماء والأدباء بما أكتب ، أما أحب كتاب إلى نفسى هو كتاب (الجواهر) فى تفسير القرآن .

هو الذى لا أزال أتمه إلى الآن ، ذلك لأننى استطعت أن أدخل العلوم الطبيعية والرياضة وغيرها بكل سهولة فى أساس القرآن بعبارة وجدت أن المسلمين فهموها مع غموض العلوم فى كتبها الأصلية .

وقد طبع الكتاب مع كبر حجمه فى ١٦ مجلدا استغرقت ثلاثة ارباع القرآن وانتفع به مسلمو العالم كافة ، وقرظه البارون كاردى فو فى كتابه مفكرو الإسلام .

وقد رسم محمود الطنجى صورة لمجلس من مجالس الشيخ طنطاوى جوهرى فى إحدى ندوات دار العلوم فقال :

« كانت دعوة الخميس الثانى من شهر مارس ١٩٣٩ ، دلف إلى النادى عدد غير قليل من كبار المتخرجين فى دار العلوم ، أخذنا نسمر فى رفق وإناه ، ننتظر شيخا من كبار أبناء الدار ، يحاضرنا فى « الغذاء الصحى » ، شيخ يحاضر فى الغذاء الصحى ، لا نطاسى كبير ولا طبيب بارع . . مكثنا ننتظر ، فإذا خطوات وئيدة فى قوة ، وحركات هادئة فى صبوه ، تتقدم بصاحبها إلى ردهه النادى ، فيبدو شيخ يحمل على ظهره سبعة وسبعين عاما ، ما أحوجت سمعه إلى ترجمان ولا غضة من

رونق محياه : الفيلسوف المصرى الشيخ طنطاوى جوهرى ، فجلس وهو يرسل ابتسامة صافية من وجه مشرق ، مشرب بالحمرة ، تحيط به هالة من لحية بيضاء .

* * *

وقد وقعت تحت يدى تقاريظ ملوك الشرق وعلماء الغرب لأبحاثه العميقة ، التى رشحته لجائزة نوبل للسلام ، فقد نشر ٢٨ كتابا توجها بكتابين (أين الإنسان) و « الأحلام فى السياسة » .

ووصفه البارون كرادى فو فى المجلد الخامس من كتابه مفكرو الإسلام فقال « وللشيخ طنطاوى القدح المعلى نذكره هنا قبل الكلام عن كتابه (أين الإنسان) ثم قال : إننا سنبين ثلاثة المظاهر الرئيسية لتطور مصر الحديث ، ثم كتب أمام المظهر الثانى العناية التى أظهرها رجلان من رجال الدين وهما الشيخ محمد عبده والشيخ طنطاوى ، فى تمثيل الدين الإسلامى وتأثيره فى النفوس للنهوض بها إلى التطور الحديث .

وكان الشيخ طنطاوى قد نشر كتاب (أين الإنسان) سنة ١٩١١ وقرظه الأستاذ (سانتيلانه) الطليانى العالم الكبير فى المجلة الشرقية برومه . وله نظام العالم والأمم ، ونهضة الأمة وحياتها .

وقد وضع كتاب أين الإنسان على طريقة رواية فلسفية سياسية وهو فى هذا يشابه الفارابى من حيث الفكرة وابن طفيل من حيث الأسلوب والمنهج .

ووصفه سانتيلانه الإيطالى بأنه أحد رؤساء الحركة السياسية الاجتماعية التى انتشرت فى كافة طبقات الشعب الإسلامى تحت اسم الجامعة الوطنية ، تلك الحركة التى ترمى إلى الاستقـــلال السياسى والإصلاح الدينى طبقاً لمنهج مرسوم بعيد المدى ، مشوب بشىء من الإبهـام ، وذلك بقصد التوفيق بين العلم وما جاء فى القرآن الكريم .

وقال محمد حسن الأعظمى إن شخصية فى الشرق من المصريين لم تشتهر كما اشتهر شيخنا العلامة طنطاوى جوهرى ، ومن يشك فى ذلك فليدر فى أقطار الهند والفرس والصين والتركستان وأندونسيا والعرب سيجده علماً مرفوعاً . . والشرقيون يعتقدون أنه المصرى الوحيد الذى عرف الثقافة العربية والحديثة أتم المعرفة .

وفى التركستان اسموا الجامعات باسمه « جامعة طنطاوية ومدارس جوهرية » وألفوا الكتب باسمه « كالعقائد الجوهرية » .

* * *

ومن الشخصيات التى خرجت من الأزهر واستطاعت أن تشق طريقها حتى وصلت إلى السربون الدكتور زكى مبارك ، وكان الشيخ زكى مبارك يخطب بالفرنسية إبان ثورة ١٩١٩ ، وقد وصفه عباس محمود فى حديث آسر راسما تلك الصورة فى براعة ووضوح فقال :

عندما اندلع لهيب الثورة فى سنة١٩١٩ كنت أرى فى المساجد فتى معمماً مفتول العضل منتظم الهندام ، يضع على عينه منظاراً ويلبس جبة حمراء يخب فيها خباً ويخطو خطوات واسعة فيها حركة ونشاط لا يتفق مع ما عرف عن شيوخنا من تؤده مقصودة ووقار مصنوع .

وكان خطيباً من خطباء الثورة ، بل كان ثورة وحده تتجول فى جبة وقفطان ، وكان صوته قوى الدوى ، وكان أحياناً يقول الشعر وأغواه شيطانه بالشعر السياسى ، فنظم أبياتاً فى ولسن فى صراحة غير مألوفة ، وشمت بالرجل المريض الذى خيب رجاءنا جميعاً ورددها شباب الثورة .

ومر على ذلك سنوات ، فانتسب إلى الجامعة القديمة ، وكنا كثيرين قمنا جميعاً كما يقوم المصلون من الصلاة .

وفى هذه القاعة وجدت شيخنا الثائر يجلس فى صمت ووقار فتصافحنا فى ود واشتياق ، وتزاملنا سنوات ، كان فيها كثير الأحزان فإذا استدرجته إلى حديث أدبى تدفق تدفق السيل وأشكل عليك اسكاته ، وإذا التمست رأيه صارحك الرأى دون أن يجعل فى حسابه الرفق بك إذا كان هذا الرأى لا يرضيك .

كان كثير الاعتداد برأيه ، قوى الثقة بنفسه مميزاً بين أقرانه بدقة الفهم والاطلاع وحسن العبارة وحلاوة الأسلوب .

كان فى حداثته فلاحاً مقسم الجهد بين الفأس والمحراث ، وأن للفأس فى يده أثراً لم تقو على محوه حاشية الكفراوى ولا فلسفة ديكارت .

وكان قد تقدمت به السن وهو يغنى للثور والمحراث ، ثم أفاق فهبط القاهرة وجاور فى الأزهر وقد سبقه إخوانه فى الدرس ، وفقسا على نفسه حتى انتهب الشهادة الإعدادية انتهاباً .

ولصاحبنا فى الأزهر طرائف ، فقد بدأ حياته صوفياً وأخذ العهد على أستاذه الشيخ الطماوى ، ولكنه كان كثير التساؤل فسلخه الشيخ عن طريقه ، وكانت أيامه أقل سخاء بتهمة الكفر والإلحاد فوسموه بالاعتزال .

وكانت رسالته للدكتوراه فى حجة الإسلام فأثارت عليه ثائرة الشيوخ ، ولكنه مضى فاستبدل العمامة بالطربوش ونزع جبته ، ولكن الآثار العقلية لا تخلع كما تخلع الملابس فدكتورنا ما زال أزهرياً .

أن الهمة قد جعلت من الفلاح المسكين دكتوراً فى الآداب .

* * *

ويمثل الدكتور زكى مبارك نموذجا للطالب الأزهرى فى أعماق الهيئة الأزهرية قبل الحرب الأولى حين اتصالها بالجامعة المصرية القديمة . يقول زميله عبد الله حبيب :

كان الطلاب يتأنقون فى ملابسهم قدر ماتسمح به الظروف لطلاب يغتربون فى فى طلب العلم بعيداً عن أقاليمهم . وكان هو من بينهم الدرويش المتقشف الذى اختار « ربع الغورية » العتيق لسكناه والذى قنع من دنياه بمترهل الثياب . أو الذى حبب إلى نفسه هذا النوع من البهدلة المعيشية التى تشبه فوضى البوهيميين : كانت عمامته أشبه بعمائم البنائين فى أعلى العمائر لا يقر الهواء المتدافع منها طرفاً على طرف وكانت جبته قلقة فوق قفطانه منخلعة الأطراف لا تستقر ولا تنسجم على جسمه لأن جسمه لا يعرف الاستقرار والانسجام ، وكان حذاؤه يطل وقد تدلى عليه الجورب . معفراً مغبراً كأنه قد تكفل لمصلحة التنظيم بحمل الأوحال والأتربة التى تعج بها الأحياء الوطنية وكان يذهب إلى ميدان الأزهار كل مساء فى طريقه إلى الجامعة المصرية وكان منظاره الغليظ الذى يحمله فوق عينيه يتدلى إلى منتصف أنفه الطويل المقوس فيبدو كالكهول من صيارف القرى . وكان شعره الكث الأشعث يبدو من تحت عمامته ويغطى

جزءاً من ظهر أذنيه الواعيتين فيدعه صاحبنا يتمرد ويتلوى ويتدلى فلا يخضع لمقص حلاق ولا يعبأ بتأذى الرفاق، وكان إذا مشى باعد مابين ذراعه وجسمه وفرطح خطاه وراح يهرول فى مشيته تاركاً ذيل الجبة لعبث الهواء .

* * *

ويرسم زكى مبارك بنفسه صورة تقلبه بين العمامة والطربوش والقبعة فى مختلف أدوار حياته :

« إننى تقلبت فى الملابس من حال إلى حال فكنت أولا ألبس الطاقية والجلابية . وهو لباس الفلاحين المصريين ولباس أهلى فى سنتريس ، إنى فلاح لا يزال فى يدى أثر الفأس والمحراث ، كنت معمماً يوم كنت طالباً بالأزهر الشريف .

ولكن يظهر إنى كنت غريباً بين الأزهريين فقد كانت عمامتى أظرف عمامة ، وكان هندامى أجمل هندام وكنت وحدى فى الأزهر أمثل مذهب المعتزلة ، يوم كان الأزهر لايذكر المعتزلة إلا قال : قبحهم الله .

وكان فى النية أن أظل أزهرياً ، فقد انتقلت من مذهب الشافعى إلى مذهب أبى حنيفة لأكون مفتى الديار المصرية ، لقد شاءت المقادير أن تخلقنى على غير طراز القضاه والمفتين ، فنقلتنى إلى الجامعة المصرية لأصبح من تلاميذ منصور فهمى ، وطه حسين والله الحفيظ .

ومع ذلك ظللت معمما إلى أن ظفرت بإجازة الليسانس عام ١٩٢١ . ثم أخذت أستعد لامتحان الدكتوراه ، فبدا لى أن أصبح (أفندى) وكانت كارثة لأنى لم أكن أعرف تقاليد الأفندية الظرفاء ، فقدمت ماعندى من الجبب إلى أحد الترزية فى شارع محمد على فصنعوا منها بدلتين سخيفتين شهدتا بأنى كنت مهندما فى الجبة والقفطان ، ثم أصبحت أضحوكه فى السترة والبنطلون .

وفى يوم الامتحان أوصانى الدكتور منصور فهمى بأن أحضر فى البدلة السوداء ، فلم أفهم المراد وحضرت ببدلة مكونة من لونين سخيفين كل السخف ولولا فصاحتى وبلاغتى فى ذلك اليوم لعدنى الحاضرون من السفهاء .

وقد جاء فى كتابى « الأخلاق عند الغزالى » فصل لا أدرى ما هو لأنى نسيته ثم لبست القبعة بعد ذلك بثلاث سنين حين هاجرت لطلب العلم فى باريس سنة ١٩٢٧ .

ومن الغريب أنى لم أصنع ما يصنع زملائى وعهدى بهم يذهبون إلى البواخر بالطرابيش وإنما لبست القبعة من منزلى فى مصر الجديدة ، فلم يعرفنى المودعون ومنهم الشيخ إبراهيم القاياتى رحمه الله ، ومنهم الشيخ على مبارك الذى زاغ بصره ليعرف ابن عمه الغالى ، وكان يجهل أنه أصبح من الخواجات فى محطة باب الحديد .

وذلك تاريخ معروف ، والمهم هو تسجيل لبس السدارة فى بغداد . وقد رأيت الأستاذ محمود عزمى يلبس القبعة فى بغداد فعرفت أنه غير موفق ، لأن ما يصلح لجو باريس قد لا يصلح لجو بغداد ، والسدارة العراقية لباس جميل ولكننى ألبسها على رأسى بعنف لأتقى بها البرد .

* * *

أما الدكتور طه حسين فحين يذكر فى هذا المجال تذكر معه مقالبه ومشاغباته مع أساتذته فلقد آثارطه فى الأزهر ثائرات التمرد ، وأحدث لنفسه دوياً ، وترك صحنه العتيد موليا إلى الجامعة المصرية القديمة . ومن هناك استطاع أن يحرز الدكتوراه ، ويسافر إلى فرنسا ولكنه لم يتوقف عن إثارة المشاغبات والمعارك فهو ما أن يعود من فرنسا للسنة الأولى من بعثتها حتى تقصد إلى الجامعة ، فيستمع إلى دورس الأدب فيها يلقيها الشيخ محمد المهدى ، ويخرج منها ليكتب فى مجلة السفور مقالا عاصفاً فى الهجوم على أستاذه القديم ، وكان ذلك سنة ١٩١٥ تحت عنوان « يوم ٣٠ نوفمبر فى الجامعة المصرية » :

فى مثل هذا اليوم من السنة الماضية سمعت لأول مرة درس الآداب من جامعة مونبليه ، وكان الأستاذ يدرس قصة وضعها الفريد دى فنى فى المثال الذى اخترعه

الكاتب الإنجليزى ولترسكوت من القصص، وقد لخص الأستاذ القصة وحلل موضوعها ونقد لفظها ومعناها وما تمثل من صور أشخاصها وأبطالها ، وما أثرت فيه وتأثرت به من كتب القدماء والمحدثين . فلما خرجنا من الدرس سألت صاحبي ضيفاً (الدكتور أحمد ضيف) كيف ترى المحاضرة فقال : لا بأس ولكنها شديدة الاختصار .

قلت: إنك عسوف شديد الطمع ياضيف فلو سمعت درس الأدب العربى فى الجامعة المصرية ورأيت الأستاذ وقد مر فى محاضرة واحدة بثمانية من الشعراء فى عصر المأمون ، لعرفت أن صاحبنا فى مونبليه قد بلغ الغاية القصوى فى الاسهاب والإطالة . ورجعنا بعد ذلك إلى مصر وفى اليوم نفسه من هذه السنة سمعت درس الأدب العربى فى الجامعة المصرية ، وأبى ضيف أن يحضره .

وكان درس الأستاذ المهدى فى تاريخ الأدب العربى فى الأندلس أيام الحكم المستنصر والمنصور بن أبى عامر أشبه بعرض الصور المتحركة تمر به ظلال الشعراء ولما يتبين منها الطلاب أكثر من أسمائهم ، وما يحس . أن يكون درس ذهب نصفه فى وصف مكتبة المستنصر ودهاء المنصور وألم النصف الباقى بما يتجاوز عشرة من الشعراء ، مكتبة المستنصر ، إن أمرها لغريب هذه المكتبة ، كان فيها أربعمائة ألف مجلد ، ولها فهرس يزيد على ثمانمائة ورقة ، وليس فيها كتاب إلا قرأه الحكم ، وعلق عليه ووضع له مقدمة ، وهو لا يملك إلا بضعة عشر عاماً قد ملئت بالفتوح وألوان الجهاد . كل ذلك ما قاله الرواه ، وكل ذلك قبله الأستاذ ، أن أوراق الفهرس فى رأيه أقل جداً مما كان يجب أن يكون ، شىء لطيف :

ومررنا بطائفة كبيرة من الشعراء يذكر الأستاذ اسم الشاعر وشيئاً من شعره ولكن لا يكاد يفرغ من إنشاء البيت حتى ينتقل من الجامعة إلى إحدى الحانات ، فتسمع ذوى الشرب وقد أطربتهم نغمة المغنى ، وتوقيع العواد ، فقالوا بصوت واحد الله ، أعد ، فيعيد الأستاذ والظاهر أنه يحب الاستعادة فقد أنشد بيتاً لم يستعده الطلبة ، فقال : لا تستعيدون هذا البيت ، إنه جميل ، أعد فيعيد الأستاذ . والظاهر أنه يحب الاستعادة فقد أنشد بيتاً لم يستعده الطلبة ، فقال : لم لا تستعيدون هذا البيت ، إنه

جميل ، أعد يا أستاذ من فضلك فيعيد ، الله أكبر ، جميل جداً ، صحيح ، وكذلك مضى الدرس .

إنك لسيء الحظ ياضيف ، فلو سمعت معي درس الأمس لرأيت شعر ابن هاني ينسب إلى ابن خفاجة ، ثم يعتذر الأستاذ حين ينكر ذلك عليه بعض الطلبة ، إنك لتعس ياضيف فلو سمعت على درس الأمس لأعجبك هذا البيت :

فكأن الزجاج جامد ماء وكأن المدام ذائب نارْ

لا بأس ، وما عسى أن تكون هذه النار الذائبة ، ولا يمكن أن يكون الرواية ذوب نضار ، لايبعد .

ولكن مالنا وللتحقيق ، فقد رأينا ابن خفاجة يعد من معاصرى المنصور المتوفى سنة ٣٩٢ مع أن ابن خفاجة لم يولد إلا سنة ٤٥٠ أى بعد أن فرغ المنصور من الحياة وفرغت الحياة منه .

وبعد أن اختلفت شؤونه ، وحالت أحواله ، وبعد أن تنكر الدهر لقرطبة ، وذهب منها ريح بنى أمية ، فالمؤثرات التى أثرت فى ابن خفاجة وكونت شاعريته غير المؤثرات التى كونت الشعراء فى عصر المنصور ، وحسبك ما يكون من الفرق بين شاعر نشأ أيام الوحدة وآخر نشأ أيام الافتراق، ومالنا والتحقيق ! فإن الأستاذ قد كان يعجله حب الاختصار عن كل شىء ، حتى أنه إذا ذكر الشاعر نسى أن يذكر سنة ميلاده ووفاته ، ولعله لوعنى بذلك أوفكر فيه لوضع ابن هانى موضع ابن خفاجة فقد عاش ابن هانىء فى أيام المستنصر ، وارتحل من الأندلس ، ومدح المعز .

ولم يكن فى الدرس شىء يدل على أنه درس فى الجامعة ، وإنما هو نوع من الحديث يستفز سامعيه بما يعرض فيه من الغزل والوصف ومن آيات البديهة والارتجال .

لا ألوم الجامعة فإنها لم تأل جهداً فى حسن الاختبار ، ولا ألوم الأستاذ فانه قد بذل كل ما يملك وجاء بما يستطع أن يجود به ، ولكنى أرثى لصاحبى ضيف لأنه حرم لذة الاستماع لهذا الدرس الجميل ، وأرثى له لأنه حرم هذه الفتره وحرم معها

هذا الألم يشعر به من سمع العلم فى جامعات فرنسا ثم فى جامعة مصر وقارن بين الاساتذة والطلاب هنا وهناك ، حرم هذا الالم وكان من الحق عليه أن يشعر به وليعرف أن اختصار فرنسا إطالة وأن أطالتنا إختصار ، وأن هزل فرنسا جد ، وأن جدنا لعب ، وأن فرنسا حرية بالحب والاعجاب ، وأن مصر خليقة بالرحمة والرثاء . زاد الله فرنسا رقيا ورفعة » .

* * *

ولم تثبت أن تظهر مجلة السفور حتى يحدث حدث خطير فقد أحدث طه أزمة فى الجامعة القديمة ؛ وعلق عبد الحميد حمدى صاحب السفور (١٩١٥/١٢/١٧) على الحادث فقال :

صديقى الدكتور طه حسين حضر درسا من دروس الآداب فى الجامعة المصرية فانتقد الأستاذ المهدى انتقاداً علميا على صفحات هذه الجريدة ، فعد الأستاذ المهدى هذا الانتقاد إهانة ورفع شكواه إلى مجلس إدارة الجامعة لتفصل فيها .

فالأستاذ المهدى قد عد النقد إهانة ، والدكتور طه لم يعترف بذلك لأنه انتقد الأستاذ إنتقاداً علمياً خالصاً ، ومجلس الإدارة وقف على الحياد لأنه لم ير من حقه الفصل فى محاورة علمية بين عضو الارسالية وأستاذ الآداب .

وقد كان عليه أن يرفض نظر المسالة رفضا لولا أخذ بلطف فنظر فيها نظراً وديا دل عليه بيان سكرتير المجلس الذى قال فيه أن إجتماع الدكتود والأستاذ كان (لديه) اى أنه لم يأخذ صفة رسمية .

وا كتفى الشيخ مهدى من الدكتور طه أن يعتذر له عما رآه هو ماسا بكرامته وأنتهت المسالة على ذلك كأنها لم تكن .

[عزيز علينا أن يكون أساتذتنا الذين يشغلون أكبر المراكز العلمية فى مصر على هذه القناعة التى يتحلى بها الشيخ مهدى. لقد نسب الدكتور طه إليك الخطأ والقصور

العلمى فيما ألقيت على طلبة الجامعة فهو بهذا ينسب إليك إهانة العلم ، فإما أن يكون قوله حقا فواجب عليك كما يقول صديقنا (م) أن تعتذر عن هذه الإهانة ، وإما أن يكون الدكتور طه مخطئا فواجب عليك أن تبين خطأه .

وقال عبد الحميد حمدى : إن نقد طه للشيخ المهدى نقد علمى خالص ، وإن كان قد وضعه فى قالب مر على نفوس قوم لم يتعودوا أن تقابل أقوالهم خطأ كانت أو صوابا ، بمثير التصفيق الحار . وقال الشيخ المهدى إن طه عزا إليه مالم يقل .

وأشارت « السفور » إلى أن الشيخ المهدى طلب إلى مجلس الجامعة أن تقسو عند توقيع العقاب عن هذا الجرم الشنيع فيشطب اسم الشيخ طه من قائمة متخرجى الجامعة الذين يتعلمون على حسابها فى فرنسا ، ودافعت الصحف الفرنسية فى القاهرة عن طه حسين فكتبت (الجرنال دى كير) تقول الشيخ طه أزهرى متقدم ، وظاهر أن فكرا واسعاً محبا للتقدم كهذا الفكر ، لا يطيق مثل طريقة الشيخ محمد المهدى فى التدرس وما فيها من عوج ، مهما كان لهذا الأستاذ من مقام ، ونأمل أن يكون للدرس الذى أعطاه هذا التلميذ لأستاذه القديم مفيدا للشيخ المهدى ومفيدا لغيره .

وقد مرت عشر سنوات ثم توفى الشيخ المهدى عام ١٩٢٤ فرثاه طه حسين فى السياسة اليومية وتحدث عن اصطدامه معه : قال :

كثير من تلاميذ الشيخ مهدى يتحدثون فيما بينهم أن الأستاذ لقى فى يوم من أيام الحر رجلا من الذين يبيعون الشراب فى شوارع المدينة ، وكان ظمئاً فأراد أن يشرب ، وأن يشرب مزيجاً من الخروب وعرق السوس ، فطلب إلى الرجل كوباً من الخرسوس . فوجم الرجل لأنه لم يعرف هذا اللفظ . فقال الأستاذ عجيب ! ما تعرف الخرسوس إنه منحوت من الخروب وعرق السوس »

وما أنسى قوله لى كلما قدم إلى سيجارة وهم بإشعالها : « انتظر حتى ألعها لك » .

* * *

كنت أكتب قبل الحرب مقالات فى الجريدة عن الآداب العربية وكنت أذكر

مدرسة الآداب أريد بها شيوخ الأدب في مصر ومنهم الشيخ مهدى ، وكنت أناقشهم وأنكر عليهم بعض أحكامهم . فكان الأستاذ شديد التبرم بمدرسة الآداب هذه ولا يترك فرصة تعرض في درس من درس في الجامعة دون أن يسخر من مدرسة الآداب ومخترع مدرسة الآداب . وكنت أسمع ذلك فابتسم .

والشيخ مهدى سريع الغضب سريع الرضا وكان غضبه حلواً ، حتى أن تلاميذه في دار العلوم والقضاء والجامعة كانوا يتعمدون إغضابه لأن غضبه كان يلذهم، ثم كانوا إذا أغضبوه وأرضوا من غضبه لذتهم أرضوه فرضى ، وكان عذب الرضا .

ولقد أذكر أنى كنت أثقل التلاميذ عليه في الجامعة فما كنت أترك له درساً دون أن أغاضبه مناقشة وأتغالى في المناقشة حتى إذا بلغ الغضب أقصاه سكت عنه وأنهى الدرس، فذهبت إليه فما يكاد يمد إلى يده حتى أقبلها راضياً ضاحكا ، وقد نسى كل شيء .

ولست أعرف تلميذا كان أثقل على أستاذه وأقسى منى على الأستاذ الشيخ مهدى ، ولكنى لا أظن أن من تلاميذ الأستاذ من أحبه حبي إياه : كنت قاسيا وكان ، قاسيا أيضا ، ظهرت هذه القسوة المتناهية ، إن صح هذا التعبير ، عنيفة مرتين ، الأولى عندما كنت أضع كتاب أبى العلاء وأتقدم لامتحان الدكتوراه في الجامعة المصرية ، وكنت قد سمعت له درسا في شعر أبي العلاء ، ووقع بيني وبينه خلاف في رأى أبى العلاء في البعث .

زعمت شيئاً وأنكره وطالبنى الدليل ولم يحضرنى الدليل في الدرس ، فظهرت مظهر المنهزم وسره ذلك وظهر سروره فحفظتها في نفسى ومضيت في تأليف الكتاب، حتى إذا وصلت إلى رأى أبى العلاء في البعث ، تناولت هذا الرأى فذكرت ما كان بيني وبينه من خلاف ، وذكرت ذلك في لفظ لا يخلو من الفخر القاسى ، ثم انتصرت عليه ولم أنتصر في رفق ، وكنت أعلم أنه سيقرأ هذا الكتاب وسيكون عضوا في لجنة الامتحان ، وكنت أعرف قسوته وغضبه ولكنى مضيت ، وقدمت الكتاب وجاء يوم الامتحان وكان يوما مشهوداً ولعل الذين حضروا الامتحان وكانوا كثيرين جدا يذكرون أنى أمضيت في هذا الامتحان ثلاث ساعات ذهب أكثرها في جدل

عنيف بين الأستاذ الشيخ مهدى وبينى حتى أنكر الجمهور ذلك وسئمه.

* * *

أما المرة الثانية فقد كانت خطرة بل خطرة جدا ، عدت من أوربا بعد أن مكثت فيها أشهراً من سنة ١٩١٥ فذهبت إلى درس الأستاذ وكنت قد اختلفت فى فرنسا إلى دروس أساتذة الفرنسية .

فقارنت بين درس الأستاذ وبين ما رأيت فى فرنسا ولم تكن المقارنة مرضية ، ولكنى نشرت هذه المقارنة فى صحيفة أسبوعية هى جريدة السفور فلم يكن يقرأها الأستاذ حتى ملكه سخط لا حد له ، وحتى أراد أن ينتقم فشكانى إلى مجلس إدارة الجامعة وكنا نتأهب للعودة إلى أوربا ، وكان من الممكن جدا أن يوفق الأستاذ إلى حرمانى من هذه العودة .

وكان أن المرحوم علوى باشا دعانى ذات صباح إلى الجامعة فذهبت حتى إذا دخلت عليه استقبلنى استقبالا شيئاً جدا، وكان شديد الحب لى والعطف على وقال : ماذا كتبت عن أستاذك الشيخ مهدى ؟ فقلت : كتبت رأى فى درس من دروسه ، قال : فى عنف ولكنك تجاوزت مع أستاذك حد الأدب ، اذهب فاعتذر إليه ، وإلا فان الجامعة لن ترضى منك هذا ، وستكون عاقبة هذا الموقف سيئة جداً ، فأجبته بأنى ما كنت لأعتذر عن رأى أراه ، وانصرفت غاضبا ، ولكن علوى باشا طلب إلى الأستاذ على بهجت أن يجمع بينى وبين الشيخ مهدى ويجتهد فى الإصلاح بيننا وجمعنا بهجت به فى دار الآثار العربية ، وما كان أيسر الصلح حين اجتمعنا . وانتهى هذا الخصام كما كان ينتهى بدعوة إلى الطعام .

* * *

ومن الأزهر خرج مصطفى لطفى «المنفلوطى» قبل أن يتم دراسته ، وقد فرض نفسه بأسلوبه الرائع فى مقالاته التى كان ينشرها فى «المؤيد» سنة ١٩١١ ،ولا يذكر المنفلوطى إلا ونذكر له مشاغبة كبرى هزت الدنيا ، تلك هى اشتراكه فى إنشاء قصيدة «قدوم» هذه القصيدة التى ظهرت فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٩٧ على صدر جريدة الصاعقة التى كان يصدرها (أحمد فؤاد) فى يوم عودة الخديو من مصيفه فى الآستانة.

وفى مطلعها هذه الأبيات :

قـدوم ولـكن لا أقول سعيد ... وملك وإن طال المدى سيبيد
تذكرنا رؤياك أيام أنزلت ... علينا خطوب من جدودك سود
رمتنا بكم مقـدونيا فأصابنا ... مصوب بسهم بالبـلاد شديد

أى إن قال :

كأنى بقصر الملك أصبح بائدا ... من الظـلم والظلم المبين مبيـــد
ويندب فى أطلاله اليوم ناعبا ... له عنـد ترديد الرثاء نشيـد

* * *

وقد هزت القصيدة دوائر القصر والاستعمار فى مصر واتهم « السيد توفيق البـكرى » بأنه محرض المنفلوطي على نظم القصيدة وإن له مشاركة فيها ، ووقفت الصحف موقفين مختلفين ؛ موقف الخصومة للمنفلوطى والبـكرى والحملة عليهم وتمثله جريدة مقطم ، وموقف الدفاع وتمثله جريدة المقطم وهذه صورة موجزه لهذين الموقفين .

* * *

قالت جريدة مقطم فى عدد (١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٧) تحت عنوان

(١) المعتوه أحمد فؤاد الملقب برجل من القش

أحمد فؤاد هو ذلك الابله الخبيث الذى كان يصدر وريقة تتضمن أساليب السب والشتم فى الأكابر وذوى المقامات السامية مقابل أجرة زهيدة ممن تهمهم هاته المطاعن . وقد مضت شهور عديدة وهو فى عالم الخفاء ، ثم ظهر أخيراً بمظهر الطاعن على الجناب العالى فى قصيدة حقيرة نظمها شاب معروف يدعى الشيخ مصطفى المنفلوطى ، بإغراء اثنين من أعيان مصر وعلمائها وهما الشيخ توفيق البـكرى ومحرم شاهين ومشاركة أصحاب المقطم فى الإغراء والتحريض .

وقد هال رجال الحـكومة ذلك الطعن فأبدوا نشاطا غريباً لاستقصاء الحقيقة فعينوا أحد القضاة للتحقيق الذى لابد أن يكون الشيخ المنفلوطى قد اعترف فيه بأنه المنشىء للقصيدة بايعاز من السيد البـكرى فى مقابل مكافأة استلم (الرجل من

القش) جزءاً منها عن يد صاحب جريدة السلطنة فى قهوة بالقرب من مدرسة الفرير الكائنة بجوار سراى البكرى فى الخرنفش .

وسيقضى التحقيق إلى إشراك السيد البكرى من حيث أنه أراد بنشر القصيدة الهجو الانتقام من رجال المعية فى شخص الجناب الخديوى لكونهم لم يلحقوه فى زمرة العلماء الذين توجهوا إلى محطة العاصمة لاستقبال ذاته السنية يوم حضوره

٢ — السيد توفيق البكرى جريدة ممفيس فى ١٩ نوفمبر

اشتهر هذا الشيخ بكراهيته للجناب العالى ولاسيما منذ نزعت منه نقابة الأشراف ولهذا كانت الأفكار منذ ظهور قصيدة الهجو متجهة إلى أنه المنشىء لها باسم أحمد فؤاد الجاهل بالشعر والنثر حتى بالكتابة البسيطة ، أو الموعز لأحد الشعراء بنظمها باسم هذا الغر ، وقد أيد التحقيق هذه الظنون واعترف المتهمان مصطفى المنفلوطى ، وأحمد فؤاد ، الأول بأنه هو المنشىء للقصيدة عدا المطلع وبيتين فى وسطها ، ولكنه كان يأبى أن يقول إنهما للسيد البكرى كتمانا للسر الذى تعاهدا عليه ، والثانى أن السيد البكرى هو المغرى على إنشاء القصيدة وطبعها ، وإنما إذا تداخلت الحكومة فى المسئلة لا يعترف أبدا بما يوجب إدانة السيد لأنه وعده بتعيين محام للدفاع عنه وقت الحاجة وموافاته بالمأكل والمشرب والمال أثناء سجنه . ولقد أنكر السيد فى التحقيق معرفة المتهمين فأبرز الشيخ مصطفى (المنفلوطى) من جيبه مسودة قصيدة مدح فى الحضرة السلطانية تتضمن إصلاح خطأ مطبعى بخط يده ، وهى تدل على وجود الرابطة السابقة بينهما . فقال السيد (البكرى) : إن هذه المسودة لابد أن تكون قد سرقت من المطبعة بمعرفة الشيخ ، ثم أوعز إلى صاحب المطبعة أن يدعى هذا الادعاء إذا سئل فأبى وقد عرف بكل ذلك .

ومما تقدم جميعه يثبت ما للسيد البكرى من الضلعية ، فى حادثة الهجو وضرورة وقوعه تحت سيطرة العقاب .

ومن الغريب أن سيدا مثله كان ينبغى أن يكون قدوة فى مكارم الأخلاق ومثالا

للتقوى والهداية لما أسند إليه من الوظائف الخطيرة ، يثبت وجود العلاقة بينه وبين قوم مجرمين لانادى لهم غير أرصفة الطرقات العمومية ممن انتحلوا الصحافة فكانوا سببا فى سقوط شرفها بمصر .

(١) حادثة البكرى الأخيرة . . كانت صبغتها محلية محضة فى أول الأمر لتعلقها بأفراد دعاهم الفقر المدقع إلى التطاول على مقام الخديوية أملا فى نوال وعدهم به ذلك السيد ، فحولها المحتالون إلى أدوار انتهت بفصل النائب العمومى من مركزه وتعيين المستر كوربيت القاضى بالاستئناف مكانه .

أما سبب تدخل الانجليز فى هذه المسئلة فهو أنه لما ضبطت بعض الأوراق فى منزل السيد البكرى وجدت من بينها أوراق فاضحة تتعلق بورثة إبراهيم باشا حليم ، فأسرع بالتوجه إلى المستر سكون المستشار القضائى واستنجده فاستقدم جنابه حمد الله أمين النائب العمومى وسأله تغيير المحقق ، فقال حضرته إنه لايرى مسوغا لهذا التبديل مادام المحقق جاريا فى أعماله على القانون ، ولما طال الجدل بينهما على غير طائل ، انتصب المستر سكوت قائما وقال : إذا نحن غير متفقين .

ثم أسرع إلى اللورد كرومر فأخبره بالحال .

☆ ☆ ☆

أما موقف جريدة المقطم فكان على هذه الصورة

١ — قصيدة الهجو : يوم ١٣ نوفمبر ١٨٩٧ .

لم يكن يبقى للناس حديث اليوم إلا حديث القصيدة التى هجيت بها الحضرة الفخيمة الخديوية ، والغريب أن الاهتمام بها لايزال يزيد يوما فيوما ، عوضا عن أن يكون قد صرف إلى غيرها . وأغرب من ذلك أن اهتمام الناس بمعرفة ما ظهر من تحقيق هذه القضية كاهتمامهم بمعرفة الأنباء العظيمة .

والذى يقال من هذا القبيل شىء كثير لا يعرف صحيحه من فاسده فلا فائدة من نشره ولكن الأمر الذى اتضح الآن ولا شبهة فى صحته ، هو أن المعية السنية علمت

---

(١) جريدة ممفيس ٢٢ نوفمبر ١٨٩٧ .

بهذه القصيدة قبل طبعها فلم تبال بها وإلا اهتمت بأمرها ، ولاسعت فى منع طبعها، بل تركتها حتى طبعت ووزعت ، ثم أقامت القيامة عليها ، ولا ندرى ما قصدها من ذلك .

وظهر من التحقيق أن أحمد فؤاد قال إنه هو ناظم هذه القصيدة وطابعها ، وليس له شريك فيها ، وأنه كان ينوى أن يكتفى بطبعة واحدة ، بل يكرر طبعها ثانية وثالثة ليعم نشرها بين الجمهور .

وقال إن المطبعة التى طبعتها هى مطبعة الشيخ محمد الخيامى ، وقد أقر الخيامى بذلك .

وقال أحمد فؤاد إنه يقيم مع الشيخ محمد توفيق الأزهرى وأنه يتعيش من جريدة الصاعقة ، وأنكر الشيخ الأزهرى أنه يقيم معه ، ولكنه مرافق لرجل آخر هو الشيخ مصطفى لطفى وتبين أن الشيخ المذكور كان معه فى مطبعة الخيامى لما ذهب إليه لطبع القصيدة ، وأنه أصلح بعض أبياتها .

وقال أحمد فؤاد فى اليوم التالى الشيخ على يوسف صاحب المؤيد هو الذى نظم القصيدة وطلب منى أن أطبعها وأنشرها ، وقال لى : إذا سئلت عنها فأتهم بها أصحاب المقطم وحسن موسى العقاد .

٢ ــ قصيدة الهجو : ١٥ نوفمبر ١٨٩٧

استدعت النيابة الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى وسألته فاعترف بأنه هو الذى نظم القصيدة وادعى أن سماحة السيد البكرى لما قرأ القصيدتين اللتين نظمهما فعلا فى ذم الاحتلال وذم المقطم تحت اسم عدو الاحتلال . أرسل أحمد فؤاد ليستدعيه إليه وطلب منه أن ينظم قصيدة يهجو بها الجناب العالى ونظم له صدر مطلعها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد

ووعده بجائزة عشرة جنيهات فنظم القصيدة وعرضها على سماحه السيد البكرى فاستحسنها وزاد عليها بيتين هما :

أعباس ترجو أن تكون خليفة
كما ود آباء ورام جدود

فيا ليت دنيانا تزول وليتنا
نكون ببطن الأرض حين تسود

ولم يكن أحد يتصور أن هذه القصيدة التى لم يكن أحد يشتريها بأربع بارات قبلا تطلب الآن بأربع فرنكات وخمسة ولا توجد ، والنساخ يشتغلون الآن بنسخها عشرات إن لم نقل مئات ، فلو كان ناظمها من أصحاب التدين والدراية لكسب منها مالا طائلا لا محالة .

ولو تصرف أولو الشأن تصرف المحتلين وأحلوا هذه القصيدة محل الهزء والازدراء لعدها الجميع من القول الهراء ولم يعبأ بها أحد .

٣ — قصيدة الهجو : ١٦ نوفمبر ١٨٩٧

قال السيد البكرى فى التحقيق : إن هذا هزء وسخرية بالناس ودسيسة لفقت على تلفيقا سخيفا ، أما أنا فلا أعرف المتهمين ، فاستدعى الشيخ المنفلوطى ، وسئل عن ذلك فاعترف بأنه لم ير سماحة البكرى قط . وقال أحمد فؤاد : إنه رآه مرة منذ خمسة أشهر ، ثم لم يره بعد تلك المرة إلا المرة الأخيرة التى كلفه فيها بنظم القصيدة .

وقال السيد البكرى : « إنه لا يتصور مجنون فضلا عن عاقل أن صعلوكا مثل هذا يعرف بأنه لم يرنى إلا مرة واحدة ، وصفته أنه يملأ الجرائد كل يوم بقوله إن الباشا فلانا أعطانى كذا لأشتم فلانا والآخر أغرانى بكذا لأطعن على فلان ، ثم أكلفه عملا رسميا هو الجناية الكبرى على أمير البلاد ، وهذا الإقدام على ذلك الأمر الفظيع هو لمجرد نظم قصيدة ، مع أن نظم الشعر أسهل شىء على وعندى من الأصدقاء الأخصاء أكثر من عشرين يقولونه .

وما المعنى من نظمى شعراً وبيتين فى قصيدة ، ثم أستعين بأجنبى لا أعرفه ولا يعرفنى على إتمامها » .

ومن هذا يتضح أن سماحة السيد البكرى أبطل دعاوى المتهمين إبطالا وترك أقوالهما هباء منثورا .

٤ — استعفاء النائب العمومى : ١٩ نوفمبر ١٧٩٨

« الشائع أن السبب فى استعفاء النائب العمومى هو الخروج عن الأصول ابتغاء زج السيد البكرى بين المتهمين فى هذه القضية .

وأن الغرض من قصة الهجو هذه هو إما الضغن على أوراق السيد البكرى أو الحط من كرامته أمام العامة وقد انعكس القصد وانقلب الأمر ..

وعلمنا الله اليوم أن السبب فى ذلك هو خروج وكيل النيابة عن الأصول القانونية ودخوله إلى منزل السيد البكرى وضبطه أوراقا لا علاقة لها بالقضية .

لذلك ولما ذكرناه من الأمور التى أوجبت مظنة الايعاز فصلت النظارة « حمد الله » عن النيابة فصلا ، وعينت كوربت بك نائبا عموميا مكانه ، لأن الذين احتلوا هذا القطر ليرفعوا راية العدالة ويؤيدوا صولة القانون لا يسمحون لأحد أن يخالف القانون .

وعندنا أن الذنب فى ذلك هو على المعية دون سواها ، لأن مساعيها هى التى أوقعت حمد الله فى ورطة اضطر معها إلى واحد من أمرين ، أما إسخاط أميره ، وإما الجرى على الخطة المخالفة للقانون ، ففر من الأمر الأول ووقع تحت طائلة الأمر الثانى .

وكان وقوعه هذا هو السبب فى استلام المحتلين زمام النيابة العمومية » اهـ .

* * *

وإذا كان للحديث بقية ، فإن السلطة الفعلية وهى الاحتلال انتصرت على السلطة الشرعية ، وهى القصر ، وحوكم المنفلوطى وأحمد فؤاد وسجنا ، ولم يتعرض أحد للسيد توفيق البكرى .

وقد كان لهذه القصيدة رنة كبرى وصدى لا حد له فقد طبعت وأذيعت ونشرت في كل مكان ، بل إن سركيس نشرها في مجلته بطريقة بارعة إذ شطرها الشاعر عثمان الموصلي بطريقة الهجو والرد عليها على هذا النحو :

(قدوم ولكن لا أقول سعيد) على فاجر هجو الملوك يريد
لإضرابه بيت من اللؤم عامر (وملك وإن طال المدى سيبيد)

وفهم الناس أن المقصود هو نشر ما بين الأقواس وهو نص القصيدة الأصلية .

* * *

ومن ذكريات الجامعة القديمة هذا الثالوث الذي جمعه الشعر والأدب والثورة ، في أول الشباب : كامل كيلاني وزكي مبارك وسيد إبراهيم ، كانوا يعيشون في ظل ثورة ١٩١٩ في إحدى عطفات القلعة ، ومضى كامل كيلاني ومن قبل زكي مبارك . وبقي سيد إبراهيم أبرز كتاب الخط العربي في العصر الحديث يحمل تاريخاً طويلاً وذكريات لاحصر لها .. ليس مجاله الخط وحده ، ولكنه الشعر والأدب وسمر المجالس . ولقد كان سيد إبراهيم وكامل كيلاني يمثلان صداقة ممتدة عاشت على الزمن رغم اختلاف المشارب ورغم الأحداث ، وهي صورة رائعة أشد ضياء من صداقة العقاد والمازني ، أو الزيات وطه حسين .

وتجد عند سيد إبراهيم روح الكيلاني ، أوهي روحهما معا : الإعجاب بالمعري الشاعر الأشهر ، واستشهادهما بشعره في كل مناسبة ، يقول : كنت « فرامل » كامل كيلاني ، إنه يندفع وأنا أكبح جماحه .

ولقد أحب كامل كيلاني الشاعر شوقي ، وكان شوقي يسعد به ويسر كثيراً ، ومما يرويه سيد إبراهيم كيف كان شوقي يغضب من نسبته إلى حافظ : ويقول : لماذا يقرونني به هكذا دائماً : حافظ وشوقي ، شوقي وحافظ .

وانبرى كامل كيلاني يقول : إن هذا هو الصحيح ، وهو الواقع !

وقال شوقي : كيف ؟

قال: لأنهم يعرفون النهار بالليل والأبيض والأسود والسماء بالأرض. فسرى عن شوقى. وقال سيد إبرهيم: إن شوقى كان يطمع فى لقب باشا ويراه حلماً يملك عليه نفسه.

وحدثنى سيد إبراهيم عن طفولة الأصدقاء الثلاثة : زكى مبارك ، والكيلانى وسيد إبراهيم فى حى القلعة خلال ثورة ١٩١٩ وكيف أمضوا أسبوعاً فى سنتريس .

وتحدث كيف اتصلوا بالجامعة المصرية القديمة ؛ ومعهم عبد الوهاب عزام ، كامل كيلانى ، سيد إبراهيم ، زكى مبارك ، عبد الله القلقيلى ، وكان العقاد يحضر من باب العلم ، وكيف قدم سعد زغلول الدكتور أحمد ضيف فى أول محاضرة ، وجاء وحدث أثناء الدراسة بالجامعة القديمة أن أحد المستشرقين كان يتكلم عن الفريد دى فينى ، ويقول إنه كان مغموراً ، وأضاف صورة للشعر الفرنسى كثيفة فى سجل الخالدين، وأن له عبارة ما أظن أن أديباً فى العالم أشار إليها وهى أن الحياة جسر بين موتين . وكنا نقرأ اللزوميات ، وقال كامل إن هذه الصورة لدى فينى ميتة ، ليس فيها حركة ، أما فى الشعر العربى فللدنيا صورة أروع كثيراً . وهى التى نظمها أبو العلائى المعرى :

حياة كجسر بين موتين أول وثان وفقد الشخص أن يعبر الجسر

وأن أبو العلاء قال ذلك قبل الفريد دى فينى بستمائة سنة فقط .

قال المستشرق : أنا لا أعرف أبو العلاء ..

فقلنا فى صوت واحد : ونحن لا نعرف الفريد دى فينى .

ويقول سيد إبراهيم : إنهم كانوا يطالعون كل شىء ، حتى الورق القديم البالى ، وفى ذات مرة جىء لنا بورق تحمى به الفرن ، فوقع فى يدى ملزمة ، جاء فى أولها هذا البيت :

فلو سمح الزمان بها لضنت ولو سمحت لضن بها الزمان

وقد عرفت من بعد أن هذا أول شعر وقع عليه نظرى لأبى العلاء ، بل هو أول شعر قرأته فى مستهل حياتى الأدبية ، ولم ألبث حتى وقعت فى يدى أبيات مختارة من لزومياته : ولشد ما دهشت حين لم أجد فى شعر صاحبها قدحاً أو ذماً كما عودنا

شعراء محدثين وقدماء، فقد وجدت فى اللزوميات رجلا لا يعدو الحقيقة فى كل مايقول : ووجدت نفس الشعور من كامل كيلانى ، وجدته معجباً باللزوميات وبالمعرى مما ضاعف إعجابنا معاً بهذا العبقرى الفذ ، فكنا نقرأه معا وعلى انفراد ، وأصبح أبو العلاء يملك علينا كل مشاعرنا ، فى كل مجلس تذكر اسمه وتتغنى بأبياته ، ونستشهد بها فى كل مناسبة ، وأمام أى شخص أديباً كان أو غير أديب ، وظل شبح أبو العلاء يعايشنا حتى كنا نراه فى المنام ونحدثه ونستمع إلى شعره .

ولقد بلغ بنا الأمر أننا ربما سهرنا ليلة كاملة لتحقيق بيت من الشعر .

ومن الأساتذة الذين صاولونا فى الجامعة القديمة ، « ولفنسون » الذى قال أن القرآن غير معجز ، وتصدى له كامل كيلانى وقال :

إن المسألة فى غاية البساطة : اقرأ « يوم نقول لجهنم هل امتلأت ، وتقول هل من مزيد » وما أظن أن إعجازا يبلغ مثل هذا القدر من الإيجاز والبلاغة .

وقال سيد إبراهيم إنه بدأ كتابة الخط وهو صغير ، يقول : كنت أقوم بتزويق اللوح وكان أخى صاحب محل رخام ، فكنت أقف عنده ، ثم بدأت أكتب على الرخام قبل سنة ١٩١٩ ، وكم كتبت من إعلانات التياترات ، وهى التى أعطتنى الشهرة ، فقد كانت تعلق على الحوائط ، مسرحيات على الكسار ونجيب الريحانى ، ثم عملت فى التحضيرية بالسيدة زينب مع كامل كيلانى ، ثم فى مدرسة الخطوط الملكية ، فكلية دار العلوم .

١١

بين العمامة والقبعة

بين العامة والقبعة

ويتصل بالحديث عن المجتمع فيصل إلى قصة الزى : بين العامة والطربوش والقبعة .

فقد هبت ريح التغيير فى اتجاهين : اتجاه طلبة دار العلوم الذين تطلعوا إلى الطربوش ، واتجاه دعاة التجديد والحضارة الدين اتجهوا إلى خلع الطربوش ولبس القبعة ، وكانت معركة حامية استمرت تتجاوب أصداؤها فى الصحف شهورا . . . ولقد انتصر طلبة دار العلوم على العمامة وبقيت قصة الانتقال من الطربوش تتعثر .

ثم بدا اتجاه نحو استبدال العمامة فى الأزهر ، وبين رجاله وفى المجال العام ارتفع صوت الدكتور محمود عزمى فى الدعوه إلى استبدال الطربوش بالقبعة وقاد الحمله محاولا أن يكون هو رمز التجربة يقول :

جاءت الحرب الكبرى وأصيبت مصر منها بإعلان الحماية البريطانية فوجدنا طائفة من إخواننا الشرقيين يستبدلون القبعة بالطربوش هروباً من (العثمانية) وتقرباً من الدولة الحامية ، فكان من هذا أن ازداد تمسك المصريين بالطربوش يعلنون به دائماً استعدادهم لتحمُّل أكبر أنواع الأذىٰ فى سبيل رضاهم عن الحماية .

* * *

وقامت فى بلاد الشرق وثبات إلى الاستقلال والانطلاق من القيود ، ووسط هذه التيارات المقابلة أقبل صيف سنة ١٩٢٥ ، وكان على أن أمضيه فى القاهرة ، من أجل هذا اعتزمت أن أنفذ ما أنا مقتنع به من رأسى فى صدد المدنية العصرية وفى صدد القبعة .

ولكن الأخطاء الوراثية المتراكمة كان لها فى عزيمتى بعض الأثر ، فجعلتنى أجد من (حسن الفطن) ألا أفاجىء إخوانى وأصدقائى بما سأضع على رأسى فى مصر من

عمارة جديدة ،وأن أنذرهم قبل الموعد حتى لا ينقضوا على بالسؤال والاستفسار ، وإذن فقد حددت لنفسي اليوم الأول من شهر يوليو سنة ١٩٢٥ لألبس فيه القبعة وأخذت منذ العشرين من شهر يونية أعلن كل من أقابله من الإخوان والأصدقاء أني مغير لباس الرأس في أول الشهر ، وجاء أول الشهر وقصدت في حزم وهرولة إلى بائع القبعات في ميدان سوارس ، ولاحظت أن سرعة الخطى قد أخذت تقل عند ما اقتربت من الحانوت ، ولاحظت أن السير قد وقف بي عند باب الحانوت ، ولاحظت أني أخذت أنظر إلى القبعات المعروضة خلال الزجاج ، ولاحظت أني استأنفت سيري في شارع قصر النيل دون أن أشتري القبعة ودون أن أدخل حانوت القبعات ولاحظت أني أخذت أتهم نفسي في صوت غير خافت بأني (جبان) وبأن الأخطاء الوراثية لا تزال تجد مني منفذاً ومنيت نفسي بالعودة إلى الحانوت بعد الظهر ، لكني لم أعد إليه عاماً كاملاً .

* * *

ومضى الصيف ومضى الخريف ومضى الشتاء ومضى الربيع ،وأقبل الصيف من جديد ، صيف سنة ١٩٢٦ والمنافسة حول الطربوش والقبعة يتسع نطاقها حتى وصل إلى الرابطة الشرقية التي أرادت أن تتذرع بفتوى يصدرها الأطباء فتقدمت إلى جمعيتهم بأسئلة واستيضاحات انتهت الجمعية إلى الإجابة عنها في اجتماعها ٢ يوليو سنة ١٩٢٦ .

وقالت هيئة كبار الأطباء في فتواها إن الطربوش لباس غير صحي وأن للباس الصحي شروطاً عددتها وإذا بها متوفرة في القبعة وغير متوافرة إلا فيها ، وأعلنت الفتوى فكانت القاضية على أخطائي الوراثية من هذه الناحية ، إذ قصدت في صباح يوم الثالث من شهر يوليو سنة ١٩٢٦ إلى بائع القبعات نفسه واشتريت قبعة الصيف وخلعت على الحوذي ما كان على رأسي قبل هذا من طربوش ، ومنذ ذلك اليوم ألبس القبعة متناوباً أنواعها المتمشية مع كل فصول السنة ..

* * *

أما مصطفى صادق الرافعى فقد هاجم القبعة وقال : « يقولون إن الطربوش يونانى معرب ، فهو فى ألفاظ الحياة كالفاظ مثله فى اللغة ، وقد أصبح رمزاً من رموزنا ، فيه من ذلك قوة السر الخفى الذى يلهمنا .. أنا استمسك بالطربوش لأنى أريد الدقة فى التعبير الذى يعبر عن نفسى حين تعلن نسبتى وقوميتى » .

ومرت سنوات وأعاد توفيق الحكيم الصيحة على صفحات الأهرام :

« آن الأوان لأن نلبس القبعة » ووافقه إناس ، وهاجمه آخرون .

* * *

ثم جاء دور العمامة والهجوم عليها ، بدأ ذلك الهجوم من باريس على يد « الشيخ » على عبد الرازق ، وكان الشيخ طه حسين قد ألقى عمامته فى البحر على مرأى من الناس وهو مسافر إلى أوربا ، وتخلص منها زكى مبارك ، وأحمد أمين وكثيرون .

ولكن الشيخ على عبد الرازق الذى أخرجه من الأزهر من زمرة العلماء بعد إصدار كتابه (الإسلام وأصول الحكم) لم يلبث أن أثار ضجة حين أعلن « وداع العمامة »؛ قال :

للعمامة المثل الأعلى ، فقد يصاب المرء بضرس من أضراسه الغالية يأكله السوس فإذا هو عظم ناجز ، يتداعى له سائر البدن بالحمى والسهر ليس فى شفائه أمل ، وإلى أى إصلاح سبيل ، إلا أن ينزع نزعاً ويجتيث أصلاً وفرعاً .

فإذا ما عالجه الطبيب حتى انتزعه . ثم أفاق المريض ، ورأى ذلك الضرس مرمية أمام عينيه لم يستطع إلا أن يلقى عليه نظرة حسيرة فيها كثير من معانى العطف والوداع ، على رغم مالقى فى الخلاص منه من نعيم . وفى فراقه من سرور .

والعمامة كذلك جديرة أن تودع بكلمة ، وإن يكن المرحوم الشيخ محمد عبده يكره العمائم ويتشاءم منها .

وهب العمامة كما كان يراها الأستاذ الإمام نحساً وشؤماً ، وهبها قد صارت إلى شر حال وأصبح ذليلا مقامها الكريم ، هبها كانت تاج الملوك فأصبحت ميسم الأجراء والعبيد ، أفلم يكن لها أيام ميمونة النقيبة . وكانت طراز الوقت زينة فوق مفارق اللابسين .

وللعمامة بعد ذلك مقام عندى خاص ، فقد نشأت فى بيت له فى العمامة تاريخ قديم فهى طبعاً من الأعوام الأولى تراث كريم تحمله الأحيان المتعاقبة . وكذلك ورثت العمامة أبى عن أجدادى وكذلك لبستها تراثاً عن آبائى تليداً .

ولو استطعت أن أحفظ العمامة كما حفظها أجدادى ، حتى أورثها أبنائى وأحفادى لكان ذلك أحب إلى وأكرم ، ولكنى لا أطيق .

ليس يزهدنى فى العمامة أن يتغير الذوق فى الناس ، ولا يزهدنى أن تصدف عنها الغوانى ، وتوصد دونها الأبواب وتغص بها المجالس ، ويهزأ بها العامة ، ويفزع منها الأطفال ، وتضيق بها دواوين الحكومة ونوادى الكبراء وترفضها الفنادق والقهاوى .

ولكن يزهدنى فى العمامة ما هو شر من كل ذلك ، وشر من كل شر ..

إناس يا قومى حملوا العمائم ، ولم يكونوا لها أهلا ، فأضاعوا كرامتها لأنها ليست لهم كرامة . إنما صيعتها ، تلك الرءوس التى تحملها وليست لها موضعاً .

عزيزة أنت علينا أيتها العمامة وكريمة ، وأنت بيننا أثر غال ، وتراث عندنا حبيب ، وما كان للأثر الغالى أن يوضع جانباً لولا أناس من حملة العمائم .

كنت أيها العمامة تراثا كريما فصرت من أجلهم تراباً ، وكنت من قبلهم ماء عسير الورود ، فأمسيت من أجلهم ماء تجتنب وروده الأسود .

✡ ✡ ✡

أما الشيخ عبد العزيز البشرى فما ندرى ما سر حملته على العمامة إلا طابع « العصرية » ومرض إدعاء التجديد .

« ما أحسب أن سينقضى زمان طويل حتى تحتفل مصر بتشييع آخر عمامة كما احتفل فى لندن من بضع سنين ، على ما أذكر بتشييع آخر (عربة) ركوب

وتصبح هذه العمامة على تعاقب الأدهار تحفة تتبارى فى اقتنائها دور الآثار . وسبحان من له الدوام والقرار .

لقد كانت هذه العمامة ملبس الخلفاء والأمراء والصدور والوزراء ، والولاة وقادة الجند ، وظلت فى مصر إلى غاية ولاية محمد على الكبير وبعدها بزمن قصير ملبس كبار الأطباء والمهندسين وسواهم من قادة تلك النهضة العظيمة .

إذن : لقد كانت هذه العمامة تاجا على الهامة ، وشارة الإمامة والزعامة ، وإمارة الجاه والكرامة ، أما الآن فقد جعلت العمائم تتقاص وتنحسر عن الرءوس بشكل وبائى ، والعياذ بالله ، بحيث لا يمضى كما قلت طويل من الزمان حتى تصبح خبر كان .

لقد نضا أساتذة العربية فى المدارس عمائمهم ، ومن بضع سنين ثار طلبة مدرسة دار العلوم بالعمامة ، وأرادوا اتخاذ الطربوش فحاول وزير المعارف يومئذ ردهم ، ولكن ماعتم التيار أن جرفها جرفا ، ولم يجد لها فى دار العلوم نحواً ولاصرفاً .

ومهما يكن من شىء فإنه لم يثبت على العمامة إلى الآن إذا استثنينا عدداً يسيرا إلا من تدعوه ضرورة إلى اتخاذها بحكم منصب أو نحوه ، فان التقاليد ما برحت ، والحمد لله ، تأبى على أستاذ العلوم الدينية فى الأزهر وملحقاته ، أن يتزيا بهذا الزى (الأفرنجى) .

على أن الثورة بالعمائم لم تكن وليدة هذه السنين القريبة ، فانى لأذكر أنه من نحو ثلاثين سنة تطربش بالفعل جماعة من أساتذة اللغة العربية فى المدارس تأسياً ببعض زملائهم الذين أكملوا علومهم فى بلاد الإنجليز ، فسرعان ما وردهم الطاغية دنلوب المستشار على عقبهم وأرجعهم سراعا إلى قفاطينهم وجببهم .

وكذلك نقلت طائفة من كتبة المحاكم الشرعية الكبرى يومئذ ، فأنذرهم القاضى يحيي بالفصل من الخدمة ، وأذكر أن المرحوم المويلحى أرسل يومئذ فى جريدته (مصباح الشرق) فى هذا الموضوع كلاما من أبدع الكلام .

ولا شك أن العلة الرئيسية فى هجر المعممين لزيهم ، هى أن الجمهور أصبح

يتهاون بشأن العمائم ويضع من شأن أصحابها على وجه عام ، أن الأصل أن كل من يضع الطربوش ويتخذ (الجاكتة والبنطلون) هو رجل محترم يجب أن يدعى (بيه) حتى وعامل شباك التذاكر فى محطات السكة الحديد وفى التياترات ، ودور السينما والمحلات التجارية .

فإن كان الطربش أو البرنط قوبل بادىء الأمر بالاحترام ودعى (بيه) أو خواجا على حسب الأحوال ، وحينما وجد المعمم قيل له يا أستاذ أو يا مولانا أو يا سيدنا فى لهجة تنم على التهاون والازدراء حتى يظهر شأنه ، وأى المعممين هذا الذى عنده الاستعداد الكافى لأن يسعى فى الطرق أو يمضى لقضاء حوائجه ، وعن يمينه محام وعن يساره محام يترافعان معا عامة الوقت فى أن صاحبهما محترم ، غير جدير من الجمهور بالاحتقار .

اللهم إنه من أشد الإعنات والإرهاق أن نجشم الشيخ المعمم شيئا من هذا ليثبت لكل غاد ورائح ، وسانح وبارح ، أنه ليس من جماعة الحانوتية أو ممن يمشون بين أيدى الجنائز باسم البردة أو اليمنية أو أنه ممن يغدون للقراءة على الترب ، كلما بزغ النجم أو غرب .

وينقد « فكرى أباظه » تحول الطلاب من العمامة إلى الطربوش . فى كلمات ساخرة :

« تعالى نحدق ونحملق فى ذلك الطالب الصعيدى التحف الذى أبى إلا أن يقلد الخواجات فطرح الطربوش وزر الطربوش ووضع على رأسه البرنيطة والكسكتة هل نفرق بين بائعى الاسفنج وماسحى الأحذية من الأرمن وجرسونات القهاوى بعد التشطيب وبائعى اليانصيب .

ثم انظر إليه وقد أبت سليقته وطبعه وخلقه إلا أن يزحلقها كما يزحلق الطربوش فظهرت من تحت حوافيها العصبية البلدى البولاقى » .

فإن لم تعجبك هذه التعليقة فتعال أفرجك على أستاذ من طلبة دار العلوم هجر الجبة والقفطان والمركوب والعمة ودخل فى البنطلون واحتل الطربوش رأسه

الزلطه نمره ١ ، واختفت ربطة المصباغ داخل الياقة الواسعة فإذا سار هرول وإذا أكل شمر وإذا شرب مصمص وإذا جلس جلس القرفصاء ، وإذا ذهب ذى الناس احتاس ، انظر بالله كيف طغى سيل التحقين على الأفراح والليالى الملاح ، فحل البوفيه البارد محل « السفر » وأخذ الـكشك إلماظ السمج الثقيل محل الدمعه الطحمه والباميه المرصوصه .

وقضت الشوكة والسكين على سنى عالم السقسقة والتغميس ووجب على المعازيم الـكرام أن يأكلوا وقوفا على الأقدام ، وإذا لم يكفك هـذا من سخافات التقليد فتعال إجلس مع أصدقائك المصريين القادمين حديثا من انكلترا وانظر كيف يتكلفون الجلسة والنغمة ، وكيف يطلبون الشاى فى الميعاد ، وكيف يكتفون بوضع قطعة سكر واحدة فى الفنجان واقسم لك بكل عزيز أنهم يكرهون الشاى ويودون لو شحنوا الفنجان بقطع السكر التى أمامهم لولا الملامة .

* * *

ولا تمضى قصة الطربوش دون أن نذكر « طربوش دنلوب » .

ودنلوب هذا هو مستشار وزارة المعارف فى إبان الاحتلال ، وصاحب الصوت المدوى فى محاربه اللغة العربية وتغليب اللغة الانجليزية عليها فى مختلف برامج التعليم وقد كان عسوفا عنيفا حتى أنه كان أحيانا يرسل خادمه الخاص « الجاويش محمد على » إلى طنطا يحمل علبة طربوشه ، فلا يـكاد يظهر فى المدرسة حتى يأخذها من ناظرها إلى خادمها رعشة ، هـذا يجرى هنا وذاك يجرى هناك ، ولا يسمع إلا همس الجميع « جناب المستشار » ؟

والـكل يرتعد فرقا فى انتظار وصول جناب المستشار ، ويتلقى الجاويش محمد الأمر بالانتقال من طنطا إلى الزقازيق وفيها تتـكرر الرواية بعينها ، ومن الغريب أن دنلوب كان يكرر تمثيل هذه الرواية ، والنظار ما كانوا يجرءون مرة على التجلد لمحمد على وطربوشه ، بل كانوا فى كل مرة أشد رعبا منهم فى سابقتها .

مراجع الفصل

السياسة اليومية — نوفمبر ١٩٢٦ (على عبد الرازق) .

المصور — إبريل مايو ١٩٣٥ (عبد العزيز البشرى) .

البلاغ — أكتوبر ١٩٣٢ (طربوش دنلوب) .

الهلال — م ١٩٢٦ .

١٢

صيحات ضد المسكرات والبغاء

صيحات ضد المسكرات والبغاء

واجه المجتمع نماذج فذة ، حملت لواء الدعوة إلى الإصلاح ، فى مجالات مختلفة من أبرز هذه النماذج « الدكتور غلوش » داعية محاربة المسكرات منذ عام ١٩٠٥ فى الاسكندرية ثم فى القاهرة .

وقد أحرز الدكتور غلوش أرقى الدراسات فى عصره فعاد من انجلترا عام ١٩١٣ وهو يحمل شهادة جامعة لندن ، ثم لم يلبث أن حصل على دكتوراه فى الفلسفة من جامعة بروكسل فى موضوع « التصوف فى الاسلام » عام ١٩٢٨ كما أحرز دكتوراه فى الأدب من جامعة بوسطن ١٩٣٠ وكان قد تخرج فى مدرسة المعلمين العليا ، وكان جل عمله فى مجال الترجمة بوزارة الاشغال وإنشاء جمعية منع المسكرات فى الاسكندرية عام ١٩٠٥ فى أشد أوقات الاستعمار حرجا وشدة . ثم نقلها إلى القاهرة من بعده .

ولقد عاشت الصحف تروى قصصه وأحاديثه وتنشر صورة ، تقول مجلة ما « جلس الدكتور علوش بين قراءات البوظه حيث ألقى على ذبائنها درسا بأنها محرمه ، وأجرى تجربة فى إحدى الحانات حيث وضع قطعة من السكر فى كوب الماء فذابت ، ثم وضع قطعة أخرى فى كأس الخمر فلم تذب » .

يقول الدكتور غلوش. عملت منذ الشباب على محاربة الخمور وكان لتأليف الجمعية ضجة وكانت الأنظار تتجه إلى أينما سرت وكان الناس يقولون : هذا هو الشاب المعتوه المدخول العقل .. كانت البلاد فى ظل النفوذ البريطانى قد أخذت البلاد تستورد مقادير من الخمر بكميات تزيد عاما بعد عام ، بقدر تزايد الوافدين اليها من الأجانب

حتى إذا كان عام ١٩١١ جاء لزيارة مصر مستر روبرتسون عضو البرلمان

البريطانى وكان وكيلا لوزارة التجارة فى انجلترا وذهبت لمقابلته فى نفر من شباب جمعية المسكرات وشرحنا له ما أدى إليه انتشار الخمر فى بلادنا فى عهد الاحتلال البريطانى من انحلال فى الأخلاق وتشجيع على الإجرام وطلبنا منه أن يساعدنا على لفت الأنظار فى بلاده إلى ما سوف تحدثه هذه المسألة من تسوىء سمعة رجال الاحتلال البريطانى فى بطون التاريخ ، فكتب مقالا شائقا فى جريدة الديلى كورنيكل (٥ مايو ١٩١١) كان من نتائجه أن السلطات الانجليزية فى مصر لم تعد تتساهل فى منح رخص لحانات جديدة فى الأحياء الوطنية أو التغاضى عن فتح حانات جديدة بدون رخصة فى الأحياء الأوربية وكان اللورد كتشنر قد سجل فى تقريره السنوى أنه لم يمنح رخصة جديدة فى هذا العام سوى ١١ رخصة تقابلها ١٣ رخصة عام ١٩٠٢ :

وظل أملى معلقا بالحكومات المتوالية لإصدار تشريع بتحريم تناول المسكرات فصدر تشريع يقضى بمنع بيع الخمر وتقديمها ونزع حماية القانون عن الاتجار فيها عام ١٩٣٠ .

ولما كان منع استيراد الخمور يفقد خزانة الدولة مالا يقل عن ٤٠٠ ألف جنيه فى العام .

ونسبة المدمنين عندنا تختلف عن نسبه المدمنين فى الأمم الغربية، فهناك تصل إلى ٨٠ أو ٩٠ فى المائة بينما عندنا لا تصل إلى ٧ أو ٨ فى المائة . وأن الأصل فى مصر تحريم المسكرات وأن إباحتها أمر طارىء عليها بينما الأصل فى الأمم الغربيه إباحة المسكرات وان تحريمها أمر طارىء . .

وقد حققت المؤتمرات التى حضرتها هولندا ١٩١١ و بلجيكا ١٩٢٨ ، وفنلندا ١٩٣٠ نتائج تضعف من مكانة الخمر فى نفوس شاربيها . فقد أشار مؤتمر بلجيكا ١٩٢٨ أن الطبيب الذى يصف للمريض شرب الخمر كعلاج من أى مرض إنما يعد طبيبا متاخرا فى فئة بضعة عشر عاما .

أما مؤتمر فنلندا ١٩٣٩ ، فقد قرر أن الخمر لا تدفىء الأجسام ، ولا تنفع فى مدافعة البرد ولا تفيد الجسم من ناحية الوقاية المزعومة فى بعض الأمراض . بل أنها

تضعف مقاومة الجسم لدواعى المرض وتقلل من حرارته الطبيعية .

وقد أمكن بالجهود المتواصلة زيادة الضريبة الجمركية على الخمور تدريجيا من ٨ فى المائة إلى ٢٠ فى المائة ، وبالمساعى منعت مصلحة السكة الحديد الاعلان عن الخمور فى المحطات .

* * *

ويقول : إن الذى لفت نظرى إلى الدعوة إلى محاربة المسكرات وجود جمعية فى انجلترا ، أشبه بالجمعيات السرية ، فأصبحت عضوا فيها ، وكل من ينضم يقسم على أن ألا يشرب الخمر ويدعو غيره ألا يشربها ، فلما عدت كنت أجلس فى المقاهى ، والبارات ، وأتحدث إلى من يشربون ، وربما آكلت معهم الفسدق والمزة ..

وفى أوربا كنت حاضرا دائما لأتكلم عن رأى الإسلام فى الخمر وما كان يقوله الباحثون من الأطباء فى ساعة ونصف ، كان الحديث النبوى يصوره فى كلمات بليغة قليلة أسرة تدهش كل من يسمعها فيلتفون حولى ويسألوننى فأقول لهم إنه الإسلام وفى الباخرة كنت أدخل حجرة الطعام فأرى الأكواب فأتحدث إلى الناس حتى ترفع ، وفى المطاعم فى أوربا ، وفى باريس .

وكان الأوربيون يتعللون دائما بأن الخمر يدفىء ، وقد استطعت أن أقنعهم بأن الخمر تخفض حرارة الجسم ولا ترفعها ، حتى يكاد صاحبها يموت بردا ، لأنها تستنفذ كل حرارته ، ويقولون : إنها للتداوى ، فأقول بصوتى العالى فى قلب أوربا « الخمر داء لا دواء » .

واستطعت أن أعمل حتى رفعت مخالفة فتح المحلات للخمور بدون رخصة ، كانت أيام كرومر غرامة خمس جنيهات فأصبحت خمسين جنيها .

وفى القاهرة وفى شارع خيرت بالذات بدأت أطارد أصحاب الخمارات ، وكانت هناك خمارة بجوار السيدة فى المنطقة التى تقع بينها وبين جامع الأنصارى ، وأسرعت إلى وزير الأوقاف واستطعت أن أغلقها .

وفى فترة الاحتلال كانت فى الحانات لا تعد ، ٤٠٠٠ حانة عام ١٩٠٨ ، ربما

عدد السكان لا يتجاوز ١٠ مليون ، وقد انخفضت من بعد إلى ألف حانه بفضل الدعوة إلى منع المسكرات .

وفي عام ١٩٣٠ وفي رأس البر ، دخلت فوجدت مجموعة من الأعلام ، وأمامهم الخمر ، وألقيت كاس الخمر في البحر .

وكنت أطارد أصحاب حانات الخمور ، كلما أغلقت حانة ، فتحوا غيرها فأذهب إلى المسئولين لأغلقها ، وطاردت صاحبة خمارة في شارع الشيخ ريحان ، امرأة يونانية فحولته إلى محل بقالة ، وكتبت على بابه :

« ادخلوها بسلام آمنين »

وذهبت إلى وكيل الداخلية ، وأمام المحافظة ، كانت هناك حانة مكتوب على بابها « قهوة وبار المحافظة » وقلت لشاهين باشا : أمام المحافظة !

وكتب أحدهم يقول إنها تنسى الهموم فرددت عليه « جبان من يقول هذا ، وينقص من قيمة العقل ، بدلا من أن يحل مشاكله . على ضوء العقل » .

* * *

وقد كان انتشار الخمور يجرى بإرادة الاحتلال وفي نفوذه : رسل باشا ، كان كونستبلا انجليزيا ظل يرتقى حتى أصبح محافظ العاصمة وعـاش يحـكم حتى ١٩٤٠ تقريبا .

واستطعنا أن نقنع جانا كليس بإعداد شراب التفاح والعنب ، وقدمناه في معرض ١٩٣٢ ، ودعونا الناس للشراب المحتفظ بخواص العنب العلاجية ، ..

ثم ذهبنا إلى مزارع جانا كليس ، وحللنا هذا الشراب فوجدنا به من ٣ إلى ٤ في المائة كحول . . .

وهاجمنا كل الأصناف : كينابسليرى والبيرة ، وأغرونى بالمغريات لأوقع على منشور بأنها ليست مسكرة ، وامتنعت رغم كل إغراء .

وكان عونى في خطواتى الأمير عمر طوسون ، الوحيد في أسرة محمد على الذى كان يحترم الوطنية والاسلام ..

وقد حوربت من الانجليز لموقفى من معركة الخمر ، واتخذونى عدوا لهم وكانوا يقولون لى : أترك المسكرات حتى نرقيك ، فأقول لهم : لن أتركها أبداً ، وأعيش فقيراً فى ظل عقيدتى ، ولقد كنت سببا فى إصلاح أسر ورد زوجات ، جاءت مرة امرأة من فضليات النساء والدموع فى عينيها ، قالت ابنى محمود ينفق ثلاثة جنيهات كل ليلة مع أصحاب السوء ، ويرجع مخموراً ، وذهبت إليه وسهرت معه ، واستطعت أن أحوله عن خطئه ، وقبل يدى ، وقال: إنى تبت على يديك ، وقد كان لى من بعد أتبع من ظل . . كان يرجع بيته مخموراً والفجر يؤذن ، فأصبح يخرج ليصلى الفجر .

* * *

وهكذا حدثنى الدكتور أحمد غلوش عن ذكرياته فقال إنه ولد فى الاسكندرية ، وكان والده من رجال البحر الأكفاء . وقد جمع الدكتور جمع بين التعليمين الدينى والمدنى ، وتفوق فى اللغة الإنجليزية حتى استطاع أن يحصل من جامعة مانشستر على دبلوم العلوم الفسيولوجية وعلى الدكتوراه من جامعة بروكسل .

كانت لحيته فى أوربا موضع تقدير ، وقد لفتت إليه الأنظار ، وكان يصلى فى كل مكان ، مهما كان غاصاً بالناس ، فكانوا يسألونه عن الإسلام .

وهذا ما حفزه إلى أن يؤلف كتابه (Religion of Aslam) كان مهمته الأساسية تحريم الخمور ، ولكنه استطاع أن يحمل لها الدعوة إلى الإسلام ومرت سنوات طويلة وهو يتردد على أوربا ويحضر مؤتمرات منع المسكرات ، فإذا ألقى أحدهم المحاضرات الطويلة عن إقرار الخمر ، جاء هو بكلمات قصيرة موجزة هزت النفوس ، لم تكن الكلمات له ، ولكنها كانت كلمات النبى ، ومنذ ١٩٠٥ والدكتور غلوش يحمل لواء الدفاع عن الإسلام وتحريم الخمور .

* * *

٢ — وتبدو صورة المجتمع أشد روعة ، فى نفس الميدان ، ولكن من ناحية أخرى ، إنها معركة البغاء والشيخ «محمود أبو العيون» ولندعه يتحدث إلينا: « عندما نشبت الثورة المصرية ساهمت فيها إلى الأعماق وأنجمت نفسى ، وبعد فترة عنف الثورة فرأيت أن أعدل موقفى ، فبدأت أطالب بجعل مادة الدين أساسية فى المدارس ،

ثم ظهرت بعد ذلك فاجعة « الغربي » ، وتكشفت للناس عن مآسي ومخاز لا سبيل إلى وصفها فعدت إلى الكتابة في ذلك في الأهرام تحت عنوان «مذابح الاعراض» .

وكنت قد قرأت في إحدى الصحف أن قسيسا في بلد أجنبي رفع صوته مستنكراً قيام البغاء في الدول الاوروبية فتساءلت : كيف فات أهل الرأي في مصر وهي الدولة المسلمة ، أن يرفعوا تلك الوصمة . وكان البغاء يباح بتراخيص رسمية في ظل الاحتلال .

فبدأت أعمل بمفردي ، وأخذت أدبج المقالات .

وقد لقيت هذه المقالات إستحسانا وتأييداً شجعني على أن أواصل الكتابة ، ووطنت النفس على محاربة البغاء وكان ثمة أهل مروءة ونجده يتطوعون بارشادي إلى الأماكن الموبوءة . وإني لأذكر أني كنت أكتب المقال وأبكي ، وبينما كنت أهاجم هذا الداء الوبيل توالت الهجمات ضدي ، من بعض الكتاب ، وفي يوم واحد نشرت أربع صحف أربعة مقالات كلها طعن وتجريح للدعوة التي أهتف بها ، وكان أشدها إيلاما لنفسي ما نشرته جريدة السياسة بعنوان :

« إصبع مأجورة لا للدين ولا للفضيلة » .

وقد شتمني الكاتب بما لا مزيد عليه وطالب مشيخة الأزهر بفصلي . وكان إن قابل شباب الأزهر هذه المقالة بجمع الأعداد التي وزعت منها في الحي الأزهري وأحرقوها ، ولم تفت الحملات في عضدي وواصلت الكفاح ، وبدا لي أن اشتغل صحفيا وخصصت لي الأهرام مكتبا ، وحادثت أهل الرأي من العظماء وقوى ساعد الحركة واشتدت ، وكان أن تقرر إلغاء البغاء صونا للأخلاق ، وشكل شاهين باشا لجنة لبحث موضوع إلغاء البغاء ، وكانت نتيجة البحث ٧١ في المائة لإلغاء البغاء ، وفي عام ١٩٣٥ قرر مجلس الوزراء إلغاء البغاء ولكن القرار لم ينفذ » .

* * *

وقد ظل الشيخ أبو العيون رحمه الله حديث الصحف ومجلات الكاريكاتير ورسم له كما رسم للدكتور غلوش مئات الصور المضحكة الساخرة مع التعليقات التي

لا حد لسخريتها ، واتهم الشيخ أبو العيون بأنه « عدو المرأة » عندما حمل على البلاجات والمايوهات ، وقد دافع عن نفسه دفاعا حاراً « لست بعدو المرأة بل على العكس أنا صديقها الذى يقدرها تمام التقدير ويؤمن بأن رسالتها فى الحياة من أدق الأمور ، وإنى لأعامل زوجتى معاملة الصديق الذى يلتمس لدى صديقه النصح والإرشاد .

وأذكر مرة عندما كنت أحمل على البغاء حملة شعواء ، أن أهاج ذلك بعض الصحفيين وذوى النفوذ ، ولم يبق أحد ينتصر لرأيى ، فذهبت مغتما إلى زوجتى ، ولما عرفت أمرى قلت لها : إننى عزمت على التخلى عن دعوآى ، إذ ليس من المعقول أن أكون أنا على صواب ، وهذا الجمع كله على خطأ ، قالت لى : أواثق أنت من صواب دعوتك .

فقلت : نعم ، قالت إذن امض فى طريقك ولا يصدنك معارضة المعترضين ، ومضيت ، وتم إلغاء البغاء والفضل لزوجتى . . » .

* * *

ولكن متى تم إلغاء البغاء؟ إنه تم بعد عشرين عاما من صيحة الشيخ أبوالعيون فقد دعا إلى ذلك عام ١٩٢٦ وألغى سنة ١٩٤٦ بعد خروج الانجليز من القاهرة إلى ثكنات الاسماعيلية .

١٣
صيحات التعاون والمصرف والمصنع

١٣

صيحات : التعاون والمصرف والمصنع

وكما تعالت الصيحات فى مجال الاجتماع ، تعالت فى مجال الإقتصاد والتعاون أصوات تريد أن تستنقذ الوطن من مخالب الاستعمار ، ربما تبدو اليوم من بعيد أنها يسيرة بسيطة ولكنها كانت فى أيامها عملا ضخما بعيد المدى قوى الأثر ، له دوى .

ففى أوائل هذا القرن علت الصيحة إلى «التعاون» وحمل لوائها «عمر لطفى» على أثر الأزمة المالية التى مرت بها البلاد ، فقد فكر فى إيجاد علاج دائم للأزمات الاقتصادية ، فاتجه فكره إلى اقتباس نظام التعاون في أوربا ، وسافر صيف ١٩٠٨ إلى إيطاليا حيث درس هذا النظام ، وعاد إلى مصر فطاف بالقرى والدساكر ، وخطب فى نادى المدارس العليا ، وسافر إلى كل مكان رأى فيه خيرا ، واصطحب معه عبد العزيز جاويش وكثير من المؤمنين بالفكرة ، وكان ذلك هو الخط الثانى للحركة الوطنية إذ ذاك ، متمثلا فى إنشاء الجمعيات التعاونية ، حيث بدأت أول جمعية تعاونية فى أبريل سنة ١٩١٠ ، وتمثل أيضا فى إنشاء المدارس الليلية والمعاهد الأهلية التى أولاها مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش اهتماما كبيرا .

وأثمرت دعوة عمر لطفى ، فتم على يده تأسيس عدة نقابات زراعية ، وأعد مشروع قانون التعاون سنة ١٩١٤ ، غير أن الاستعمار إستطاع أن يتدخل فى إنشاء هذه النقابات ؛ وسنت الحكومة الموالية للنفوذ البريطانى قانوناً يحرم على الفلاحين إنشاء مثل هذه النقابات إلا بإذن منها . ثم تدخلت مرة أخرى بعد توسع هذه الحركة ، فسيطرت عليها وسلمتها للاقطاعيين . وظلت كذلك حتى تحررت بعد ثورة ١٩٥٢ وتحولت خلقا آخر .

يقول عمر لطفى « يعتقد بعض الناس أن تفريج الأزمة المالية لا يكون إلا بجلب رءوس الأموال من البلاد الأجنبية ، وإقراضها للأهالى حتى تدور حركة الأعمال

كما كانت عليه ، وفاتهم أن الديون التى على المصريين قد أثقلت عاتقهم ، وأنه كلما كثر الدين زادت الفوائد التى تدفع سنويا لأرباب رءوس الأموال ، فالتفريج من من هذه الوجهة تفريج وقتى لا أساس له ، ونتيجته فى المستقبل ضارة وخيمة ، وفى اعتقادى أن أهم أسباب المضاربات قبل ١٩٠٧ أنها كانت من تهاطل الأموال الأجنبية على مصر ، وإقراض بعض البنوك النقود دون التفات إلى وجه استعمالها . وبعبارة أخرى لو استعملت تلك الأموال لتنمية مصادر الثروة الحقيقية أى التجارة والصناعة والزراعة ، ولما وقعت مصر فى الأزمة المالية الحاضرة ، بل كانت حال مصر يتبدل من حسن إلى حسن ، وعندى أن أساس الاستقلال والحرية فى كل أمة هو الاستقلال الاقتصادى ، فعلينا أن نوجه اليوم مجهوداتنا كافة لتقوية وتنمية مصادر الثروة المصرية الحقيقية ، وعلى الأخص الزراعة ، مع تحسين حال المزارعين حتى تجود أرضنا السخية بالمحصولات الجيدة ، فيساعدنا ذلك على تسديد ماعليها من الديون وأن نسير فى هذا الطريق رويدا رويدا حتى نحرر البلاد عن عبودية الدائنين .

وفى اعتقادى أن هذا لايتم إلا بإنشاء نقابات زراعية وشركات التعاون والمصارف الأهلية ، إن الفلاحة المصرية مصابة بآفات منها نقص المحصول ودودة القطن وعدم وجود تيلة القطن ، وعدم وجود المصارف الكافية فى بعض الجهات ، وغير ذلك ، والفلاح مصاب بكثرة الديون والاقتراض بالفوائد الفاحشة ، والاضطرار وما إلى بيع المحصولات قبل أوانها بأثمان بخسة ، ولا يوجد علاج لهذه الأمراض المتعددة إلا بإيجاد النقابات الزراعية » .

هذه هى رؤيا « عمر لطفى » ومحاولته للتحدى فى مواجهة الاستعمار ونفوذه الاقتصادى ، وقد اشتبكت برؤيا « طلعت حرب » فى إنشاء المصرف الوطنى وفى نفس الوقت كان محمد فريد قد دعا إلى نقابات العمال فأنشئت فى بولاق ١٩٠٩ أولى نقابة للعمل فى مصر باسم نقابة العمال اليدوية ، ووضع لها قانون من خير القوانين التى وضعت لنقابات الصناع ، وسارع عمر لطفى فألقى محاضرة عن أسباب ارتقاء العمال فى أوروبا وكيف يرتقى العامل فى مصر ، وعلى أثر ذلك بدأت تقوم نقابات فى الاسكندرية والمنصورة وطنطا .

* * *

وكان طلعت حرب قد تنبه إلى محاولة أخرى فأصدر عام ١٩١١ ، كتابه علاج مصر الاقتصادى أو مشروع بنك المصريين أو بنك الأمة . ولـكن طلعت حرب لم يتمـكن من تحقيق حلمه إلا عام ١٩٢٠ .

فقد كانت البنوك الأجنبية تغتال أموال المصريين وتبددها على نحو بلغ غاية الخطورة، وقد ظل الموقف يتمثل فى صورة الأمل حتى جاءت ثورة ١٩١٩ ، وأعلنت مقاطعة بريطانيا والبنوك الأجنبية .

وانتشرت المنشورات التى تنادى بأنه على المصريين أن يسحبوا ودائعهم من المصارف الانجليزية وأن يودعوها فى « بنك مصر » ، هنالك بدأ بنك مصر حيا متواريا فإن ١٢٦ مصريا دفعوا لطلعت حرب ٨٠ ألف جنيه .

ولقد سخر المستعمرون من تنفيذ الفـكرة على هذا النحو ، وقالوا إن البنك الأهلى لو خسر هذا المبلغ ما اهتزت منه شعرة ..

ولـكن بنك مصر نما حتى أصبح رأس ماله مليونا من الجنيهات فى سنوات قليلة . ووقف طلعت حرب يقول :

لقد بدأنا عام ١٩٢٠ صغاراً يهزأ بنا الهازئون ويتساءلون : أبثمانين ألف تقام البنوك ، وقد نسوا أن العمل الصالح يولد صغيراً وينمو حتى يصير كبيراً ، ونحن بحمد الله ما لبثنا طويلا حتى تضاعف رأس المال ، وسخروا من أعمالنا فى السنة الأولى لأنهم رأوا أرقاما ضئيلة ، كأن الشجرة المثمرة كالشجرة المعمرة لمئات السنين يورف ظلالها ويؤتى أكلها فى خلال أيام .

ولـكنهم ماسخروا حتى عدلوا عن سخريتهم وأقروا بالحقيقة ، وهى حيوية البنك ، قلنا إن المال قوة للخير فى يد الأخيار ، ولعل بنك مصر لم يكتب حتى الآن فى عداد الأشرار ، فهو لم يقف عن حدود الأموال يتاجر فيها كما تتاجر المصارف المـالية العادية ، وهو مع هذا لو وقف عند حدودها لـكان عمله خيرا لمجرد حفظه حق امتلاك الأسهم للمصريين لا تعصبا منها ولـكن حرصا على أن يدير المصرى دفة شأن من شئونه الحيوية بذاته واثباتاً على اقتداره على هذه الادارة إن هو تولاها بنفسه ،

ولكان عمله خيرا لمجرد اتخاذ اللغة العربية لأول مرة فى الحياة المصرفية ، لغة البنك الرسمية ، وكانوا يقولون إنها لا تنفع لغة للمحاسبة ولا للشركات والمصارف، ولكان عمله خيرا لمجرد تشجيعه موظفيه المصريين على معالجة المسائل المالية وتدريبهم على أن يكونوا عدة للبنك والبلاد فى مستقبل الايام .

بل كان يكفيه خيراً فوق هذا وبدون هذا إنه كوكيل على مال قد أدى الأمانة حقها وأوفى أصحاب الأسهم حصة من أرباحه ، بدأت بخمسة حتى بلغت ثمانية ونصف فى المائة .

ولكن بنك مصر ليس ككل البنوك ، فهو أول بنك قومى فى بلاده وهو بطبيعة مولده ونموه والثقة فيه مضطر إلى أن يشعر بحاجات البلاد الاقتصادية وأن يجتهد فى تحديدها تحديداً علمياً عملياً ، وأن يجد فى المعاونة على مايستطيع تحقيقه من الأعمال اللازمة لتكوين هيكل الاستقلال الاقتصادى للبلاد . » .

* * *

فى أوائل القرن برز عمر لطفى بالتعاون، وفى العشرينات برز طلعت حرب بنك مصر . ثم لم يلبث أن برز فى الثلاثينات « أحمد حسين بمشروع القرش » .

كان ذلك خطوة طبيعية فى وطن يقاوم الاستعمار والاحتلال ويفرض معركة التحدى فى مجال التحرر الاقتصادى والاجتماعى معا .

وكان مشروع القرش عملا اقتصاديا وطنيا لقى من الدوى أكثر مما لقى التعاون وبنك مصر ، فقد كان اتصاله بالشعب واسع المدى بعيد الأثر ، ويصور الأستاذ أحمد حسين تجربته هذه فيقول :

كانت مصر فى هذه الأيام تعانى أزمة اقتصادية مخيفة ، فقد هبطت أسعار القطن وأصبح لا يجد مشتريا ، وفى وسط ذلك اختل الميزان التجارى ضد مصلحة مصر ، وأصبحت الأزمة والشئون الاقتصادية هى ما يشغل بال كل مصرى ، وقد تجلى خطر اعتماد مصر على الزراعة .

كما تجلى خطر إعتماد مصر اعتماداً كلياً على أوربا فى كل ماتحتاجه من مصنوعات،

ومن هنا أدركت أن أكثر ما تحتاجه مصر هو العمل على إيجاد الصناعات بها ونشر روح الصناعة الوطنية فى كل مكان ، ولما كانت الصناعة تحتاج إلى رءوس أموال ، لم أشأ أن تجتمع رءوس الأموال من بضعة أفراد ، بل رأيت أن مما يحقق غايتنا بكمالها أن يساهم الشعب مجتمعا فى إنشاء هذه الصناعات القومية ليظل حريصا على تشجيعها فيما بعد ، ويمكن أن يلقن الشعب أثناء ذلك دروسا فى التعاون والاعتماد على النفس ونشر الدعوة للصناعة المصرية .

وسوف يكون لنجاح مثل هذا المشروع وقيام مصنع من المصانع بأموال الشعب أكبر الأثر فى إحساسه بقوته إذا ما تعاون وتضامن . ولا أستطيع أن أنسى كيف قوبلتُ بالسخرية فى بادىء الأمر ، بدعوى أن المشروع ليس إلا حلماً من الأحلام أو خيالا من الخيالات ، ولقد كانت هناك ألف عقبة وعقبة فى طريق المشروع .

وعند ما بدأنا نشاطنا ما كنت تسمع إلا اعتراضاً وسخرية فى كل مكان ، فى الجامعة وسط صفوف الطلاب ، وفى الشارع وفى النادى ، ولكن الله سبحانه وتعالى وفقنى توفيقاً عجيباً إذ هدانى إلى الدكتور على إبراهيم ليكون رئيساً للجنة ، وكان هذا الاختيار بدء تطور جديد فى حياة المشروع فقد أسرعت الصحافة لنجدته وأصدرت دار الهلال عدداً خاصاً من إحدى مجلاتها خصصت إيراده للمشروع جمعنا فيه ما يقارب الثلاثمائة جنيه مصرى ، كان نواة لرأس مال المشروع ، وبه استطعت أن أمضى حتى النهاية فى إخراجه إلى حيز التنفيذ .

ونجح المشروع واهتزت له مصر من أقصاها إلى أقصاها ، ورأيت بعينى صوراً ومشاهد جعلت الدموع تطفر من عينى ، رأيت شباباً يسهرون الليل وسط الصقيع ، كيما يتسلموا أعداد الجرائد وطوابع المشروع ليقوموا بتوزيعها فى الصباح كباعة الجرائد ، رأيت شباباً يعملون واصلين الليل بالنهار ، لا يكلون ولا يملون ، يسافرون من الاسكندرية إلى أسوان يحملون الطوابع والشارات . رأيت حولى عشرات الأوانس وألوف الشباب تلمع عيونهم ويهتفون لمجد مصر ، ويستعذبون العمل فى سبيل استقلالها وتحريرها .

كان النجاح المادى فى مشروع القرش أقل بكثير من نجاحه المعنوى ، فلم يزد المجموع عن سبعة عشر ألفاً فى العام الأول وثلاثة عشر ألفاً فى العام الثانى ، ولكنى مع ذلك شرعت فى العمل حتى أحقق ما وعدت الناس به ، وكانت الصناعة الوحيدة التى استهوتنى منذ أمد بعيد هى « صناعة الطرابيش » وكنت أشعر دائماً بالمهانة إذ كان شعارنا الوطنى أجنبياً تنسجه لنا بلاد أخرى لا تلبسه ، كما تقوم مصانعها الأخرى بعمل الزجاج الملون والعقود البراقة لتباع فى أواسط أفريقيا وآسيا ، وكانت لمصر صناعة عريقة فى الطرابيش ، وفى مدينة قها بالذات ، فتدخل الأجانب وحطموا هذه الصناعة المصرية . فرغبت أن أثأر لمصنع « قها » وأن ألبس كل مصرى طربوشا من صنع بلاده .

ولما قال الاقتصاديون وعلى رأسهم طلعت حرب إنه من المتعذر إنشاء مصنع للطرابيش فى مصر ، فالشركات الأجنبية لن تمكن هذا المصنع من القيام ، أصررت على وجوب قيام هذا المصنع .

فقد كان إمتهانا ما بعده امتهان أن تصنع دولة أجنبية شعار مصر القومى . وقد كان فى مصر مصانع للطرابيش فأغلقتها هذه المنافسة الأجنبية فصممت على رفع هذا العار ..

ووجدت ألواناً من العراقيل والمؤامرات والدسائس التى وضعت للحيلولة دون تنفيذ المشروع ، ولكن مصنع الطرابيش بنى فى نهاية الأمر وجاءت الماكينات والآلات .

ولو لم تتدخل الحزبية والاستعمار لأمكننى أن أحقق برنامجى الضخم فى إنشاء مصنع فى كل عام ..

ولما تقلص ظل الطربوش أخذ المصنع ينتج أجود أنواع (البيريهات) .

١٤

عالم الأطباء

١٤

عالم الأطباء

ولا تكمل صورة العصر ، وملامح المجتمع ، دون أن نعرج على قطاع الأطباء والمحامين ، ففي عالم الأطباء نجد صور على إبراهيم ومحجوب ثابت وإبراهيم ناجى ، وعشرات غيرهم من الأطباء الأدباء الفلاسفة المتفننين الذين لا يكتفون بالعمل فى ميدان الطب مع التبريز فيه بل يذهبون غاية إلى المدى فى الخدمة الانسانية .

* * *

كان « على إبراهيم » يريد أن يؤكد حقيقة كانت أشبه بالوهم ، هى إحلال العبقرية العربية المصرية الشرقية مكانها فى زمن غلبت فيه عبقرية الأجنبى واجتاحت كل مجال ، قالوا : إنهم هم وحدهم سادة الجراحة والطب . فما لبث أن برز فى مجاله كاول مؤسس للمدرسة المصرية العربية فى الطب ، وفى وقت لم يكن الطريق فيه ممهداً ولا ميسراً ، كان مشرطه بارعا ، حتى قيل إنه حين يعمل سلاحه ، ويجرى عملياته تنقلب كل جارحه فيه إلى نافذة ، ويتحول حس أعصابه الدقيق إلى إبصار السرعة والابداع فى التصريف والإحتراس للطوارىء .

ولندعه يصور لنا أحرج ساعة فى حياته الطبية :

« تسألنى عن أحرج ساعة شاهدتها فى الطب وحبذا لو سألتنى عن أسهل ساعة طبية مرت فى حياتى ، فإنى أعتقد أن حياة الجراح كلها حرج متواصل ، فما دام بيده المشرط والآلات الجراحية ، فليس من الحق أن نقول إن مزاولته لعمله من الهنات التى تمر دون أن يعانى فيها دقة محرجة ويستعمل ذكاءه وبراعته فى اجتناب ما عساه يقع من الخطر إذا أغفل الانتباه والحرص على سلامة المريض الذى وضع حياته وديعة بين يديه .

وأستطيع أن أقول إنه يمر تحت يدى نحو ألف عملية فى العام ، تسعة وتسعون فى المائة منها حرجة ، والواحدة الباقية سهلة ، وأعنى بسهولتها انطباقها على القواعد الطبية العادية ، التى لا تحتاج إلى حذق ومهارة ، فتكون النتيجة أن عشرة عمليات فى الألف يستطيع الجراح أن يثق فيها بالنجاح حسب القانون الطبى .

وإنى من الذين يعتقدون أن الطب فن من قبل أن يكون علما ولا ينجح فيه إلا أصحاب الملكات الطبية الذين يميلون إلى عملهم ويتعشقونه ، ولا أنكر أنى أعزو سبب نجاحى فى مهنتى إلى الرغبة التى نشأت عليها من الصغر بالتشبث بالطب والإقبال عليه ، ولذلك مهما أعانى من الحرج فإنى أشعر فى الوقت نفسه بالاغتباط والرضى بمهنتى الطبية ، وبالجملة فلا ضير إذا ذكرت لك جرح الطبيب الدائم الذى لا ينفك أن يراه فى كل ساعة وفى كل عملية » .

* * *

ولقد كان على إبراهيم محباً لعشرات من الهوايات يضفى بها على حياته بهجة ومرحا ، ويخرجها من تعقيدات الطب الذى يحبه ، كان يحب السجاجيد الأثرية والطنافس ويركب إليها أخشن الركائب ، ساعات فى أى قطر من الأقطار ليراها ويقتنيها ، وكان حاذقا للتصوير ، ومتصلا بالوسط الموسيقى والغنائى ، وله أصدقاء من المهرة فى التوقيع على القانون والعود والكمان والناى .

وكانت عيادته وداره متحفا رائعا للتماثيل والصور والنمارق والخشب المنحوت والأحجار المحفورة . . .

* * *

فإذا انتقلنا إلى الدكتور «محجوب ثابت» رأينا صورة أخرى أشد طرافة . فهو أستاذ الطب الشرعى فى مدرسة الطب، وهو المهتم بشئون العمال والسرذان ، طبيب وصحفى وخطيب . وصفه أحد زواره قال :

« يعيش فى عيادته التى هى بيته عيشة بوهيمية أصلية ، بين كتبه وكراسه

وترابيزة العيادة والمائدة ، وكلها عنده سواء وكلها مفتوحة لكل طارق يعرفه ، أو لا يعرفه ، يعالج من يقصده من المرضى ، ولا يسأل أجراً . ويؤاكل من يحضر ساعة الطعام بغير كلفة ، ويطلب الشاى أو القهوة لكل من يقصده ، لا يتقيد بموعد ولا تكلفه حياة المجتمع أى عناء ، لحية مرسلة وشارب معفى ، فلاحلاقة ولاتسريح ، وزى واحد هو زى الليل وهو أيضاً زى النهار ، وكرافات واحد أسود ، لا يكلفه الاستعداد للخروج بعد يقظة الصباح غير دقائق معدودة ، محبوب فى ربوع الشام ، يتوافد عليه أصدقاءه ومحبوه ، يدخن التوسكانا دائما » .

ولطالما كانت ترسم له صورة كاريكاتورية بالقلم على هذا النحو :

« يعيش عزبا ، أما منزله فيشبه بيوت الحواه ، فقد يحدث أن تدخل فجأة على الدكتور فلا تجده فى غرفته ، ولكنك إذا أنعمت النظر ظهر لك رأس آدمى تكتنفها لحية مشعثة تطل من بين كومة من الأوراق ، وضعت فوق مكتب ، وقد تعثر قدماك بجماجم بشرية ، ملقاة هنا وهناك » .

ولقد اشتهر الدكتور محجوب ثابت بعربته ذات الحصان « مسكوينى » الذى يصفه بقوله « كانت عربة السياسة ومقعد العظماء ، يعرف مسالك القاهرة وضروبها ويعرف ما فيها من بيوت الأصدقاء فيهز أمامها أذنيه ، وما فيها من بيوت الحاقدين فيهش عليها بذيله ، وكنت أقدس فيه كل شىء حتى صهيله ، وأضعه منى موضع الابن العزيز » .

لقد أطلق عليه الدكتور عبد الحميد بدوى اسم « مسكوينى » وإذاعه ابن حارثى الشيخ عبد العزيز البشرى ، وأبدع صديقنا شوقى فى قصيدتين رائعتين ، مع أنه ما شاركه جوعا بل يمكن أن يقال إنه شاركه صبرا على الوقوف أمام بيت الأمة ينتظر فراغى ، أو أمام منزل محمود باشا سليمان أو منتدى صولت السابق بشارع فؤاد ، أو شاركنى صبرا وجلدا انتظارا لخروجنا من المجالس ، كما شاركنى وغيرى من الرفاق فى جوب المدينة طولا وعرضا وشرقا وغربا وحضور مظاهرات واستقبال رصاص المظاهرات ، ويذكر الدكتور هيكل . وكان معنا صديقنا داود بركات حينما كنا راكبين معا فى عربتنا والرصاص يمطرنا وأزيزه يقر فى آذاننا .

وكم انتظر أمام الأزهر والمعابد والـكنائس والبيع ، وكان يجمع المصريين على بكرة أبيهم مطربشين ومعممين وأصحاب قلانس .

إن هذا الأبلق مخطف البطن ، فهذا من خلقته ، لا من جوع وهزال ، إننى يابنى مغرم بالخيل قديما ، فقدولدت بالسودان ، بين الجنود والبنود ، وسمعت صهيلها وأنا بعد وليد . ولطالما وضعت على ظهورها وقبضت على رسن لجومها وأنا بعد صغير يافع » ..

قالوا له مرة : ماذا تريد أن يذكر التاريخ عنك ؟

قال : ولدت فى دنقـلا ، يوم أن حاصر المهدى الخرطوم ، وانى ابن سيده خالها الأكبر السيد البدوى ، أريد أن يذكر التاريخ حرب البلقان ، ولا يسقط من حسابه هذا الشاب باللحية السـوداء برأس البعثة الرابعة لنقل جرحى الأتراك الذين كانوا فى الأسر ، ويخف لنجدة نساء المهاجرين . .

أذكر أيها التاريخ تلك العربة وذلك الجواد مكسوينى ، وما أدياه فى الحركة الوطنية من نصرة المريض والجريح والقتيل . . فقد تندر الجيل بهما وتفـكه بحوادثها وهما عنوان البطولة .

. . .

وننتقل من الدكتور محجوب ثابت إلى طبيب عرف بالشعر والأدب ، كما لم يعرف نابغة خارج مجال عمله . ولـكنه كان إنساناً فى طبه ، ذلك هو الدكتور « إبراهيم ناجى » .

قال : إننى ألبي دعوة المنادين ، وقد يكون هذا النداء فى مكان بعيد ، كوخا أو حارة ، أو عطفة أو زقاقا ، واعلم أنه سيصيبنى ماأصابنى كـثيرا والليل منتصف ، وأنا مرهق انحنى على طفل يموت أو رجل يحتضر ، أو إمرأة تلفظ أنفاسها .

أذكر أن أحد أصدقائى فى عشش الترجمان . وقد استدعانى ومعه كبشة من الجدعان

لزيارة مريضة فدخلت فى منزل بال متهدم ، ووجدت المريضة فى غاية التعب ، وجنينها الميت متدل منها فخلعت سترتى وساعتى ، وانصرفت إلى عملى المرهق زهاء ساعتين ، وبعد أن أتممت واجبى التفت فلم أجد أحدا من الجدعان وبحثت عن ساعتى فلم أجدها ، فخرجت بسيارتى وأنا أحمد الله على السلامة .

ولعل من أعز أصدقائى وأنبلهم صنايعى ، قرع جرس التليفون فى العيادة وقال لى : إن زوجتى تضع ، وأنه يريدنى فى الحال فأجبت أنى لا أشتغل بالتوليد .

وبعد قليل سمعت جلبة وصياحا فى العيادة ،فأخبرنى التمورجى أن رجلا فقيرا مصمم على أن يقابلنى فخرجت إليه فوجدته نفس الرجل الذى كان يخاطبنى تليفونيا ، رأيته يبكى بكاء مرا فلم أتردد فى خلع معطف العيادة ولبست ثيابى وقلت لزبائنى : إنى ماض مع هذا الرجل ، فمن شاء فلينتظر .

ولما ذهبت وجدت امرأة ممددة على حصير وهى تجهض ، وعندها نزيف شديد ، فخلعت سترتى وأخذت أؤدى واجبى حتى انقطع النزيف .

غير أنى لما تفقدت حافظتى لم أجدها ، وكان بها عشرة جنيهات وعدت إلى العيادة وقد انصرف الناس عنها .

ودق التليفون وقال الرجل إنه وجد محفظتى فى أرض الغرفة .

١٥

دنيا المحاماة

١٥

دنيا المحاماه

وهنا قطاع آخر من صورة العصر وملامح الجيل ، كان باذخا زاهيا ضخما ، له هوله وهيلمانه ، وصولجانه ، فقد كان المحامون أصحاب نفوذ ضخم منذ عهد بعيد، منذ فجر اليقظة ، منذ خرج إبراهيم الهلباوى من الأزهر وخرج سعد زغلول فأصبح الأول عميد المحامين وشيخهم وأصبح الثانى مستشاراً بمحكمة الاستئناف .

وقد برز فى أوائل هذا القرن كثيرون من أعلام المحاماه منهم عمر لطفى ، ومحمد فريد وإسماعيل زهدى وأحمد لطفى ولطفى جمعة . . وكانت لهم ذكريات وقصص فى ميدانهم ، يقول لطفى جمعة : نصحنى محمد فريد بك أن أدرس القضية قبل أن أقبلها ، وأن لا أرفض القضية الخاسرة وأقبل الرابحة ، وأن أبذل جهدى فى إرضاء ضميرى ، وقال : إن صنعة المحاماه ليست كلها فصاحة بل ثلثها علم بالقانون وثلثها تحرير وثلثها فصاحة .

ولقد سرد كثير من أعلام المحاماه ذكرياتهم فى كتب منشورة ، ولكننا هنا لا نكرر ما نشر ، ولكننا نحاول أن نلتقط صوراً جديدة من بطون الصحف لم يحصل عليها أحد لتكون عونا للباحثين .

« بدأت المحاماه فى شكل تحرير عرائض الشكوى وكان الأهالى يطلبون من الذين يعرفون القراءة والكتابة أن يحرروا شكواهم .

فتولد فى المجتمع طائفة العرضحالجية . . وهم كزملائهم فى عصرنا هذا جماعة اتخذوا صناديق صغيرة يجلسون أمامها فى أفناء المصالح والدواوين .

ولما كانت المحاكم الشرعية هى جهة القضاء الوحيدة وكان للمرافعة أمامها تحتاج إلى الإلمام ببعض الشىء بقواعد الشرعية الإسلامية فقد وجدت طائفة مخصوصة

تسمى وكلاء الدعوى ، لم تكن لها صفات ممتازة ولم يشترط فيهم كفاية معينة ولم يكن لهم قانون يعاملون بموجبه فاختلط بهم نفر ممن لا يعرفون الشريعـة ، أطلق عليهم لقب « المزودين » .

ثم نمت طائفة العرضحالجية وظهرت وصارت من لزوم الحياة القضائية وقد أخذوا صيغة جديدة وهى الاشتغال بالوكالة عن الخصومة .

وصار كل من رأى فى نفسه الجرأة والقدرة على رص الجمل يميل إلى المحاماه ويتخذ له مكتباً ويوكل عن أصحاب الدعاوى ، وكانت الصفة العامة فيهم هى الجهل باللغة العربية جهلا كلياً واستعمال أساليب فى التحرير لا تخطر على بال أحد .

وإليك مقيساً من بعض مذكرات هؤلاء المحامين :

« أفندم ؛ إنه مناسبة للظلم المتوقع على بتسلطات عمدة بلدنا ولمداومة تقصـداته لجهق ليغنم الأطيان تعلق حسب عادته المألوف عليها كونه جاعل أهالى الحصة جميعاً عبيداً لرق عبوديته وعرضة للسلب والنهب ، ولما أنـكان (ان كان) ظلمى فاق الحد عنهم قد انبنى عليه ذكر .. (كذا) ..

* * *

ويروى الهلباوى ذكريات المحاماه فى عهدها الأول فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يقول :

كانت المحاماه فى عهدها الأول موصومة فى نظر الجمهور ، وحدث أن محاميا تزوج سيدة من السراى ، فسأل أترابها وصديقاتها عن الزوج فقيل لهم أنه «أفـكاتو» فسألن عن معنى الأفوكاتو هذا ، فـكانت فتوى الباش أغا لهن أنه الرجل الذى يغير الحقائق فى العقود . واستمرت المحاماه فى عهدها الأول على هذه الحال حتى حدث حادث دفع بها إلى الأمام وهو تعيين محام فى منصب القضاء وكان هذا التعيين فى زمنه من الحوادث المستغربة الخطيرة ، هذا المحامى هو سعد زغلول .

وكان سعد نابغة فى القانون وهو محام ، فأراد رياض (باشا) تعيينه فى قلم قضايا الحـكومة ، فأخذ خصومه المصريين يحتالون فى منع تعيين سعد .

وفى سنة ١٨٩٠ عين سعد وكيل قاض فى محكمة الاستئناف ولا ينكر فضل البرنسيس نظله هاضم فاضل صاحبة الصالون الأول المشهور ، فى هذا التعيين وعين معه فى يوم واحد قاسم أمين ويحى إبراهيم .

وبعد أن عين سعد فى القضاء ، كان دائم الأتصال بزملائه القدماء فى المحاماه ، فأصبحت لأول مرة سنة ١٨٩٢ أو ٩٣ تحت رئاسته فى القاعة الكبرى بمحكمة الاستئناف وشاورنا فى انتخاب هيئة النقابة . وكان التنافس محتداً بين كبار المحامين حينئذ من ابراهيم اللقانى وخليل إبراهيم وحسن حمادة وديمترى عبده .

وأخذنا بعد ذلك نشتغل فى إعداد قانون المحاماه وفى مقدمة من اشتغلوا به نقولا توماوعمر لطفى ومرقس فهمى ومحمد أبوشادى ، وكنا دائمى الاسترشاد بنصائح فتحى زغلول وسعد زغلول ، واستمر بحثنا حتى تولى سعد وزارة الحقانية ، فوالينا الاجتماع به فى الوزارة وفى بيته حتى أعد كل شىء .

ولكن بعض المراجع لم تكن ترغب فى أن تمهر هذه اللائحة باسم سعد ، فبقى الأمر معلقا حتى حل ثروت باشا مكانه بوزراة الحقانية ١٩١٢ فصادق على المشروع .

وفى سنة ١٨٨٩ أصدر رياض باشا لائحة ليطهد المحاماة ، فطرد وامنها أصحاب السير السيئة وأمتحنوا جميعا امتحانا شفويا وفصل نصف عدد المحامين .

* * *

يقول الهلباوى فى أواخر أيامه سنة (١٩٤٠) : بدأت العمل فى المحاماة سنة ١٨٨٦ ولو عاد الزمن القهقرى لما اخترت غير مهنة المحاماة ، لأنى أعتقد أننى خلقت محاميا ولا أصلح للعمل فى غير هذه المهنة ، ومع أنها شاقة وكثيرة المصاعب والعقبات فإنى لم أسأم منها ولم أجدها بغيضة إلى نفسى . كنت من ولوعى بالمهنة فى أيام شبابى أترافع فى المنام ، فكثيرا ما كان أهل بيتى ويوقظونى وأنا أترافع فى النوم بصوت اعتيادى كأنى أمام المحكمة » .

ولقد كان اسم الهلباوى فى الثلاثينات مزدرى وكريها ، لأنه كان يد الانجليز فى

« دنشواى » والرجل الذى اختير « مدعيا عموميا » ليؤيد الحكم على المصريين المظلومين ، وقد ظلت هذه القضية تضع اسم الهلباوى فى قائمة سوداء مهما قال إنه كفر عن موقفه فى قضية دنشواى بدفاعه عن الوردانى فى قضية بطرس غالى ، ودفاعه عن حياة الذين اتهموا بالتآمر على حياة الخديوى وحياة كتشنر ، مع هذا كله ظل الهلباوى مبغوضا .

ولقد استهل الهلباوى مرافعته على الوردانى بعبارات حاول فيها أن يبرأ من خطأه وجريمته :

لقد كانت دنشواى إحدى الفواجع الكبرى التى رزئت بها مصر من عهد الاحتلال البريطانى ، كانت محكمة بلا قانون ، بلا نصوص ، تصدر ما تراه مناسبا من العقوبات ، ولها أن تحكم أقسى الأحكام – حتى الإعدام – على من يرتكب أهون اعتداء على جندى بريطانى . كان إنشاؤها مخالفة صارخة للعدالة البشرية ، لم يقتنع منشئوها بأن يخلقوا محكمة بغير قوانين ، ولكن جسارتهم دفعتهم إلى أن يحلوا جيدها بإجراءات بشعة غاشمة . . لقد كان الحكم فى قضية دنشواى بإجماع المصريين حكما قاسيا لا يستحقه المتهمون ، وكان تنفيذه فوق ذلك أكثر استحقاقا للسخط ، لا فائدة من القول بأن جميع المصريين الذين شاركوا فى هذه المحكمة قد كرههم مواطنوهم واحتقروهم ، لقد جئنا إلى هذه القاعة للدفاع عن الوردانى ومن أجل ذلك وجب علينا أن ننكر ذواتنا وأن نغفر كل ما وجهه إلينا مواطنونا ، اللهم أننا نستغفر مواطنينا عما نكون قد وقعنا فيه من أخطاء ، أن الذين شاركوا فى هذه المحكمة أو تولوا تمثيل النيابة فيها ، قد اعتبرهم مواطنوهم قواد جيش التسليم للعدو ، وعميل الجمهور لاتهامهم بأنهم يخدمون العدو أكثر مما يخدمون مصالح الوطن ، دون أن يقدر مواطنوهم الظروف التى تصرفوا فيها تصرفاتهم » .

* * *

ولا ينسى الهلباوى قصة دنشواى ، بل يظل يتحدث عنه ، محاولا تبرئة نفسه ، وقد حدث أن هتف المواطنون فى إحدى دوائر البحيرة ، وكان مرشحا فيها للانتخابات

«بأنه جلاد دنشواى» فرفع عليهم قضية وخسرها . ولصقت به هذه الكلمة طوال حياته كلها « جلاد دنشواى » .

وقد عرف الهلباوى بأنه « محام بارع مجيد ، حاضر البديهة قوى الذاكرة ملتهب الذكاء ، بارع النكتة ، إذا أنس من الآذان تطامنا هجم عليها فهز النفوس هزا ، يجد ويهزل ، ويضحك ويبكى ، ويعلو ويسف ويشترى هوى سامعيه بأى ثمن ، وإذا كان الهلباوى خطيبا فهو ممثل أعظم » .

وقد نيف على التسعين ولم يعرف العصى أو النظارة .

ومما يروى أنه ترافع فى قضية فما لبث أن أذن فى حرم المحكمة آذانا جميلا منغما فلما فرغ منه أخرج من جيبه جرسا ضخما وأخذ يدقه فى عنف وحكمت له المحكمة بالطلبات .

* * *

وإبراهيم الهلباوى من الأسماء التى وقفت كثيراً فى الظل ، ذلك المحامى الأشهر الذى عاش ٧٥ عاماً ومات ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٠ بعد أن ترافع أمام المحاكم أكثر من خمسين عاماً ، وقد وصف بأنه «جلاد دنشواى» وصاحبه هذا اللقب حتى مماته ولم يستطع أى عمل قام به أن يمحو هذا الإسم الذى ابتكره الشيخ عبد العزيز جاويش فضى مثلا .. فما عرف السعادة ولا الهناء ولا كفر عنه أى عمل من أعماله ، وقد وجه إليه حافظ إبراهيم أبيات من الشعر :

أيها المدعى العمومى مهلا ... بعض هذا فقد بلغت المراداً
قد ضمنا لك القضاء بمصر ... وضمنا لنجلك الاسعاداً
فإذا ما جلست للحكم فاذكر ... عهد مصر فقد شقيت الفؤاد
لاجرى النيل فى نواحيك يامصر ... ولا جادك الحيا حيث جاداً
أنت أنبت ذلك النبت يامصر ... فأضحى عليك شوكاً قتاداً
أنت أنبت ناعقاً قام بالأمس ... فأدمى القلوب والأكباداً
أيه يا مدره القضاء ويا من ... ساد فى غفلة الزمان وشاداً
أنت جلادنا فلا تنس إنا ... قد لبسنا على يديك الحداداً

وهكذا ربما كان حادثاً واحداً ، يتحكم فى حياة إنسان على مدى الزمن ويظل حياً فى أذهان الناس حتى بعد موته . وقد كتب الهلباوى ذكريات يائسة فقال : منذ تاريخ تلك الحادثة المشئومة «قضية دنشواى» وأنا راض ومحتمل لإساءات كثيرة لحقتنى من كثير من أبناء وطنى لأنى كنت مدعياً عمومياً فى قضية دنشواى ...

ومما يرويه الهلباوى أنه اختلف مع مدير الغربية (حسين سرى) فقد كتب مقالا فى نقد أعماله فأحدث ضجة ، فأرسل من القاهرة مقبوضاً عليه ، قال له حسين سرى: أعدك بأننى سأخرب بيتك .

قال الهلباوى : إنك لن تستطع ذلك ، فأوسعه سباً ، فأراد أن يخفف من حدته فقال : ليس فى مقدورك ذلك لأنه ليس لى بيت .

* * *

وقد عمل الهلباوى سنة ١٨٨٠ (أكتوبر) محرراً فى الوقائع ، وكان رئيس تحريرها الشيخ محمد عبده ، واشتغل بالمحاماه فى طنطا سنة ١٨٨٦ إلى ١٨٨٩ ثم نقل مكتبه إلى القاهرة .

وصفه الشيخ البشرى فى المرآه قال :

طويل القامة ، بائن الطول ، رأيته يخطب الناس ، فرأيته يخطب بلسانه ورأسه ويديه ورجليه ، حاضر البديهه ، قوى الذاكرة ملتهب الذكاء ، بارع النكتة ، رشيق اللفظ ، إذا أنس من الآذان تطامنا هجم عليها . يجد ويهزل ، يثب ويحجل ويضحك ويبكى ، ويعلو ويسف ويشترى هوى سامعيه بأى ثمن . وإذا كان الهلباوى خطيباً فهو ممثل أعظم .

وبعد فما يزال بيت الهلباوى فى متيل الروضة قاعاً صفاً صفاً . وقد كتب عليه : «وتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا» .

. . .

ولا ينسى فى هذا المجال « محمد أبو شاذى » فقد كان محاميا بارعا وصحفيا ، وقد وصف عند موته هذا النحو :

« تم له ما أراد من شهرة طبقت الأفاق ، وجرت بها الأمثال ، حتى لقد رسخ في نفوس العامة أن أى قضية يترافع فيها فهى رابحة ، حتى قال رجل من الصعيد لصاحبه ذات مرة :

« أقتلك وأبيع نصف فدان وأوكل ولد أبو شادى » .

• • •

لقد كان الهلباوى أزهريا ، وكان محمد أبو شادى من الأزهر ، وهناك محام آخر بلغ الذروة خرج من الأزهر هو : سعد زغلول .

ويقول إبراهيم الهلباوى فى ذكرياته عن سعد :

استقبل حى الأزهر الشريف بسيدنا الحسين عام ١٨٧٥ مجاوراً أزهرياً صغير السن يبلغ من العمر خمسة عشر عاما ، هو الشيخ سعد زغلول .

حضر سعد لأول مرة إلى هذا الحى بصحبة شقيقه الأكبر (الشناوى زغلول) الذى تولى أمره بعد وفاة أبيه ، فاستأجر له غرفة صغيرة فى منزل يقطن فيه طلبة من الأزهر الشريف وأعد له حاجياته الضرورية ، بعد أن وكل به طالبين فى الأزهر ، وتصادف أن كنت أسكن المنزل نفسه الذى حل به سعد ، وكانت غرفته أمام غرفتى فتوطدت بيننا روابط الصداقة بحكمة الجوار والزمالة ، وزاد فى توثيق ائتلافنا ، أننا أبناء منطقة واحدة فمسقط رأسى « كفر الدوار » بقرب من «أبيانه» مسقط رأس الشيخ سعد ، وكنت أكبر من سعد فى السن وقد سبقته فى الدراسة بعدة سنين ، وبحكم صداقتى وصلتى بالمرحوم الإمام الشيخ محمد عبده ، اتصل سعد زغلول بالشيخ محمد عبده وتقرب إليه فكان لاينقطع عن حضور دروسه فى صحن الأزهر وأكب على التحصيل حتى أنس فيه الإمام سعة اطلاعه وفرط ذكائه ، فزاد عطفا على عطفا .

ثم اتصل سعد عن طريق الشيخ محمد عبده بالسيد جمال الدين الأفغانى فتشبع بآرائه واستزاد من علمه ، واخفيت أنا وسعد خبر انتمائنا إلى السيد جمال الدين مدة من الزمن إتقاء شر الحملة التى كانت موجهة ضده وضد أنصاره ، ثم تشجعنا

وجاهدنا بمناصرة السيد وتأييد آرائه وأفكاره الحرة التى عدها البعض فى ذلك الوقت نوعاً من الخروج على العقائد والتقاليد القديمة .

وقد قضى سعد فى الأزهر خمس سنوات نبغ فيها وبرز بين زملائه ، وحصل فى هذه السنين الخمس ما لا يحصله غيره فى خمسة عشر عاما .

ثم اكتفى من الأزهر بما درسه فيه وعين عام ١٨٨٠ محرراً بالوقائع الرسمية ، وكان سعد هو الطالب الوحيد الذى يلبس الجبة والقفطان فى شلتنا فكنا نفخر به ، ولا عجب فى ذلك فقد كنت أنا مثلا ألبس الزعبوط الذى لازمنى طول مدة دراستى حتى تخرجت من الأزهر ، فتوظفت وأنا ألبس الزعبوط .

وكنا نواصل الدراسة ست عشرة ساعة يومياً ، وكنا نتعمد الجوع حتى لا يدهمنا النعاس بالليل .

ولم يكن لنا نزهة غير الذهاب راجلين إلى العتبة الخضراء للجلوس متربعين على تلتوار المحكمة المختلطة القديمة لمشاهدة المارين ، وقد دعانا الشناوى شقيق سعد للذهاب معه إلى قهوة وسط حديقة الأزبكية وطلب لنا قهوة فلما أحضرها الجرسون رفض بعض إخواننا من أبناء الصعيد تناولها لأنها فى فناجين من الصينى بدلا من الفناجين النحاس التى تعودوا شرب القهوة فيها .

واذكر أننا سمعنا بوجود المطربة الشهيرة (ألمظ) التى كانت تغنى فى فرح قريب من حى الأزهر ، وقد كنا نقطن فى الصنادقية فذهبنا معاً وكان معنا سعد وكان الزحام على سماعها شديداً حتى اختل النظام فما كان من أصحاب الفرح إلا أن أوسعونا ضرباً بالكرابيج فخرجنا مرغمين ولم نسمع شيئاً .

وحدث أن دعيت مع سعد أيام كنا طالبين فى الأزهر إلى حفل زفاف يغنى فيه المرحوم محمد عثمان مع زوجته « ألمظ » ولما كنا من محبى صوت محمد عثمان فقد صممنا على الذهاب إلى الحفل وكان المنزل الذى أقمنا فيه بعيداً عن الأزهر ، فرأينا أن نركب إليه ومن باب الوفر استأجرنا حماراً وأخذنا نتناوب ركوبه ، وعرضت على سعد أن يركب أولا ، نصف المسافة ، ثم أركب أنا بعده النصف الثانى ، ولكنه رفض وقال لى : إنك الأكبر سناً ، فيجب أن تكون الراكب الأول ، وشكرت

سعد على ظرفه ، وركبت حتى منتصف الطريق فنزلت وركب سعد ومضينا فكان سعد راكباً وأنا أسير وراءه راجلا ، فتقدم القوم يرحبون بسعد ويؤهلون به على أنه هو السيد وأهملونى على أنى تابعه » .

* * *

وكان سعد يرتدى الجبة والقفطان والعمامة ، فلما أصبح باشمعاون مديرية الجيزة خلع العمامة والجبة والقفطان ، واحتفظ من ملابس الأزهريين بعباءة من الصوف الأحمر ، فلما اشتغل بالمحاماة عقب الاحتلال البريطانى كون ثروة طائلة وتردد على صالون نازلى فاضل ، ولما اختلف على يوسف مع زميله أحمد ماضى أبو العزائم على شركة المؤيد ، أرسل سعد مائة جنيه للشيخ على ، وكان مكتبه بباب الخلق .

* * *

ولكن سعد باشا لم يقنع بالمحاماة وتطلع إلى مكانة أعلى وكانت قصة دراسة اللغة الفرنسية وامتحانه فى القانون فى باريس :

. . وكان قد بلغ سعد باشا الذروة فى المحاماة ونال من صيتها ومجدها ما لم ينله سواه ، وكان أن عين قاضياً وكان هذا التعيين الأول من نوعه ، وجد سعد باشا عند تعينه قاضياً أن الجو الذى يحيط به قد تغير وأنه ينفعه فى هذا الوسط الجديد شىء ليعرف كيف يأخذ مكانه اللائق ، حتى كان فى مجلسه مع أحد المستشارين الأجانب زملائه أثناء مداولة فى دعوى من الدعاوى ، إذ دعاه ذلك المستشار الأجنبى إلى السكوت حيث أن الأمر فى تلك القضية يستوجب البحث القانونى فى المراجع الفرنسية ، ونال هذا من نفسه ومن يومها أخذ يدرس الفرنسية ثم أخذ يدرس القانون ، وكان يستعين بالمرحوم رشدى باشا ، وعند ما أتم دراسة السنين الثلاث لدراسة القانون واجتاز الامتحانين الأولين سافر إلى باريس لأداء امتحان الليسانس .

وكان الامتحان شفوياً ، وجلس أمام العلامة كولان وكان شاباً فعجب عند ما رأى سعداً وهو كهل شرقى يتقدم إلى الامتحان ، فسأله عن اسمه وبلده وصناعته فلما علم أنه مستشار فى محكمة الاستئناف بمصر وعرف همته لنيل الليسانس أكبر منه هذا ، وسأله سؤالا عن الأموال Les biens فابتسم سعد باشا وطلب منه أن

يسأله غير هذا السؤال ، فلما سأله عن السبب أجابه بان هذا الموضوع قد بحثه بحثاً مستفيضا وله رأى جديد فيه قد ضمنه حكماً استئنافياً له ، ثم أفاض بعد ذلك فى شرح الآراء الفرنسية ، والآراء المصرية .

وأعقب ذلك برأيه الخاص فذهل الأستاذ كولان وقال له : إنك رجل قانونى نابغة .

ثم سأله سؤالا فى الشريعة الإسلامية وحكمها فى المعاملات فأفاض سعد مقارناً بالقانون المدنى الفرنسى .

فأعطاه الدرجة النهائية وقدمه إلى كل الأساتذة الممتحنين ، وامتحنه أستاذ قانون العقوبات (جارو) .

فأثنى عليه . وامتحنه (شارجيه) أستاذ القانون الاقتصادى ، ولم يكن سعد قد عنى بدراسة هذا العلم الجاف ، فسأله الأستاذ عن العلة فى أن الناس يتعاملون بالذهب والفضة ولا يتعاملون مثلا بعملة من عيدان الكبريت ، وهذا موضوع طويل فى علم الاقتصاد .

ولم يكن سعد يعرف عنه شيئاً ولكنه أجاب بمعلوماته الخاصة .

وعند امتحان القانون التجارى صحبه الأستاذ كولان إلى الأستاذ ليون كان فدخلا عليه وكان رجلا هرماً أشيب لحياه فرفع عيناً واحدة ولم ينبس ، فقدم الأستاذ كولان سعد إليه على اعتباره مستشار بمحكمة الاستئناف المصرية فلم يزد (كان) إلا أن أشار بيده « اجلس » وتركهما كولان .

وظل يسأله بعد ذلك أسئلة شديدة . وأعطاه نصف الدرجة المقررة فتألم سعد لأنه أجاب خير إجابة .

ولكنه عرف من بعد أنه قد استطاع أن يحرز الدرجة التى قلما ينالها ممتحن فى جامعة باريس .. » .

* * *

وحدثنى عبد المجيد نافع عن سعد زغلول .. قال : إنه محدث أكثر منه خطيباً ، يتكلم باللغة الدارمه وتتخلل كلماته عبارات فى قمة البلاغ ، يقلب القاف كافاً ولعله

أخذها من سلامه حجازى . قال لى : أكعد (أى أقعد) .

وكان سعد ذواقة فى الأكل، ومطبخه كمطبخ الأمراء ، دعانى يوماً ليملى على ، وكان لسعد ذاكره جبارة وظل يملى من الساعة التاسعة إلى الواحدة ، حتى جاء طاجن فريك بالحمام المحشى ، وله ممرضتين يشرفان على علاجه ، فلما مضى فى الطعام جاء طبق «أم على» فانهال عليه فسحبت إحدى الممرضتين الطبق من غير استئذانه لمرضه بالسكر فقال لها : عندك حق .

كان لعامل الشباب يرفق لاستخلاصهم لنفسه ، أما الكبار فكان يتعالى عليهم

* * *

وحدثنى عبد المجيد نافع عن طريقته فى الخطابة فقال إنه متأثر بميرابو . . كما تأثر بكتاب عن لامرتين الخطيب لمؤلفه لوى برتوا ، الأسلوب المجنح .

خطيب امام سعد زغلول بعد أن عاد من المنفى فقلت :

« أرادوا بداءه ذى بدء أن يكون الطريق الذى يسلكونه إلى غايتهم مظلماً ، والحارس غير موجود (يقصد سعداً) ، ولما كانت الصحافه هى المصباح الذى يضىء للأمة دياجى الخطوب وكان سعد هو حارس الأمة الأمين فقد مدوا إلى الاثنين يداً مجرمة ، فحطموا المصباح وأبعدوا الحارس إلى سيشل . ولكن خاب فألهم فلأن حطموا المصباح فان لنا من اخلاصنا نوراً . ولأن ابعدوا الحارس فقد أصبحت الأمة بأسرها حراساً ايقاظاً زعاليل » . .

أما فى المرافعة فقد أعجبت بأسلوب كبار المحامين الفرنسيين ، والطريقة هى أن أقرأ دوسيه القصة قراءة دقيقة عميقه ، واعلم بخط أحمر على النقط المهمة ، أعيش مع شخصيات القصة ، لا أكتب مرافعة ، وإنما أكتب نقطاً مرتبة ، أقدم الأدلة وقليلا أن أفترض فروضاً خير له ، أبحث عن أحد فى القضية (غلس) هو بطل المأساة فأحمل عليه حملة عنيفة ، تصادف هوى فى نفوس الكل ، اللغة تطاوعنى ، مع روح التكلم والسخرية فى المرافعة ، والفرنسيين يشترطون فى المحامى أن يكون أديباً .

* * *

وفى مجال المحاماه قصص وصور ، فهذا حسن نبيه المصرى يروى قصته مع الشيخ محمد عبده :

« كانت هناك جريدة تدعى «حمارة منيتى» يحررها صحفي يدعى محمد توفيق وكان بعض خصوم الشيخ محمد عبده يحرضه على انتقاده ، فني ذات مرة نشرت هذه الجريدة صورة للشيخ مع طائفة من الفرنجة على أحد جبال سويسرا ومعهم كلب وزجاجة خمر ، وبينهم بعض السيدات وعلقت الجريدة على هذه الصورة بعبارة شديدة مثيرة.

فاستنكر بعض الناس الصورة وخاصة أنصار الشيخ محمد عبده ورفعت النيابة على توفيق دعوى قذف ، فذهب يلتمس المحامين للدفاع عنه وأخذوا يتنصلون، وجاءنى الرجل يبكى ويرجو فى أن أتوكل عنه ، فقبلت هذه الوكالة مع علمى بحرج موقفى ، وتحدد نظر القضية أمام محكمة الموسكى وكان رئيسها أحمد قمحة ، وكانت لها ضجة فازدحم الجمهور فى داخل المحكمة وخارجها ، وكان المحامون من أكثرهم ازدحاماً ليسمعوا ما أقوله ضد الشيخ محمد عبده .

وأذكر أننى قلت : أن المتهم لم يخرج عن كونه ناقداً بريئاً فقد كان يريد أن يرى الأستاذ الإمام فوق جبل عرفة الذى يحتشد فيه المسلمون لا جبل سويسرا الذى يزدحم فيه الأوربيون وأخذت أبين للمحكمة وجهة النقد فى الصورة وبعدها عن القذف فحكمت المحكمة بحبس المتهم ثلاثة أشهر .

وعلى أثر هذه القصة أرسل الشيخ محمد عبده ويدعونى لمقابلته وصافحنى قائلاً :
« لو كنت أعلم إنك ستترافع فى هذه القضية لو كلتك أنا عن توفيق .. »

* * *

وإذا كانت فى مهنة المحاماه عبره فهذه هى على لسان أحد محامى الجيل الماضى « تعلمت من المحاماه أشياء وأشياء ، وعرفت فيمن عرفت من كبار رجال المحاماة من كانوا يعلمون الناس ، كان هؤلاء إذا جاء من يوكلهم فى الدفاع عن قضية من القضايا أبوا أن يرتبطوا بهم إلا بعد أن يقفوا منهم على دخيلة نفوسهم ، فإذا كانوا قتله مثلا كان عليهم أن يصارحوهم بما ارتكبوا فإذا رفضوا ذلك اعتبر المحامون دفاعهم عنهم إخلالا بواجبهم ، وكان بين المحامين من يرفض الحضور عن قاتل إذا أعتقد أنه قاتل دون النظر إلى أى اعتبار مادى ، لأن الحق فى مدلوله هو الحق فى معقوله .

وقد رأيت على ذلك المسرح الفسيح ، أن العدالة السماوية لا تترك القصاص إلى

يوم القصاص ، وإنما تعجل ببعض هذا القصاص هنا قبل أن تأخذه هناك ، وإن عدالة السماء لا تخفى عليها خافية » .

* * *

ولا نستطيع أن نمر بهذا القطاع دون أن نذكر صيحة عبد السلام ذهنى التى هزت الدنيا فى الثلاثينات حينما رفض أن يصدر أحكامه فى المحكمة المختلطة إلا باللغة العربية ، وقد كان الدكتور ذهنى من أعلام الحركة الوطنية ، ومن الباحثين فى مجال القانون والسياسة والفكر ، ومن خلفاء عمر لطفى ، وتلاميذ جاويش ، وقد أتيح له أن يرقى حتى أصبح من قضاه المحكمة المختلطة ، التى كان معقل النفوذ الأجنبى ، فلما أن ولى العمل، ووكل إليه إصدار الأحكام فى القضايا حتى أصدر أحكامه باللغة العربية فكان لهذا العمل دوى القنبلة ، وظل موضع الجدل الشديد فى صحافة مصر ، وصحافة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا شهوراً عديدة ، كيف تصدر الأحكام لأول مرة فى المحكمة المختلطة باللغة العربية ، ومن ثم امتنع رئيس المحكمة المختلطة الفرنسى الجنسيةمن إعطاءالمستشارذهنى قضايا جديدة ، ومع ذلك فقد ظل عبد السلام صامداً للموقف واثقاً من أنه على الحق. وقال فى جرأة وثقة واعتداد : أنه لم يخالف القانون الذى يسمح بأن تصدر الأحكام بإحدى اللغات الثلاث ، وأنه فى تمسكه باللغة العربية إنما يقوم بواجبه القانونى ، وإن كان لهذا التمسك رابطته الوثيقة بإحياء اللغة العربية وتكريم اللسان المصرى القومى الذى تصدر الأحكام فى بلاده ، إننى أحيي هذه اللغة التى عدت فى المحاكم المختلطة وكأنها ميتة لا وجود لها » .

١٦

من الحريم إلى أبريق الورد

١٦

من الحريم إلى أبريق الورد

خرجت المرأة الشرقية من الحريم ، في سنوات قليلة ، فلم تلبث أن شوهدت في كل مكان ، كان طريق خروجها مضيئاً ، فإن عائشة الباعونية في الشام قد جلست في المسجد تقضي وتفتي ، قبل دعوات التحرير التي حمل لوائها الرجال ، والشيخة فاطمة العوضية في مصر اتجهت إلى الأزهر وتعلمت في المعهد الأحمدي في طنطا وتقدمت إلى العالمية ، ومنذ عاد رفاعة الطهطاوي من فرنسا وقد حمل لواء الدعوة إلى تعليم المرأة وعارض القائلين ببقائها جاهلة ، فلما جاء جمال الدين الأفغاني إلى مصر كان الحديث عن المرأة يدور في مجالسه ، فقد روى إبراهيم الهلباوي أنه كان جالساً مع جمال الدين وكان معهما « إبراهيم اللقاني » وجماعة آخرون في الجزيرة بين المزارع فمرت من بعيد سيدة أجنبية راكبة جواداً فلما لمحها جمال الدين قال مخاطباً اللقاني دون أن يلتفت ناحية السيدة :

ما أحسن ما تتمنى يالقاني ، فأجابه : أن تكون لي زوجة كهذه السيدة ، فأبدى السيد علامة الاستحسان .

* * *

وفي عام ١٨٩٠ ظهرت أول مجلة تحررها فتاة هي مجلة الفتاة لهند نوفل ثم مجلة فتاة الشرق للبيبة هاشم .

بل لقد ورد أن فتاة كانت تخطب في احتفالات الثورة العرابية ذكرها عبد الله نديم في بعض كتاباته اسمها « زينب ضيف » كانت تقف في محافل الرجال في الاسكندرية وتقول : هل يرضيكم أن يعيش نصفكم ويموت نصفكم الآخر ، إن العلم هو الحياة والجهل موت زؤام ، وإن المرأة لها في أعناقكم حقوق ولها عندكم واجب وهو أن تعلموها .

وفي هذه الفترة وقبل أن يظهر قاسم أمين ظهرت فاطمة الأزهرية التي علمت

عائشة التيمورية ، والشيخة فاطمة التى تعلم فى كتابها لطفى السيد ، وظهرت فاطمة العوضية الطنطاوية ، التى جاورت فى المسجد الأحمدى بطنطا . وكانت تدرس على الشيخ الحفناوى ووصفها زملاؤها بأنها كانت جيدة المنطق والفهم ، كثيرة النقاش والحوار .

وقد وصفها زملاؤها بأنها كانت جيدة المنطق والفهم ، كثيرة النقاش والحوار صابرة على صعوبة الدروس ومشقة التحصيل ، وقد ثابرت على الدرس حتى تقدمت للشهادة العالمية الأزهرية ، وكانت لجنة الامتحان تطوف على المعاهد الملحقة بالأزهر لإمتحان طلبة الشهادة فيها ، وكان ذلك عام ١٩١١ فوجئت اللجنة بعد وصولها إلى المسجد الأحمدى بالشيخة فاطمة من الممتحنين ، فقالوا : شيخة من الأزهر .

وتقدمت فاطمة إلى اللجنة ثابتة الجنان وكان موضوع درسها فى علم الأصول .. وهو باب عويص ثقيل فيه اشكالات وتعاقيد وقليل من الطلبة النابهين من يخدمه ، أما اللجنة فقد استقبلت الشيخة فاطمة بشىء من التهجم والعنف وأمطرتها وابلا من الأسئلة المعقدة ، أجابت على كثير منها ، ولكن اتجاه اللجنة كان على عدم تخريج امرأة تحمل شهادة العالمية ، من أجل هذا ، وبعد طال إحراجها أصابها الخور والضعف ولم تستطع إكمال الامتحان .

وكان لرسوبها أثر عميق فى نفسها فلم تلبث أن توفيت ولكن إسمها ظل حياً .

☆ ☆ ☆

وفى أواخر القرن الماضى علت صيحة قاسم أمين وأحدثت ضجة مرتين ، الأولى عندما ظهر كتابه تحرير المرأة ، والأخرى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى . وفيما بين ذلك برزت « زينب فواز » هذه الفتاة العربية المسلمة التى قدمت من جبل عامل فى لبنان ، واستطاعت أن تشق طريقها فى صحف مصر فبدأت تكتب منذ سنة ١٨٩١ قبل أن يصدر كتاب تحرير المرأة سنة ١٨٩٩ .

وفى عام ١٩١١ ألقت « ملك حفنى ناصف » المسماة باحثة البادية خطاباً فى الجامعة المصرية الأهلية حيث قالت « إن كان لفئة ما أن تجتمع وتبحث فى شؤونها فلا أحق منا نساء مصر وفتياتها أن نكون تلك الفئة ، فإننا على درجة من التأخر تؤلم نفس المتفكر فيها ويرجع بالوطن خطوات واسعات فى سبيل التقدم » وتحدثت عن طريقة التربية فقالت إنها إحدى طريقتين : إما القسوة أو التدليل وكلاهما مضر ،

فالقسوة ترهق الطفل وتعلمه الذل والتدليل يطرح به فى مهواة الغرور .

وقد كتبت « ملك » فصولا فى جريدة الجريدة تحت عنوان النسائيات . ثم جمعتها فى كتاب لقى من أقلام الكتاب تقديراً كبيراً

ومن تركيا قدمت إلى مصر سنة ١٩٠٩ الكاتبة « خالده أديب » التى كانت تخطب وتكتب وتدعو إلى تحرير المرأة ، وقد انضمت فى مصر إلى الحزب الوطنى وألقت الخطب ضد الانجليز لأنهم كانوا يشجعون اليونان على احتلال أرمنية وإنشاء ولاية أرمنية فى شرق الأناضول .

وبرز اسم عائشة التيمورية كشاعرة لها دوى ، وكان ذات صلة بالشاعر العلامة حفنى ناصف وكانت تعرض عليه قصائدها .

وفى ثورة ١٩١٩ ظهرت شفيقة أول شهيدة من النساء فى ثورة ١٩١٩ . وكانت قد خرجت فى ميدان القلعة تقود مظاهرة فسقطت برصاص الإنجليز ، ولكن المرأة المصرية واصلت احتجاجها ، فخرجت مظاهرتين للنساء فى شهر مارس ، وصف إحداها الشيخ عبد الوهاب النجار فى مذكراته فقال :

« لقد ألفن موكباً فخماً يتقدمه أربعة من طلبة الأزهر أمسك كل واحد منهم بطرف العلم المصرى منبسطاً ووضع الصليب داخل الهلال موضع النجوم ، ولم يسبق لى ولا لأحد أن رأى مثل ذلك قبل اليوم » .

وسارت السيدات فى صفين على جانبي الطريق تتوسطهن واحدة منهن حاملة علماً أبيض علامة السلام ، وبلغ عدد السيدات المنتظمات فى صفين ٣٢٠ سيدة ، سرن صفاً واحداً بعرض الطريق . وفى أيديهن عرائض ، وطافت السيدات فى موكبهن أهم شوارع القاهرة ، وقصدن إلى الوكالات السياسية وسراى عابدين يحملن العلم وهن يهتفن لاستقلال مصر ، وسقوط الحماية الانجليزية والظلم ، وسرن إلى منزل سعد زغلول فحال الجنود بينهن وبين الوصول إليه ، وصوبوا البنادق إلى صدورهن ، فتقدمت حاملة العلم إلى الضابط الإنجليزى القابضة يده على المسدس وقالت وهى تكشف عن صدرها بيدها اليسرى : « هذا صدرى فهات ما عندك ، نحن لانهاب الموت » .

وظلت واقفة مكانها والضابط أمامها برهبته وهيبته ، ولم يلبث أن انثنى بعدها خجلا ، خافضاً سلاحه ، هاتفاً لعساكره « افسحوا الطريق » .

* * *

ثم لم تنى الصورة أن تغيرت ..

فلم يلبث أن ظهر صالون « مى زيادة » يقول سليم سركيس ، مساء كل يوم ثلاثاء يتحول منزل الياس زيادة صاحب جريدة المحروسة فى القاهرة إلى منزل فخم فى باريس وتتحول الفتاة السورية التى لا تزال فى أواخر العقد الثانى من عمرها إلى مدام دى ستايل وعائشة الباعونية وولاده بنت المستكفى ووردة اليازجى فى شخص ومدارك الآنسة مى .. ويتحول مجلسها إلى مزيج من سوق عكاظ والأكاديمى ، وتروح المباحث الفلسفية والعلمية والأدبية فى مجلس بحضرة : إسماعيل صبرى ، ولطفى السيد ، وشبلى شميل ، وخليل مطران ، وأحمد زكى باشا ، جميعهم يهزون بأحاديثهم ومناقشاتهم أغصان شجرة ذات ثمر ، ويحركون وردة ذات أريج عطر ، والآنسة بينهم تناقش هذا وتدفع حجة ذاك ثم ينصرفون ... »

وكان إلياس زيادة يؤدب بين حين وحين مآدب شائقة فى داره . وفى واحدة منها عقدها بمناسبة شفاء الآنسة مى من المرض جلس سليم سركيس ووصف الندوة « وبين المشروبات جرت العقول والألسن فى ميادين المسامرة والنكات الرائعة ، والنوادر المنعشة واشترك الخواجة ناصيف وقرينته فى الضرب على البيانو والإنشاد ، وأطربنا الدكتور أدوار شميل بلحنه ، والآنسة مى ضرباً على البيانو ، وإنشاداً عربياً ، وكان واسطة العقد سامى أفندى شوا ، ومعجزاته على الكمنجة ، ولما تناصف الليل انتقلنا إلى المائدة وهى مثال السخاء وحسن الذوق فلم نبق ولم نذر »

* * *

هذه مطالع صورة « مى » التى كانت موضع الاقتتال بين الأدباء ، حتى يقال إن الخصومة بين الرافعى والعقاد كان مصدرها هذا الصالون ، ولقد ألف الرافعى كتاباً

اسمه « أوراق الورد » نشر فيه رسائله إلى مى ، وقد ربط بين أوراق الورد وبين غرام « مى » بشراب الورد ، وكان أبريقه هو روح ندوتها ودرة صالونها .

ولم تلبث هذه الطالع الباهرة أن تحولت إلى غيوم وسحب .. اضطرمت فى أعماق حياة الفتاة فانتزعت من مجدها ، فى أوج شهرتها ، والهلال ، والأهرام ، والصحف تنشر لها آثارها فى صفحاتها الأولى ، انتزعت وأودعت فى نفس المستشفى الذى أودع فيه من قبل السيد توفيق البكرى : مستشفى المجانين فى العصفورية .

لقد توفى والدها عام ١٩٢٩ ، ثم توفيت والدتها عام ١٩٣٥ ، ودخلت فى مطامع بعض أهلها ، وكانت قد سافرت إلى إيطاليا وقالت بعض كلمات ضد « موسولينى » ولم تلبث أن تضافرت الأحداث على خلق جو من الشعور بالاضطهاد ، وأشاع بعض أهلها أنها أصيبت بالجنون فنقلوها إلى مستشفى العصفورية .

وهناك عاشت سنوات قاسية ، حرم عليها تعاطى السجاير ، وبقيت تقاسى ظلم الأهل ، وصمتت كل الألسنة التى كانت تلهج باسمها ، أو تكتب لها عبارات الشوق ، وهناك ضعفت وشحب لونها ، وقال الأطباء إنها ليست مريضة .

ولكنها استمرت فى المستشفى ، ونقلت من مستشفى العصفورية إلى مستشفى آخر بمسعى أحد أقاربها ، وزارها أول أديب « فيلكس فارس » بعد عامين . ثم زارها « أمين الريحانى » وبعد جهود اتصلت بالنيابة ، استطاعوا أن يفرجوا عنها فأقامت فى رأس بيروت ، وسافرت إلى الفريكة فى ضيافة الريحانى حيث أمضت بضع أسابيع .

ثم عادت إلى مصر ، فأمضت عامين فى شبه عزلة ، وردت إلى الأدباء رسائلهم وامتنعت عن أن تلقى أحداً ، فى هذه الفترة كتبت خواطرها :

« أنا امرأة قضيت حياتى بين قلمى وأدواتى وكتبى ودراساتى ، وقد انصرفت بكل تفكيرى إلى المثل الأعلى وهذه الحياة « الأيديالزم » التى حييتها جعلتنى أجهل ما فى هذا البشر من دسائس ومحاولات ، أجل ، كنت أجهل الدسيسة ، وتلك النعومة التى يظهر بها بعض الناس ويخبئون تحتها السم القتال ، ولو كنت على معرفة بهذا النوع

من أخلاق الناس لـكنت قاومت الدسيسة بمثلها ، وقاومت المحاولة بمحاولة ، ولما قادنى حسن ظنى إلى الاستسلام والاطمئنان ، أو بالأصح إلى هذه المحنة التى لا يمكن أن يكون التاريخ الإنسانى طوى على أوجع وأفظع منها .

أنا صحفية وبنت صحفى ، لم يوجد بهم واحد يسأل عن « مى » ويتحرى حقيقة جنونها . ولم يوجد واحد بينكم يفكر فى زيارتها ، أين لبنان الذى طويت ضلوعى على حبه . لبنان الذى تغنيت فى الجرائد والـكتب والمجلات ومن فوق المنابر بجماله وبجباله ، تلك مكافأة لبنان لإبنته ، إهمال وتغاضى ..

سبعة أشهر قضيتها فى العصفورية فى لبنان ، فى تلك الغمرة من الألم واليأس والعذاب دون أن يهتز عرق بالشفقة أو لسان بالسؤال ..

* * *

وبرز اسم « هُدَىٰ شعراوي » سيدة القصر ، وابنه « سلطان باشا » الذى يحفظ له التاريخ دوره فى الاحتلال البريطانى . وكانت قد تزوجت على باشا شعراوى فى الرابعة عشرة ، فحملت لواء الدعوة إلى تحرير المرأة تقول :

« كنتُ فى طفولتى كمعظم أقرانى أتلقى مبادىء القراءة والـكتابة فى المصحف فحببنى القرآن إلى اتقان اللغة العربية ، وأوجد عندى رغبة شديدة فى الأدب العربى فاقتنيت بعض الـكتب المفيدة لمطالعتها ولـكننى رأيتنى لا أقوى على قرآتها لأنها خالية من الشـكل ، وسألت معلمى عن ذلك فقال : « لأنك لم تتلقى علم النحو » ..

ولقد كنا محجبات قبل سنة ١٩٠٠ وكان لا يجوز لواحدة منا أن تذهب إلى مخزن تجارى لـكى تشترى ملابسها بنفسها ، وجاء السفور بعد سنة ١٩١٩ فإنه لما هبت الأمة هبتها فى تلك السنة وخرجت المظاهرة خرجتُ وأنا أحمل علمها وسرنا ونحن سكوت بين بنادق الإنجليز وتصفيق المواطنين إلى أن بلغنا دار سعد وكنا محجبات . أما السفور فجاء عام ١٩٢٠ بعد العودة من مؤتمر روما .

* * *

وتحدثت « نبوية موسى » عن أسعد ساعات حياتها فقالت . « إن أسعد ساعات حياتى تلك التى تلقيت فيها نبأ نجاحى فى امتحان البـكالوريا سنة ١٩٠٧ فقد تقدمت

إليه برغم نصح المستر دنلوب مستشار الوزارة حينئذ لى بالعدول عنه إشفاقاً من رسوبى ، كما رسبت الفتاة المصرية الأولى التى سبقتنى إلى دخول ذلك الامتحان .

وظهرت النتيجة ، فلم أكد أعلم بنجاحى حتى خرجت من المدرسة السنية وركبت الترام إلى المنزل والدنيا لا تسعنى .

وأذكر أن الكمسارى قد أساء فهم مرحى وضحكى ، فتمادى فى الإعجاب بى إلى حد أننى قفزت هابطة من الترام وهو يسير بأقصى سرعة ، فلما وصلت المنزل ازداد فرحى إذ وجدت برقية من سعد زغلول باشا وزير المعارف .

وقد ظللت المصرية الوحيدة التى تحمل البكالوريا إحدى وعشرين سنة إذ لم تحملها مصرية بعد إلا فى سنة ١٩٢٨ .

• • •

وبرزت « منيرة ثابت » ولمع اسمها على الصفحات الأولى من الصحف والأهرام على الخصوص ، وكانت صورة الغلاف فى المصور سنة ١٩٢٤ لأنها نشرت فى مجلتها (الأمل) كلمات هاجمت فيها النائب العام الانجليزى فلما سألت فى ذلك قالت :

سُئلت

« لا غرابة أن تحقق النيابة معنا ، فالكاتبات الصحفيات أصبحن كالصحفيين معرضات لمثل هذه المفاجئات ، اللذيذة التى أبدأ أنا اليوم بتذوق لذاتها .

ووقع الخلاف بينى وبين زميلى عبد القادر أفندى حمزة « نزاع ودى » لأننا أخذنا نتنازع مهمة الحضور أمام النيابة ، هو مصر على الحضور وتحمل المسئولية ، باعتباره المدير المسئول عن الجريدة ، وأنا أصر على الحضور بصفتى صاحبة الجريدة .

واستمر هذا النزاع بيننا إلى أن قال لى رئيس النيابة : « لا نريد منك أن تتبرعى بتحمل مسئولية لا يرتبها عليك القانون ، فامتثلت متذمرة ، وقد أردت أن أثبت فى المحضر عند استجوابى أننى وأن كنت لا أباشر تحرير الجريدة إلا أنى موافقة على كل ما نشر فيها .

• • •

قال داود بركات (فى افتتاحية الأهرام) : يطالع النـاس خبر استدعاء النيابة للآنسة منيرة ثابت صاحبة الأمل العربية الأسبوعية ، فيمرون بالخبر مرورهم بكل خبر من الأخبار ، ويطالعون خبر التحقيق مع الفتاة الـكاتبة من نقد المسيو فون دن بوش النائب العام أمام المحـكمة المختلطة .

فإذا كان المصرى لا يجد اليوم فرقاً بين كاتب وكاتبة وصحفى وصحفية وشاب وفتاة فى مهمة الأدب والقلم فإنه لا يجد فرقاً فهل كان ذلك منذ ثلاثين سنة ، بل منذ عشرين ..

وإذا كان هذا الذى نراه اليوم ونعده أمراً طبيعياً قد وقع منذ عشرين سنة فهل كنا نعده مقبولا أو معقولا » .

• • •

ولقد كتبت منيرة مقالات مثيرة ، ودعت إلى حق الانتخاب للمرأة . وتعديل شروط الزواج والطلاق . وانصافها فى الميراث ومنع تعدد الزوجات فى صيحات عاطفية عنيفة .

وقد أتيح لها أن تمثل المرأة المصرية فى عديد من المؤتمرات النسوية فى أوربا ، مع هدى شعراوى كما شاركت فى المظاهرات والحركة الوطنية .

وإلى جوار منيرة ثابت وهدى شعراوى ظهرت أسماء كثيرة منها سيزا نبراوى ، واستر فهمى ويصا .

* * *

وفى مجال الـكتابة ظهرت أسماء كثيرة .

وفى الثلاثينات أحرزت نعيمة الأيوبى الدكتوراه من فرنسا وكانت من أوائل المحاميات .

ثم لم تلبث أن عملت مدرسة للتربية الوطنية بمدرسة البنات الثانوية بالقاهرة وكتب توفيق حبيب فى هامش الأهرام « يقول » لم ننس بعد تلك الضجة التى أقامها بعضهم فرحاً بها واستبشاراً بلبسها « الروب الأسود » ووقوفها أمام المحاكم مطالبة بإخلاء هنا ومصاريف هناك ، ولم تـكن نعيمة أول مصرية أحرزت شهادة كلية

الحقوق ولكنها أول مصرية قبلت للمرافعة أمام المحاكم الأهلية » .

ولكن الدكتورة نعيمة سافرت إلى أوربا مرة أخرى سنة ١٩٣٦ وعادت بعد حصولها على دبلوم الخدمة الاجتماعية وشقت طريقاً آخر ..

* * *

وصورت « أسماء فهمى » كيف امتحنت الفتاة الجامعية لأول مرة قالت :

« إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه ، ولا مفر إذن من الإقدام على هذه المغامرة واقتحام باب الجامعة ، على أنى شعرت بشىء كبير من الاطمئنان عند ما علمت أن سيدتين مصريتين قد سبقتانى إلى الميدان الجامعى ، بيد أن هذا التمهيد لم يؤثر إلا قليلا فى تخفيف ما شعرت به من الهم عند ما وجدت نفسى لأول مرة وسط قاعة المحاضرات الرحبة بالجامعة ، وتبينت أن مئات العيون تصوب إلى ، على أن زميلتى وقد أنضجتها تجارب الاشتراك فى الثورة المصرية كانت من الشجاعة ورباطة الجأش بدرجة ألقت فى روعى شيئاً من الهدوء والسكينة .. وكان الذهاب للجامعة أمتع وسائل اللذة والترويح لنا على الرغم مما كان يعترض طريقنا من مضايقات .

ولم يصبح ظهورنا فى الجامعة شيئاً مألوفاً إلا بعد أن صمدنا لعدد من التجارب القاسية ، فقد كانت كل حركة من حركاتنا تحصى علينا بدقة ، فإذا أسرعنا الخطى للحاق بالترام المار أمام الجامعة سخر منا الطلاب وقالوا : ويحهن ، أيركضن كما يركض الفتيان ، وهل ذلك من شأن الحسان . وإذا انتحينا جانباً لنتناول كوباً من الماء انتهز الخبثاء من الشبان هذه الفرصة لاختلاس النظرات إلى وجوهنا عند رفع النقاب .

* * *

وقد تحدثت عقيلة قاسم أمين بعد وفاته أكثر من مرة ..

قالت : إنما كان قاسم ينادى بالسفور الشرعى الذى لا يزيد عن اظهار الوجه أو اليدين والقدمين ولايتجاوزه إلى إظهار العورات ، أو إلى اختلاط المرأة بالرجل على النحو الواقع الآن ، وإنى أعتقد أن قاسم لوكان حيا لما رضى عن هذا الحال

بل لا نيرى لمحاربتها ويحزننى أن أرى الكثيرين يحمّلون قاسم مسئولية ما تطورت إليه الأمور ، وقالت : لقد كنا وزوجى نمضى سهرات سعيدة فى بيت الأمة مع سعد زغلول وصفية زغلول ، وكنا نستمر فى كثير من الشئون العامة ، وكان زوجى يقصد من الدعوة إلى السفور أن ينهض جيل جديد يقاوم الحياة بأخلاق وتقاليد مبنية على الكرامة والإعتزاز بالنفس ، ولم يكن يقصد أن تنزع سيدات عصره حجابهن ،وقد حرصت على بقاء الحجاب بعد زوجى الذى توفى فى الخامسة والاربعين وكان يكبرنى بخمس سنوات .

١٧

سهرات الفن

سهرات الفن

ومن ندوات الأدب إلى سهرات الفن ، تبدو الصورة أشد تألقاً وروعة ، فهنا صورة عبده الحمولى ، وسلامة حجازى ، وسيد درويش ، وبيرم التونسى والريحانى وكامل الخلعى ويونس القاضى .

وهذه نهاية القرن التاسع عشر ، على لسان أحد معاصريها تعطى صورة اليقظة فى كل صورها ، حتى فى ميدان الغناء والموسيقى ، فى محاولة لظهور الطوالع القومية . متجددة ، مبتكرة ، تحاول أن تغوص فى أعماقها ، وتتخلص من التقليد ، من البشارف التركية ، والموشحات الأندلسية ، هنافنون جديدة تظهر ، على ألسنة وألحان رجال هم أيضا من صحن الأزهر .

* * *

« كان عبده الحمولى فى مصر كما كان إبراهيم الموصلى فى بغداد ، كلاهما إمام المغنين فى عصره ، وكما التف حول الموصلى جماعة ممن عاصروه فأخذوا عنه ، ثم تفننوا فى الذى أخذوه وحسنوا فيه ، كذلك التف حول الحمولى كثيرون فأخذوا عنه وتفننوا ، وكان أشهر هؤلاء محمد سالم ويوسف المنيلاوى .

قال عنه شوقى :

يخرج المالكين من حشمته الملك ... وينسى الوقور ذكر وقاره
يسمع الليل منه فى الفجر « ياليل » ... فيصغى مستمهلا فى فراره

وكان لعبده طريقة فى الغناء إبتكرها لنفسه فأنزلته المنزلة الأولى بين أرباب الفن الجميل فاقتبس المنيلاوى ماحلا له منها وحسن فيه حتى لقد كان يسمعه الحمولى نفسه فيقول « أخذ عنا فسبقنا » .

وأخذ عن الحمولى « عبد الحى حلمى » ، فأجاد فى تقليده إياه ، وسافر عبده إلى

الاستانة مرارا فاقتبس شيئا كثيرا ، من الغناء التركي وأدخله في الغناء العربي ، وقد حسنه وتفنن فيه ، روى أنه جمع في منزل حلقة من الفضلاء فغناهم حتى الهزيع الثالث من الليل ، وأنه لكذلك إذ أقبل عليه خادمه فأسر إليه أمراً فهب من موضعه معتذراً للقوم ، ومشى عابس الوجه مقطب الجبين ، ثم كانت ساعه ورجع إلى مكانه فجبس عوده وغنى أصحابه صوتا شجيا مؤثرا ، كان يشرق بدمعه في خلاله ، واستمر في الغناء حتى كان الهزيع الرابع من الليل ، فهم ضيوفه بالإنصراف فأقبل عليهم يحدثهم في أمره قال : إنكم شاركتموني في فرحي فلا تشاركوني في حزني كان له ولد وحيد أتاه الخادم بنعيه .

* * *

وإذا ذكرت الحمولي تبادر إلى ذهنك (محمد عثمان) .

فقد كان هذا الرجل إلى جانب عبده ما كان معن إلى جانب إسحق الموصلي . غير أن عثمان ابتلي بداء عقيم ذهب بجمال صوته ، فانصرف إلى تأليف الألحان فكان بصيرا يأخذ النغم من مؤلفها ويجمعها في نسق مستحب ، كلف بصناعته ، جادا في إتقانها ، أراد أن يستعيض عن حلاوة الصوت بحسن الأسلوب ولطف السياق ، وكان الشيخ عبد الرحيم المسلوب هو شيخ الملحنين (١٩١٠) وهو خير من أنشد الأذكار الصوفية في هذا العصر وهو راوية الغناء العربي في هذا العصر ، ومحمد سالم أحد أربعة يحق أن نسميهم بأئمة الغناء في مصر . نريد بالثلاثة الآخرين : عبده الحمولي ، محمد عثمان ، سلامة حجازي ؛ قال عبده الحمولي : أحسن الأصوات في مصر : سالم في الرجال وألمظ في النساء .

وكانت ألمظ زوجة عبده الحامولي ، قد إشتهرت بحسن الأداء ورخامة الصوت ، وفهم أسرار الصناعة .

كما عرفت ليلى بطلاوة الصوت وعذوبته ، وتوحيده والسويسية وبهية ، اللواتي يغنين عامة الناس اليوم في قهوات مصر » .

* * *

ويتحدث سليم سركيس عن صديقه عبده الحمولي وكيف بزغت عبقريته وهزت الآذان المرهفة والقلوب المحبة للفن :

« حدث سنة ١٨٩٥ أن كان جوق اسكندر فرح يمثل كل يوم أحد فى كازينو حلوان ، واتفق أن الشيخ سلامة حجازى دعانى إلى مرافقته ، فقصدنا حلوان مساء ووصلنا قبل موعد التمثيل بساعتين ، حتى إذا تركنا القطار سرنا إلى الكازينو عن طريق الحديقة ، وهناك قهوة مشهورة فرأيت جمهوراً من الناس جلسوا فى ناحية من الحديقة يحيطون برجل واحد جلس فى وسطهم كالقمر فى هالته وأكثرهم من وجهاء القوم والأعيان . فقلت للشيخ سلامة ما هذا الاجتماع ؟ قال : هو مجلس عبده . ولم أكن أعرف يومئذ . « بلبل الشرق ونديم الملوك » كل ما عرفته أنه رجل حسن الصوت ، فقال الشيخ سلامة : سر بنا إليه أعرفك به ، فسرنا حتى وصلنا فرحب عبده بالشيخ كثيرا وأوسع له مجلسا بجانبه . فرحب بى عبده وأدنانى منه وأجلسنى بجانبه وانصرف إلى محادثتى ، فقلت إننى عاشق لصوت الشيخ سلامة ، لأنه ينشدنى بصوته الجميل قصائد رنانة فتترك صوته الحسن مع المعانى الحسنة فى التأثير على وإحداث اللذة عنى ، أما سائر من أسمع من المغنيين فى المجالس الخاصة ، وفى القهوات فإنهم يزعمون كثيرا ، إذ يجلس الواحد منهم على التخت ويبدأ الغناء بدور من الأدوار يغنى (ياعينى خدك) ، ياعينى وخدك مايه مرة ، وتزيد إلى أن ينفر سمعى ويضيق صدرى ، وأريد أن أعرف ماذا يريد من خدك حتى إذا جاء آخر الليل وصل إلى النتيجة ففهمت أنه يريد أن يغنى « ياعينى خدك وردى » .

فابتسم عبده وقال : غدا تتفضل مع الأخوان للغداء عندى ، وفى نحو الساعة الحادية عشرة من الصباح التالى كنت فى حلوان وكان « عبده » رحمه الله ينتظرنى . . وقد أعد مأدبة يكفى أن يقال إنها مأدبة الحامولى وقد أدهشنى كرمه وإنفاقه يومئذ ، ثم مرت بى أيام وأعوام شهدت العشرات من أمثالها فلم أعد أستغرب وبدأ صاحبى يغنى قصائد ومقاطيع ، ثم بلغ الإبداع فى إنشاد قصائد ابن الفارض وأبى فراس ، ووالله ما غنى يومئذ دوراً واحداً من الأدوار المملة .

ودعته يومئذ ، ومن ذلك الحين بقينا نحو أربع سنوات لا نفترق ولا يرانا الناس إلا معا ، وكان يفاجئنى صباحا فى منزلى ، ومعه جوقته الكاملة ويقول « جئنا لنغنى ونأكل » .

وحدث ذات يوم من سنة ١٨٩٧ أن عبده الحامولى جاءنى فى منزلى يقول :

أنت أسيرى كل هذا النهار ، فقضينا يومنا فى التنقل من مكان إلى آخر على أتم ما يكون من المسرة والحبور ، حتى إذا كانت الساعة السابعة مساء وجدت نفسى معه على رصيف (النيوبار) فأمر باحضار العشاء وبسطت أمامنا مائدة الشراب ، وعبده يحدثنى بما لذ وطاب وبينما نحن كذلك جاء صاحب البار يقول : إن قوما يطلبون محادثة عبده فى بالتلفون ، فمضى قليلا وعاد يهز رأسه ، فقلت ما الخبر؟ قال جماعة من اخواننا يتمتعون بضيافة يوسف بك صديق ويطربهم محمد عثمان وقد بحثوا كل نهارهم عنى فلم يقتفوا لى على أثر ، ثم أدركونى الآن وهم يطلبون موافاتهم إلى هنا .

ثم عدنا إلى الحديث وإذا بزنجى فى عربة قد جاء برسالة من يوسف بك صديق وإن القوم ينتظرون عبده ، فانصرف الزنجى معتذرا وما مضت نصف ساعة حتى أقبل علينا عثمان باشا رأفت الفريق وباسيلى باشا القاضى فرحب عبده بهما وبعد أن جلسا أوعز أحدهما إلى الخادم أن يرد الطعام ، وطلبا من عبده أن يذهب معهما فاعتذر قائلا ، إن هذا اليوم خاص بنا .

وقال : إن رضى سركيس بالذهاب فأنا راض فتحولا إلى يدعوانى إلى منزل صديقهما فاعتذرت قائلا إننى لا أعرف أكثر الذين هناك .

فقال إن صاحب المنزل مشترك فى جريدتك .. فضلا عن أن عدم ذهابك يكدر جمهوراً كبيراً لأنك تحرمهم من صديقهم الحولى ، فأجبت دعوتهم .

ووصلنا إلى منزل المضيف فإذا به غاص بالوجهاء والاعيان فلما دخلنا احتفلوا بعبده احتفالا عظيما وتنحى محمد عثمان عن مجلسه له ، أما عبده فأراد أن لا أشعر بوحشة ، فأجلسنى بجانبه وأخذ يغنى ويطرب حتى أدهش من حضر ولبثنا كذلك حتى شابت ناصية الليل فانصرفنا وأردت أن أوصله إلى محطة حلوان فأبى ألا أن يوصلني إلى بيتي » .

* * *

وقد وصف الشيخ مصطفى عبد الرازق إنطباعاته وذكرياته عن عبده الحمولى : إنى وإن كنت غير موسيقى فإنى أحب الموسيقى بفطرتى ، حبا جما ، وقد حاولت فى عهد الشباب أن أتعلم بعض الموسيقى فلم يسعدنى الفراغ ، بل لم يسعدنى فراغ الاكثار من سماع الموسيقى ، وأحب أنواع الموسيقى إلى أبسطها وأسرعها تأثيراً فى العواطف .

وقد كان عبده الحمولى عبقرياً من الطراز الأول إستخلص من الأغانى المصرية التى كانت معروفة كل ما رجا أن يكون لحناً موسيقيا إنسانيا ، وألف فى ذلك على قلته أغانى نقل بعضها من أناشيد الخلود ، واقتبس عبده مما وصل إليه من أغانى الأتراك ، فلائم مذهبه فجمع ألحانا إنسانية أيضا لم يتناولها تقليدا ولكنه نفذ إلى أعماقها ، وصقلها بذوقه وفنه صقلا حتى تماثلت بما تم له من الألحان المصرية وألف من هذا وذاك ترانيم بهرت الذوق المصرى ، ولو أن عبده الحمولى عرف الموسيقى الغربية لاستخلص منها أيضا أبعدها عن التعقيد والتكلف ، وأدناها أن تكون غذاء للروح الإنسانى وراحة .

وقد كان عبده الحمولى نبيلا فى مذهبه الفنى ، كما كان نبيلا فى أخلاقه وشمائله وفى سيرته بين الناس ، وإنك لتدرك النبل فى جوهر صوته وفى كيفية أدائه واختياره للانغام وتأليفه بين الألحان وكان يتسامى بفنه عن التبذل والتكلف فلا ينحدر فى غنائه إلى مثل التكسر فى النبرات الخانعة الذليلة » .

* * *

أما سلامه حجازى فله سيرة معطرة ، وله جوه ومعجبوه ، وقد وصفه لطفى جمعه فى فصول من ذكرياته بأنه « كان متلافا للمال لم يعرف يوما معنى للادخار ، ولم يحسب للمستقبل أى حساب ، كان مسرفا فى معيشته وتأنقه ، وكان يركب مركبة تجرها الخيول المطهمة ، وكان يعطى من سأله على شرط أن يجتذب قلبه ، وقد دفع لفرح أنطون مائة جنيه ثمناً لرواية « ابن الشعب » ، كما أنفق ماله الكثير فى كل مكان ، وكان يبادر إلى الإحسان إلى أهل فنه فلا يترك معوزا ، وكان يعطى الفتيات اللواتى يلعبن على الفيولون أمام دار التمثيل العربى قطعا ذهبية من ذات العشرين فرنكا » .

ويتحدث سليمان نجيب عن ذكرياته عندما شاهد مسرح سلامه حجازى أول مرة سنة ١٩٠٥ وكان يسمى « التياترو المصرى » :

يقول : كان هذا المسرح معقل الشيخ سلامه رحمه الله فرقته التي كانت تعمل بدون منافس ، ومن كان يستطيع أن يقف أمام حنجرة هذا المغنى القادر الذى عاش ومات بين أصوات الاستحسان ودوى التصفيق كانت حلة رواياته السيدة ميليا ديان أميرة هذا الفن تمثيلا وإلقاء

وكان للكتابة نهج معروف وقتئذ هو السجع المتعمد فكتب له (إسماعيل عاصم) رواية « صدق الاخاء » على طريقة متى تصحو من سكرتك يانديم وتسلك طريق الهداية المستقيم ، وترجم له نجيب الحداد رواية شهداء الغرام عن شكسبير ، ولكنهم كانوا يكتبون للشيخ سلامه الممثل المغنى فوضعوا له القصائد البديعة الممتعة ، وكان الشيخ سلامة وهو يغنى وحيداً على المسرح لا تساعده فرقة موسيقية ولا تهيء له الجو نغمة ، كان موفقا وناجحا أكثر مما رأينا من مطربين ومطربات صاحبتهن الموسيقى ، السبب هو إهتمام الرجل بالوصول إلى درجة الكمال فى مسرحه وفى فنه والتضحية بكل ما يمكن لرفع هذا الفن الجديد ، أضف إلى ذلك كفاءته الفنية وصوته الصداح وقد بدأ حقا على أساس قوى محترم والذهب يسيل بين يديه والجمهور يتكالب على أبوابه وهو يقابلهم بابتسامة الواثق العارف ، أنه بدأ يكتب تاريخ المسرح المصرى فى داره التى ازدهرت بفنه عمرا قصيرا كعمر الورد .

* * *

وقد صور سلامه حجازى الفن قبل بروز عبقريته فى مقال بقلمه عام ١٩٠٦ قال صاحب دار التمثيل العربى :

« كانت الأغانى العربية فى الزمن الماضى ذات طرق متباينة ، لا ترجع إلى طريقة واحدة ولا تقف عند حد معلوم ، فكانت تختلف باختلاف المشتغلين بها ، وتباين أقسامهم فكان منهم المنشدون الذين كانت طريقتهم خاصة بهم لا تتعدى فئة أخرى من المغنين وما يقال عن هؤلاء يقال عن جماعة « الصهجية » حيث لزموا طريقة مخصوصة لا يجاريهم فيها أحد ممن نبغ من المنشدين ، الشيخ خليل محرم ، الذى نبغ من احترام الأمة له ، إننى لما كنت فى الاسكندرية صغيرا ، شاهدت المئات من الاهالى لما علموا أنه قادم عليهم من العاصمة إستعدوا لاستقباله وفتحوا له فى مجالسهم مكانا رحيبا ، ونبغ غيره ، الشيخ الشنتورى ومن نوابغ الصهجية : ابراهيم الملاياتى والصبان وابراهيم

النجار وأحمد حسنين ، هذا الأخير الذى عرفناه من عهد غير بعيد ، مغنيا على الآلات ، وممن نبغ على الآلات المرحومان عبده الحمولى ومحمد عثمان والمرحومة ألمظ وصا كنة الشهيرة .. » وقد إتصل بسلامة حجازى كثير من المثقفين الذين حاولوا العمل معه منهم الدكتور حسين الهراوى الطبيب النابغ والباحث الاسلامى يقول :

« أذكر أنى كنت طالبا فى السنة الثانية الابتدائية ولا أعرف من الخطابة والأدب شيئا ، ونجحت فكافأنى أخى الاستاذ محمد الهراوى بأنه إصطحبنى لمشاهدة تمثيل الشيخ سلامة على مسرح عبد العزيز ، فرفعت الستار ورأيت قوما يتكلمون بالعربية الفصحى ، ويمثلون تمثيلا متقنا ، وسمعت صوتا ملائكيا يرتفع فيهز القلوب فشغفت بذلك أيما شغف ، وكنت أدخر من مصروف يدى ثمن الكرسى الذى أحتله كل مساء خميس ، وعكفت على بعض الروايات أحفظها عن ظهر قلب وخاصة روايه صدق الأخاء لمؤلفها اسماعيل عاصم .

ولما كنا فى المدارس الثانوية إعتصبت ذات مرة فرقة الشيخ لتشل حركته فأعلن فى الجرائد عن حاجته إلى ممثلين متطوعين فطلبنا منه أن نمثل أمامه فكان كل واحد منا يمثل فصلا كاملا من رواية ويقلد أصوات الممثلين جميعا ، فابتسم الشيخ وسألنا : من نحن ، فأجبناه عما سأل ، وكأنى بالرجل ذهل إذا رأى طلبة صغار يضحون بمستقبلهم لأجله ، وأخيرا نصح لنا بأن لا نفعل ، وكانت هذه المقابلة أول عهدى بصداقة غير منبتة أو منقطعة بالرجل العظيم .

ولقد كان الشيخ ملتصقا بأعلام الأدب فى زمنه يؤلفون له ويعربون ، هذب روايات شكسبير وفيكتور هيجو وديماس ، وألبسها حلة خليقة بالجمهور المصرى فوضع أول نواة فى تطور الأدب المسرحى ، وإن كثيرين من المؤلفين الحاليين كانت أول شرارة فى عبقرياتهم تعود إلى مشاهدة تمثيل الشيخ وكثير من الخطباء كانوا من تلاميذ مدرسته .

وقد غنى الشيخ القصائد الغرامية إلا أن هذا كان غراماً أدبياً يحدد العاطفة بين الحب والواجب .

وهاك القطعة التى مطلعها :

إن كنت فى الجيش أدعى صاحب العلم

فإننى فى غرامى صـــاحب الألم . .

ولا أرانى فى حاجة إلى القول بأن الشيـخ كان يضع الأناشيد الحماسية فى فم الشعب وهو أول من جعلهم يغنون بالوطن والوطنية فى أناشيدهم .

وكان صوت الشيـخ سلامة فذا فى بابه ، فذا فى جماله . سواء أكان الشيـخ موسيقياً فناناً أم غير فنان فما من شك أن صوته كان كفيلا بجمع القلوب والأسماع حوله . وعقبة الشيخ أنه وجد فى زمن كانت الموسيقا العربية قد أخذت تمزق عنها أكفان الفناء . وكانت نهضة التخت ابتدأت بحياة عبده الحمولى ومحمد عثمان . وصوت الشيخ سلامة من الأصوت التى لم يخلق لها الملحن الذى يستغلها ..

فعبده الحمولى مثلا كان سر نبوغه أنه يلحن لنفسه . بعد إتقانه فن الموسيقى ، كما كانت أدوار محمد عثمان تلائمه . ولـكن الشيخ سلامة . كما يعرف من تاريخ حياته لم يسافر إلى الآستانة ولا زار المسارح الأوربية ولـكن عبقريته وحدها أوجدت سبيلا خاصاً بما تلقاه من أساتذة الفن فى ذلك الزمن وأشهرهم الياسرجى والشنشيرى ولذلك أوجد مكانته بنفسه .

وقد استفاد من الفرقة الأوربية التى كانت تمثل كل شتاء فى الأوبرا . وما كان الشيـخ ينقطع عن مشاهدتها . ولذلك أدخل الأوركستر فى جوقته وبدأ الأوبرا العربية التامة فى رويات تلماك وعظمة الملوك وغيرها .

وكنت ممن حضر بروفات (تلماك) وكان الشيخ يلتهب غيره ويقول إنه عازم عزما أكيدا على خلق الأوبرا الشرقية ، فالشيخ من هذه الوجهة أوجد فنا معدوما ، ولا ينـكر أحد أنه نهض بأدب الموسيقى ورقى مناهجها . نعم إن أبا خليل القبانى كان له ألحان وموشحات ولـكن لم يقل أحد إنه كان يوجد قبل الشيخ سلامه أى

نوع من أنواع الأوبرا لامنولوج ولاديالوج ولاقطعه طويلة يشرك فيها عدة أشخاص فى الغناء أعلى الاوركستر .

وبينما كانت ولاتزال دعامات الفن الأوربى منحصرة فى أنواع الموسيقى المسرحية ، كان الفن العربى منحصراً فى أنواع الموسيقا الشرقية . . « ليالى وموشحات وقصائد وأدوار وطقاطيق » .

فكانت بداية عهد الشيخ سلامه فى القصائد بإدخال تغيير هائل على تلحينها متبعا فى ذلك طريقة الذكر وأهل الطرق الصوفية . وأهل الطرق الصوفية لهم فضل كبير على الموسيقى العربية ، ولاينبغى أن ينسى أنهم حفظوا كثيراً من طابعها وكانوا الصلة الأمينة بين الماضى والحاضر ، فهم يبتدئون الذكر بقرارات بعض الأنغام من قرار الكرد أو الرصد إلى أعلى المقامات . والعارفين يقولون أن الشيخ أدخل روحا جديدة فى مزج هذه النغمات وطرق التلحين . .

أما فى الموشحات فقد بلغ الشيخ الذروة العليا فى إنشادها وإدخال الجديد عليها والذين سمعوا منه (ملا الكاسات) وما أدخل عيها من الآهات يعلمون أنه لم يجرؤ أحد بعده على تقليد هذه الاهات .

* * *

والشيخ سيد درويش له فى « صورة العصر » مكان فريد ، هذا العبقرى الذى مات فى سن الواحد والثلاثين ، والذى تروى عنه قصص ذلك التهافت العجيب على فنه ، وكيف كان يصنع فنه ، فيقيم فى محل بوظه بالعلوايه بباب الخلق أسبوعا ليلحن لحن البرابرة ، وعندما أراد وضع لحن عذارى الماء ، ذهب إلى القناطر الخيرية واستصحب أوارقه وعوده ، وبضع لقيمات من الخبز الجاف وقليلا من الجبن ، ومضى سيراً على الاقدام وظل يستلهم الماء والخضرة ثلاثة أيام .

وهو الذى استحدث فى الموسيقى العربية نغمة « زنجران » وهى خليط من نغمة الحجازونغمة الجوكا ، ولحن بها دور « فى شرع مين ذل الهوى » .

يقول محمد على حماد : إن أنس لست أنسى ليلته الأخيرة فى مصر وكنا فى زمرة

طيبة من أصدقاء سيد وأحبائه الأوفياء ، وكان قد أتم نشيده « مصرنا وطنا ، سعدها أملنا . . » وبدأ يلقيه بصوته الطروب خافت النغم ضئيل الرنين ، ويعلو ثم يعلو حتى ملأ علينا الفضاء ، وما زال يعلو ثم يعلو حتى كأنما هو ألف صوت وكأنما هو شعب بأسره يهتف لمصر ، ولسعد ، وإذا بفيض من الحماسة يجرفنا وإذا نحن نثب بسيد نقبله ، ونحضنه ثم نستزيده ، ونستزيده ، وقد غمر طوفان من سحر ذلك الساحر ، وما ندرى كم لبثنا ولكن أشرق الفجر وبدت تباشير الصباح وما زلنا بسيد متشبثين رغم ما كان يبدو عليه من الأعياء وملامح الجهد والضنى وما زلنا نصاحبه حتى ودعناه منزله وما ندرى أننا كنا نشيعه وما ندرى ، أنه الوداع الأخير .

* * *

وقد وصف بديع خيرى لقائه بسيد درويش واشتراكهما فى العمل الفنى :

فى عام ١٩١٧ تراءى لأسماعنا بالقاهرة اسم شيخ اسكندرى معمم اسمه سيد درويش أوتى مقدرة نادرة فى تلحين الأدوار والتواشيح ، ثم قدم الشيخ سيد إلى القاهرة وشاهدت إحدى الروايات التى وضع ألحانها وهى « فيروز شاه » فأعجبت بها واتفقنا على أن يعمل معنا فى مسرح الأجبسيانة . وكانت أول رواية وضع سيد درويش ألحانها هى « ولو » وكان الشيخ سيد يميل إلى تحضير كل لحن يطلب منه مجرداً من الألفاظ ، فاذا حاز هذا اللحن الإعجاب طلب إلى أن أنظم الألفاظ التى تتناسب مع التفاعيل الموسيقية فى الامتداد والوقف .

وأحيانا كان الشيخ سيد ينظم فى وحدته بأنغام تأتيه عفو الخاطر ، فكان يضع لها ألفاظاً لمجرد حفظ القياس . ويقابلنى بعد ذلك ويطلب منى صب الزجل فى القالب الموسيقى الذى وضعه .

وأذكر أنى قدمت له زجلا يتضمن شكوى طائفة السقايين من شركة المياه فاستصحبنى معه ثلاث مرات فى الفجر إلى إحدى الحنفيات العمومية فى جهة اسمها « حيضان الموصلى » بناحية الأزهر ، واندمج مع السقايين وأخذ يتودد إليهم ويستمع إلى مناداتهم عن قرب ، فجاء لحن « السقايين » من أروع ألحانه ، وقد فعل مثل هذا عندما وضع لحن « المراكبية » إذ كان يذهب إلى إصحابه ويجالس أهل هذه الحرفة حتى تشرب روحهم .

وفى أثناء الحركة الوطنية ، كنا سويا فى الاجتماعات الشعبية بالأزهر ، وخرجنا مرة وركبنا عربة وقف فيها الشيخ سيد وهو يردد طوال الطريق لحن :

قوم يامصرى ، مصر داعماً بتناديك

خذ بناصرى ، نصرى دين واجب عليك

أوع مجدى يروح هدر قدام عينيك

وتبعنا جم غفير يرددون معنا النشيد ، وحدث أن انكسرت العربة عند ملتقى شارع الخليج ، بشارع الأزهر ، فأخرج الشيخ سيد كل ما معه من نقود وكان إثنى عشر جنيها وأعطاها للحوذى .

وكان سيددرويش يعتز بفنه إلى حد كبير فقد ضاقت بنا الحال ذات يوم فوضعت أغنية لحنها هو فى الحال ، وذهبنا بها إلى تاجر اسطوانات نبيعها له ، وعرف الرجل أننا فى حاجة إلى المال فأخذ يساومنا حتى غضب الشيخ سيد ومزق النوتة وقذف بها فى وجه التاجر .

* * *

وكتب من وقع « حجاز كار » يصف دور سيد درويش فقال :

ظلت موسيقانا أنغاما شجية التركيب مرقصة الإيقاع يرادفها طرب الأذن حتى جاء سيد درويش فاتخذ منها أداة للوضع والتصوير والتعبير بالأنغام عما فى الأغانى من معان مختلفة ، وكان يضع لكل جملة لحنا على «قد» المعنى الذى تؤديه ، تسمعها فتشعر أنه كان بالإمكان أن يلبسها نغمة أكثر طربا وشجوا فإذا به قد صاغها فى نغمة أكثر تمثيلا وانطباقا على المعنى ، فهو قد ضحى بالطرب السطحى فى سبيل الفن الصحيح ولحن المعانى قبل الألفاظ .

وفى الوطنية استمع إلى نشيد (قم يامصرى) لترى كيف يستخدم الأنغام الشرقية التى اتهمت برخاوتها ، فى استنهاض الهمم فتحس فيها غضبة الاستفزاز وتهدج الحماسة وزئير الأسود ، وكان يراعى فى موسيقاه الوطنية أن يهيء الجو لكل قطعة بما يلائمها من الموسيقى الصامتة فتسمع فى لحن « السياس » مثل خبب الخيل وفرقعة

السوط مع تنقل النغم بين البطء والسرعة ، إقتبس من مختلف أنواع الموسيقى الشرقية كالتركية والأرمنية والسورية والسودانية ، واقتبس من الموسيقى الغربية دون أن ينشز على أصول الموسيقى الشرقية .

وكان يطرق فى تلحينه بعض الأنغام والضروب المهملة أو المجهولة فى مصر .

وإن تعجب فعجب أن يأتى بهذا كله فتى نشأ فقيرا لا معين له وتعلم تعليما دينيا أوليا ، فاذا به يقوم فى جرأة بتجديد الموسيقى العربية على نظم الموسيقى الغربية ، يعيش حياة الفنانين فلا يبقى على مال ، يوما يبعثر مئين الجنيهات ويوما لا يجد القوت ، يسافر إلى الاسكندرية مسقط رأسه على أن يعود فى الغد فإذا به ينسى نفسه وينسى مصالحه ويبقى حيث طاب له البقاء أياما وأسابيع ، عاش حياته القصيرة فى انفعالات متناقضة محترقا كالشهاب ، يجيش قلبه الحساس بالعواطف المتضاربة لا تفتأ تلهبه فهو مستهتر لا يشفق على نفسه ، يتذوق اللذات مضاعفا حتى قضت عليه رغم قوة بنيته» .

* * *

وقد عاش سيد درويش حياة عريضة قصيرة ، روح الإسكندرية وطابعها كان واضحا فى فنه ، القرآن ، التواشيح ، من المقاهى إلى المسارح كل هذا كان مختصرا متداركا فى حياة قصيرة طابعها الروح المصرية التى تتسم بالبساطة والصدق والمرح وحب الحياة التى كانت تلتمس مخرجها من الصورة الشرقية العامة ، ومن عجب أنه وهو الشاب الذى لم يدرس فن الموسيقى ولم تكتمل ثقافته ، يستطيع أن يثور على الأساليب القديمة ، وعلى التخت ، وأن يتعمق أعماق الشعب ويعبر عنه ، فى بساطة وصدق . ياعم حمزة ، إحنا التلامذه ، بلادى بلادى ، أنا هويت وانتهيت ، .

كل هذا تبرزه صورة سيد درويش . .

* * *

ومن أهل الفن «حسن الآلاتى» هذا الفنان الذى جمع حوله طائفة من عشاق فنه من الأدباء والشعراء ، وكان لهم نادى خاص خلف « الكتبخانه » أى دار الكتب ، كان إسمه المألوف « المضحكخانه » أى بيت الضحك .

ولحسن الالاتى كتاب من ثلاث مجلدات يتضمن لمحات من الحياة الاجتماعية لأهل القاهرة عن حياة الليل .

* * *

أما سامى الشوا عازف الكمان الذى توفى هذا العام (١٩٦٦) ـ فقد عزفت يده الصناع على عوده منذ أوائل القرن ، عند ما قدم من الشام من أسرة كلها أهل فنه . وقد روى : « أن الكمان الذى أعزف عليها ورثتها من أبى ، وهى مورثه فى العائله عن عم جدى ، وكان مقيما فى حلب فى عهد ابرهيم باشا ، وهى من صنع « جيوز يبى بولندرى » ويرجع تاريخ صنعها إلى نحو ١٧٠ عاما وقد دفع لى فيها عام ١٩٢٦ مبلغ ١٥ ألف دولار فى أمريكا فلم أبعها ، ولن أرضى بأن أتخلى عنها مهما دفع لى ، فلا ثمن لها فى نظرى يقع تحت حصر لأنها تلبى طلبى فى كل موقف » .

ولا زلت أذكر منذ سنوات عندما استمعنا إليه وهو يعزف عليها ، محادثة بين سيدة وخادمتها على نحو فريد وكنا فى ندوه يديرها خليل جرجس خليل .

وبعد فلندع سامى الشوا يحدثنا عن فنه :

« أجمع الموسيقيون فى الشرق والغرب على أن الكمان أقرب الآلات الموسقية صوتاً إلى صوت الإنسان ، فضلا عن ذلك تمتاز بأن أوتارها تؤدى جميع النغمات على اختلاف طبقاتها .

ولهذا وذاك لم يخل منها أكبر الأركسترات والتخوت . ولا أصغرها ، كما انفردت بمصاحبه الغناء فى الأداء لما بينهما من توافق وقابلية للامتزاج فى السماع .

نشأت فى جو تشيع فيه الموسيقى فتفتحت لها أذنى وهويتها بكل جوارحى ، ثم تخصصت فى العزف على الكمان متلقيا فنونه على الخبيرين به مبتدعاً بقدر الامكان وعزفت أمام ملوك الشرق وأمرائه ، وكذلك عزفت امام الجماهير الأفرنجية التى تشبعت بالموسيقى الغربية واستطعت أن ألفت أنظارها إلى ما فى موسيقانا الشرقية من جمال وجلال .

ودلتنى التجارب على أن الكمان يزداد صوتها حسنا وصفاء كلما تقادم الخشب

الذى صنعت منه وليس سراً أذيعه أن الكمان التى أعزف عليها كانت لأبى وكان من قبله لأبيه فعمرها يناهز ما فوق مائة عام .

ومنذ بضع سنين فكرت فى صنع كمان من اقدم أنواع الخشب فهدانى البحث إلى صنعها من بقايا الخشب الذى صنع منه قدماء المصريين توابيت لحفظ المومياء :

وقد حصلت عليه من تجار العاديات فى خان الخليلى وسميتها « الفرعونية » لأنى جعلت راسها على هيئة نفرتيتى ومفاتيحها على هيئة مفتاح السلام المصرى .

فى أثناء عودتى من الأرجنتين منذ سنوات أخذت فى العزف على كمانى فى سكون الليل بقمرتى فى الباخرة ، فلما انتهيت سمعت صوت باك مثير خارج الباب وخرجت لأتبين مصدر الصوت فإذا بآنسه أمريكيه هى التى تنتحب تأثرا بنغمات الكمان وقد عجبت حين ابتدرتنى غاضبة عابثة مع استمرارها فى البكاء ، ولكنى وقعت لها لحنا مفرحاً ، فما لبثت أن كفت عن البكاء وأخذت فى الضحك ، وحدث أن دعيت إلى دار عظيم فى القاهرة يقتنى بلبلين نادرين بديعى الصفير ، فعزفت أمام أحدهما على كمانى مقلدا صفيره ، وكانما اغتاظ البلبل من هذا التقليد فأخذ ينوع فى صفيره وأنا أقلده أيضا ، حتى انعكست الآية بعد قليل وأصبح هو الذى يقلد ما أوقعه على الكمان حتى أدركه التعب بعد ثلاث ساعات ، وانحبس صوته فى فمه ثم خر فى قفصه جثة لاحراك بها .

وعجب صاحب البلبل ، وعزا موته إلى المصادفة ، ثم أحضر البلبل الآخر فمثلت معه نفس الدور وإذا به يموت هو الآخر تأثرا من صوت الكمان وحسته لأنه لم يستطع تقليده بالصفير .

وإنى وإن احترفت العزف على الكمان ما زال أعتبر نفسى فى طليعة هواته ميلا إليه وإقبالا عليه وفناء فيه » .

ومما يذكر أنه شهد حفلات فى صالون الأميرة نازلى فى أوائل القرن : حضرها سعد زغلول ومحمد عبده وقاسم أمين ، وكان يدعى إلى تشنيف أسماعهم مع المطرب يوسف المنيلاوى وكان الشيخ عبده يقول له : وقاك الله شر نفسك ياسامى .

* * *

و « حافظ نجيب » كان من رجال الفن أصحاب الدوى وكان حديث الصحف والمجالس وقد قرأت عنه :

« ظهرت شخصية حافظ نجيب » فى أول هذا القرن فأصبح أشهر شخصية فى مصر ألفت عنها الروايات وكثرت الأحاديث والإشاعات عن مغامراته وبراعته فى التنكر والفرار من البوليس ومداعباته لكثير من الهيئات الكبيرة والأفراد ، وقد سلم نفسه لرجال البوليس فقضى مدة العقوبة فى السجن ثم خرج ليحيا حياة أخرى ، فألف فرقه تمثيلية لاخراج روايات يؤلفها عن نفسه فى ذلك الدور ، وأخذ يتفنن فى اجتذاب النظارة لمشاهدة رواياته .

ومن ألطف حيله ، أنه دعا « سعد زغلول » لمشاهدة إحدى الروايات ، وبعث مع الدعوة بانذار قال فيه أن سيخطف الزعيم من بيت الأمة إن لم يحضر الحفل .

وأخرج كثيراً من الروايات البوليسيه المترجمة ، واشتغل بالصحافة وأصدر مجلة العالمين ، ومجلة الحاوى ، واشترك فى تحرير مجلة الدنيا المصورة ، متخذا من حياته مادة دسمة يشبع بها نهم جمهور .

وأكبر الفضل فى شهرة حافظ نجيب هو الخيال ، فإن جورج طنيوس انتهز فرصه اختفاء حافظ على أثر حادث بسيط فأخذ يؤلف عنه القصص وينسب إليه الوقائع والمغامرات .

ومما يذكر أن حافظ نجيب أحس فى فترة من فترات أزمته ، بأن العيون ترقبه وتبحث عنه فقصد إلى « القايات » من أعمال مركز مغاغه ، ونزل ضيفا على آل القاياتى ، وقد أحبه السيد « مصطفى القاياتى » وكان قد قدم إليه نفسه باسم « مصطفى حسن » وقال إنه نال إجازة الحقوق ، ولكنه يمقت المدن والمظاهر ، وقد أمضى أكثر من شهرين حتى بدت الريب تحيط به .

وظن بعض آل القاياتى أنه هو حافظ نجيب ، فلم يلبث أن عرف ذلك و استاذن مودعا . وقد نشر فى مجلة البيان مقالات بإمضاء فتاة ينم عن مران على الكتابة ، ثم تزوج فى فترة هروبه سيدة ألف باسمها وترجم وقد إستطاعت أن تقدم للطبع كتابا

من تأليفه نسبة إلى مؤلف فرنسى مازال منشوراً فى دار المعارف باسم زوجته « وسيلة محمد » التى لم تكن تجيد الكتابة .

❋ ❋ ❋

أما « بيرم التونسى » فقد كانت له قصة طويلة فى هجرته ، وعودته .

« فى سنة ١٩١٩ إشتركت فى الثورة على طريقتى فلم أقذف بالحجاره ، ولم أحطم مصابيح النور ، وإنما قدمت مقطوعات زجلية ، مناسبة للمقام فكانت أشد وأقوى أثراً من الحجارة ، بل ومن القنابل أيضا ،

ولقد حدث عندما وضع الانجليز التاج فوق رأس فؤاد ووضعوه هو فى جيبهم أنى كتبت زجلا بمناسبة قران الملك نشر فى مجلة كنت أصدرها باسم المسلة .

وثار فؤاد وتوقعت أن يأمر بإعدامى ولكنه اكتفى بنفيي إلى الخارج وأبحرت إلى تونس وتركت فى مصر زوجتين إحداهما أم طفلين ، والأخرى فى شهر الوضع الأخير ، وهناك وجدت الإدارة الفرنسية تراقبنى مراقبة دقيقة ، ولم يكن معى غير ثمانين جنيها أوشكت على الفناء بعد ستة شهور .

وقد حالت السلطات دون التحاقى بأى عمل ، حتى ضقت بتونس ذرعا وسافرت إلى فرنسا تحت اسم « محمود بن الحاج محمد بن الحاج مصطفى بيرم » وذلك حتى لاأثير ضدى أى شبهة حيث اشيع عنى فى مصر أننى فوضوى .

وحاولت أن التحق بأى عمل فى مدينة ليون ، ولكنى فشلت ، وكدت أفلس تماماوضاقت بى السبل ، وقدمت تحت إسم مستعار وطلبت تأشيرة بدخول مصر لزيارة أقاربى فاعطونى ما طلبته . ودخلت مصر خلسة واستأنفت الكتابة فى مجلة الشباب وكان رجال البوليس السياسى يتغاضون عنى . فقد كان شتم الملك فؤاد يقع فى نفوسهم موقعا طيبا . ولكن السراى أحست بوجودى وزجر فؤاد وأمر بطردى فوراً فعدت إلى البحر ، إلى مدينة ليون بفرنسا أخرى .

وكنت قد اتفقت مع صاحب مجلة الشباب على أن أكتب له من هناك ويبعث

لى بمال أستعين به على الحياة ، وعشت على هذا المرتب بضعه شهور . ولـكنه كان ضئيلا جدا . لا يكاد يوفر لى وجبة كاملة من الطعام . إلا كل أسبوعين ، وكنت أدفع أكثره إيجاراً لحجرة حقيرة فوق سطح بيت مهدم .

وهكذا أمضيت عامين ، أعانى برد ليون الشديد كما أعانى الجوع والعرى . فسافرت إلى مرسليا وحاولت أن أشتغل عاملا بأحد المصانع ولـكن جواز سفرى كان مكتوبا عليه « ممنوع من العمل » .

وهمس فى أذنى شاب بولونى بأن مؤسسة فرنسية تقبل العامل دون أن تسأله عن إسمه أو ماضيه ، وذلك لأن عملها الشاق لا يحتمل الاختيار والاشتراطات ، وقدمت للشركة ، وكما قال لى الشاب ، لم يسألنى أحد عن إسمى ، وكل مافعلوه أنهم أرسلونى إلى مصنع (الـكلور) للغازات الخانقة وسط جبال الالب ، ولـكن رائحة الـكلور ما لبثت أن حملتنى إلى المستشفى بعد بضعة أيام ، ثم خرجت من المستشفى فألتحقت بشركة الحرير الصناعى فى (جرنيوبل) ولم يكن مصنعها خيراً من سابقه فقد خنقتنى رائحة الـكلور الذى يذاب فيه السائل المحترق فى صناعة الحرير ، فضقت بالعمل والمصنع . فخرجت مرة أخرى إلى الطريق ثم اشتغلت بمصنع بسكويت ولم ألبث حتى تركته إلى العمل فى مكتبة هاشيت التى تنشر الـكتب فى العالم ولها فى باريس وحدها ٢٠ فرعا فـكنت أحمل الـكتب فى المخازن وأرتبها وأنظمها وأطالع فيها خلال أوقات الفراغ ، وهكذا أمضيت أكثر من تسع سنوات فى باريس لم تنقطع عنى فيها أطياف أبنائى وأسرتى ، ماذا فعل الله بهم !

ولم أنقطع أيضا عن محاولة الاتصال بالزعماء المصريين الذين يمرون بباريس عسى أن يردنى بعضهم إلى وطنى وأسرتى وأولادى .

ولـكن عبثا حاولت .

ولذلك كنت أضع همى وذكرياتى فى مقطوعات زجلية ومقامات صورت فيها الحياة الشعبية فى مصر ، كتبتها فى الحقيقة لنفسى ، قبل أن أكتبها للناس ، حتى أعيش فيها ، فى الخيال .

ثم نزحت إلى تونس واشتغلت فيها بالصحافة وإصدرت مجلة باسم الشباب لفيت

نجاحا كبيرا ، ولكن الفرنسيين لم يعجبهم هذا فأبلغنى المحافظ أن إقامتى فى تونس غير مرغوب فيها فركبت الباخرة وسألت ربانها إلى إين، قال إلى لبنان ، وأقمت ردحا من الزمان فى بيروت ثم ركبت الباخرة ، ولا أدرى إلى أين . وفى البحر عرجت السفينة على ميناء بور سعيد وفى غفلة من حارسها التقيت بواحد من أولاد البلد ، الذين يصعدون إلى البواخر ، لبيع السلع . إلى ركابها، فقلت: إنى أريد أن أنزل إلى المدينة وبكل بساطة سحبنى من يدى ونزل وتجاوز بى سلم الباخرة وفى الشارع كافأت الفتى البور سعيدى بسبع ريالات وقبلت تراب بور سعيد عندما دست عليه وركبت القطار إلى القاهرة مع بوادر عتمه المساء .

* * *

وفى عام ١٩٢٩ التقى الدكتور زكى مبارك مع بيرم فى حديقة فى قلب باريس :

« فى يوم الثلاثاء الماضى وأنا أخترق تلك الحديقة فى الساعة الثامنة قبل الغروب لمحت طائفة من الجرائد المصرية فى يد إنسان لا أعرفه ، فى وجهه مسحة من سماحة الشرق وكتلة من أثرة الغرب ، ولقد رأيته فى حالة محزنة فقد سقط عليه فى ذلك اليوم برميل بيرة فى المصنع الذى يعمل فيه ، ولكن الله لطف فلم يصب إلا بجرح خفيف ، وبعد أن تعارفنا انطلقت أسارير وجهه ، وأخذ يسألنى عن مصر وصحف مصر ، وعن الصحفيين الذين يطلبون منه أن يراسلهم مجانا وهو فى أشد الحاجة إلى المال . ثم تناولنا معا طعام العشاء ، وطفنا طويلا على شواطىء السين ، وأسمعنى مواويله وأزجاله القديمة التى كانت تضحك ناسا وتبكى آخرين عام ١٩١٩ وأسمعنى كذلك طائفة من المقامات الهزلية التى تضحك الثكالى . .

* * *

وقصيدته فى المجلس البلدى مشهورة ذائعة :

إذا الرغيف أتى فالنصف آكله والنصف أجعله للمجلس البلدى
كان أمى أبلى الله تربتها أوصت وقالت : أخوك المجلس البلدى

يابائع الفجل بالمليم واحدة كم للعيال وكم للمجلس البلدى

وقد ترجمت هذه القصيدة إلى اللغات الأجنبية ونشرها عبدالقادر حمزة في جريدة الأهالى وطبع منها ١٤ ألف نسخة . وكانت مصدر شهرة بيْرم .

يقول : لقد عبرت بالزجل عن كل المعانى : كتبت فى السياسة والفلسفة ، إن لى عقلين ، عقلا أؤلف به وعقلا أمارس به تصرفاتى السلوكية ، وقد أكتب الزجل وأنا أتشعلق على سلم الترام ، وقد أكتبه وأنا عند الحلاق ، إن روح الزجل التى إتسمت بها أزجالى قد سرت إلى من أشعار ابن الرومى وأزجال محمدتوفيق صاحب جريدة (حمارة منيتى) .

وكانت حمارة منيتى تصدر ١٩١٢ ، وكان الخديو عباس حلمى يؤجر صاحبها ليشتم الشيخ محمد عبده وأسلوب محمد توفيق فى الهجاء كان يضحك طوب الأرض .

وقد وصفه العقاد بيرما ، بأنه من أقدر الكتاب ، على إن إبداع أدوار الحوار بكل لهجة ينطق بها اللسان العربى من ساحل الأطلسى إلى شط العرب وما يليها من أطراف وأنحاء ، ولم يكن ولعه باللهجات العامية عن قصور منه فى التعبير باللغه الفصحى شعراً ونثراً حين يشاء فإن فى منظوماته العربية طبقة من الشعر تسلكه فى النخبة المجيدين من شعراء عصره .

ووصف العقاد كيف عاش سنوات يتنقل فى مبيته ليلة أو ليلتين إلى جوار الجامع الأزهر ، أو قرب المنشية بجوار القلعة ويحتاج إلى الشمعة التى تضىء له حجرته المهجورة ، فيمد يده إلى نافذة ضريح على الطريق ، ويختطف شمعته المضاءة وهو يلعن الغفلة والمغفلين .

* * *

وعاد بيرم إلى مصر فجأة . وفى الأهرام صباح ٢١ / ٤ / ١٩٣٨ نشر خبر صغير :

«أذاعت حكمدارية العاصمة نشرة باللاسلكى على أقسام البوليس بأن الصحفى محمود مصطفى بيرم التونسى الذى كان قد نفى من مصر منذ سنوات قد تمكن من الهرب إلى داخل المملكة المصرية من إحدى البواخر الراسية فى ميناء بور سعيد ، وطلبت فى نشرتها القبض عليه وتسليمه إلى المحافظة » .

وعلقت الأهرام على الخبر بكلمة قالت :

لعل حكمدارية العاصمة تعنى الأستاذ محمود بيرم التونسى الشاعر الصحفى الذى نفى من مصر سنة ١٩٢٢ بسبب ما كتبه إذ ذاك وعد مخالفا للقانون، ونحن بهذه المناسبة نذكر أنه رفع منذ ثلاثة أعوام ظلامات تفيض بالتوبة والاستغفار والولاء (كذا) وقد لاقى فى منفاه بباريس وتونس آلاما وتبريحا ، وها هو يرجع إلى مصر هاربا فليته قد عاد إليها معفوا عنه حتى تصبح رجعته لها رأس مال هو العفو الذى ينشده طيلة منفاه » وكان بيرم قد اتصل فى أول وصوله إلى القاهرة بصديقيه كامل كيلانى (رائد أدب الطفل) وسيد ابراهيم نابغة الخط العربى اللذين استطاعا أن يجندا له فى صفوف الصحافة من دافع عنه وطالب بالعفو عنه ، وتحقق له ذلك . وعاد يشدو من جديد ويغنى الفن والقصة بآثارة ، وقد أشار بعض من كتبوا عنه إلى أنه لو كان فى بسطة من العيش لأضاف إلى المكتبة العربية نوعا جديداً من الكتابة هو وصف حالة الفقراء والمكدودين وأهل الطبقة الدنيا ومناجاتهم ومحادثاتهم . . .

وما كاد بيرم يصل إلى القاهرة حتى بدأ يصور مشاعره تجاه حادثه الخطير :

غلبت أقطع تذاكر وشبعت يارب غربه
بين الشطوط والبواخر ومن بلادنا لأوربه
فى بور سعيد السفينة رست تفرغ وتملا

هتف بى هاتف وقال لى أنزل من غير عزومه
أنزل ده ساعة تجلى فيها الشياطين فى نومه

عشرين سنه فى السياحة وأشوف مناظر جميلة
ما شفت ياقلبى راحه ، فى دى السنين الطويلة
إلا أما شفت البراقع واللبده والجلابية .

ويصور بيرم موقف أهله فى تونس فقد كان جده غادرها سنة ١٨٤٠ أى قبل الاحتلال الفرنسى بأربعين عاما ، وفى ١٩١٩ يدخلها حفيده مشيعا بتقرير سياسى من قنصل فرنسا فى الأسكندرية وفيه يصفه بأنه قنبلة زمنية تنفجر بعد حين ، ولم يقصر البوليس فى تتبعى وأنا أحوم حول ديار عائلة بيرم وهى من الفخامة والشهرة

مكان ، ولكنهم أغلقوا أبوابهم فى وجه المدعى الذى لم ينزل ضيفا ، فيسجل مطالبا بميراث جده أو يجر أرجل العائله إلى إدارة الإمن العام .

* * *

وبيرم من مواليد الاسكندرية (الميناء الشرقية) ، خلف مسجد البوصيرى عام ١٨٩٣ قرأ منذ صباه كتبا اشتراها بالأقة ، وجد فيها الأغانى ونفح الطيب والمعلقات وأشعار العرب ، ثم قرر أن يحترف الزجل وأصدر جريدة فى الأسكندرية : «المسلة» . لا جريدة ولا مجلة ، ومضى ينتقد الأوضاع ، فى الحكومة والمجتمع ، فلما تطرق إلى نقد القصر ثارت عليه ثائرة الدنيا وتوالت حملاته ، وأصدر ١٣ عدداً كانت زاخرة بالنقد فطلب إليه أن يغادر مصر .

ويقول : سمعت شاعر الربابة فى مطلع حياتى ، فى العاشرة ، فكان الانصات لشاعر الربابة هو شاغلى ، فقد تركت كل شىء وجعلت كل انتباهى ووجدانى مشدوداً إلى ذلك الشاعر :

* * *

ولا بد من أن نورد هنا نموذجا من « مقامات » بيرم التونسى :

« المقامة الفلوسية »

حدث الخارق بن فرحان ، قال : سمعت فى نصف الليل نساء يصوتن بالحيل ، ويقلن ياحلوة اللسان ياسق . . وياصغيرة السن يا اخق ، ويارائحة إلى القبر بعيا كى ويافايته أنجالك ورا كى ، ليس هذا اليوم يومك ، ولا النوم هكذا نومك ، فقلت سبحان مغير الأحوال ، وميسر الأشغال ، اللهم استفتحنا من ابن حلال ، فلما أصبح الصباح ، غيرت الجبة والقفطان ، لأن الميت ميت الجيران ، وحيث أنى أعرفهم فيجب أن أشرفهم ، لا كما يفعل الحانوتية ، اللذون يروحون الشعل بالهدوم المهرية ، فلما حضر الفراش ، وفرش الفرش وأحضروا الحنوط والنعش ، اجتمع الفقهاء على الدكك ، وقد أقبلوا من جميع السكك ، فرأيت أصحاب الميت متضررين ، من قعاد هؤلاء المطرطرين ، فوقفت بينهم وقلت :

أيها الأجلاف من عمم ... جالبي الأوخام والنقم
قد هجمتم كالذباب إذا ... ما رأى كوما من الرمم
ما أتيتم للقعاد هنا ... بل لأخذ الأجر واللقم

قال فقام كل فقيه وغتوت ، وجلسوا على أعتاب البيوت ، فقال صاحب الميت « ما اسمك أيها الأستاذ ، فقلت جاركم ومحسوبكم على دراز ، فقال : كن أنت مقدم الفقهاء ، وتولى من الآن العد والإحصاء ، . . الخ .

* * *

ويمثل « يونس القاضى » شريط ذكريات طويل ، منذ أن ترك الأزهر ١٩١٦ إلى أن استوى مؤلفا مسرحيا شهيرا يقدم مسرحياته لمنيرة المهدية ، ويصاحب طلعت حرب فى إنشاء بنك مصر ومصنع المحلة بأزجاله وأغانيه . . ويصاحب سيد درويش بالأغانى التى تعرف بصلتها بمغنيها دون كاتبها : ضيعت مستقبل حياتى . وأنا هويت وانتهيت ، زرونى كل سنة مرة ، فقد كان أحد كتاب الزجل المشهورين ، وقف فى صف بيرم وتابعه فى سلسلة طويلة محمود رمزى نظيم وأبو بثينة وفى حديث معه قال : إن مصطفى كامل هو الذى وجهنى للمسرحيات ، لقد بدأت حياتى بالشعر ؛ ولما رأيت أننى لن أصل إلى حافظ وشوقى ، آثرت الزجل ؛ وكنت أنشر أول الأمر مقالات سياسية فى المؤيد ، وعرفت على يوسف صحفيا ذكيا لبقا فوق الوصف ، يتكلم ويخاطب الناس ويكتب مقالاته ، وقد اعتقلنى الانجليز عام ١٩١٧ ، وكنا أنا وسيد درويش نزكى ثورة ١٩١٩ بالأغانى والألحان وكان نشيد الثورة الخالد المقتبس من كلمات مصطفى كامل من نظمى :

بلادى بلادى ... لك حبى وفؤادى
مصر يا ست البلاد ... إنت أصلى والمراد
وعلى كل العبـــاد ... كم لنيلك من أيادى
يا بلادى أنت دره ... فى جبين الدهر غره
يا بلادى عيشى حرة ... واسعدى رغم الأعادى

ومن أغانيه « يا أم ليه تبكى على وأنا مسافر الجهادية ، الغربة صعبة يا مرارى »

والفرقة ها تشعلل نارى ، كتبوك بيادة ولا سوارى ولا نفر فى الطوبجية » .

وقد كتب يونس القاضى أزجاله فى صحف الفنان ، واللطائف والسيف والمسامير ولم يقف عند هذا بل عمل فى كل مجال ، واتخذ من النظم والزجل والكتابة سبيلا لإثارة الأفكار وتحريك العواطف . وعند ما نشر المنفلوطى مقاله عن الشعرة البيضاء فى اللمة السوداء ، نظمها شعرا .

أأهوى وقد لاح المشيب بعارضى ... وحين شبابى لم أشأ أن أتيما
وما شبت كهلا وإنما شبت يافعا ... ولم أقترف ذنب الشباب فأندما
ومما دهانى إن صحوت مبكراً ... ولم أدر امرآ كان فى الغيب مبهما
فحملقت فى المــرآة أنظر لمق ... فشاهدت ماراع الفؤاد وكلم
رأيت بها يا بئس ما شمت « شعرة » ... لحزنى قد ابيضت وشبت لأهرما
وكانت كعبد أسود الرأس حاسر ... فلمــا تصدى للرشــاد تعمم

وقد ألف يونس القاضى — على حد قوله — ألفى أغنية ، و٥٨ مسرحية .

أما الأغانى فقدمها لسيد درويش ، وداود حسنى ، ودرويش الحريرى الذى يسميه (سيد الكل) وعلى الحريرى من الملحنين ، أو عبد الحى حلمى وصالح عبد الحى ، وعبد اللطيف البنا وعبد الوهاب من المغنين .

أما المسرحيات فقد مثلها سلامة حجازى ومنيرة المهدية وجورج أبيض ، وقد ارتفع توزيع مجلة السيف من ٣ آلاف إلى ٨٠ ألفاً نتيجة لنشر أزجاله بها ، فلما تركه وعمل فى المسامير تحت إغراء صاحبها ارتفع توزيع المسامير وهبط السيف .

ويتحدث عن مطالع حياته فيقول : إنه حفظ مقالات الحريرى والأمالى ودرس الفنون السبعة ، وهو كتاب قديم عن التواشيح والمواليا (المواويل) .

يقول : لقد كانت لى فى قهوة متاتيا ثلاث ترابيزات كل واحده اكتب عليها فن من الفنون ، الأغانى والمسرحيات وأزجال الصحف . أما شركة بيضافون فقد كنت موردها الأول فى الأغانى .. القطعة ثمنها خمسين قرشا ..

ويقول إن كتاب المسرح عام ١٩١٠ كانوا ثلاثة غيره :

فرح أنطون يكتب لمنيرة المهدية ، وبديع خيرى لكشكش (تياترو نجيب الريحانى) وأمين صدقى للكسار .

ثم بدأ (يونس القاضى) يكتب لمنيرة ، وكان هدفه أن يخلق الرواية المصرية التى تمثل روح مصر ، وروايات سريعة ، يتبارى فى أن يقدمها فى اليوم التالى ، ويشرب ١٢٠ سيجارة فى اليوم ، ويعمل رئيساً لتحرير إحدى الصحف الهزلية فى مقابل ستة جنيهات ، ويحصل فى الرواية على بضعة وعشرين جنيها يقول : كان هدفى أن أعالج قضايا مصر فى ذلك الوقت ، لذلك كانت الرقابة تشتد على رواياتى وترفع كثيراً من كلماتها وفصولها . كما كتب الزجل السياسى ، ووضع أزجالا للأطفال . .

وهكذا كانت حياته قطعة من تاريخ مصر والمسرح فى فترة ثلاثين عاما ، تلقف خلالها صالح عبد الحى وعبد الوهاب وكان قوام مسرح منيرة المهدية الذى امتد إلى عام ١٩٤٨ وظاهر سيد درويش فى أول حياته الفنية ، وكان أقل أولئك أجراً .

* * *

أما « نجيب الريحانى » فقد كتب بديع خيرى عن ذكرياته معه فقال : « أنه صديق العمر . . اثنان وثلاثون عاما عشتها مع نجيب الريحانى منذ ١٩١٨ لم يمر يوم واحد من غير أن نلتقى ونتحدث معا ونمشى معا ، ونجلس معا ، ونأكل ونضحك معا ، وكنا نختلف فى شئون العمل ، وأتركه غاضباً فيحضر إلى بيتى ، ولا يكاد يرانى عائد إليه حتى يسرع نحوى ويعانقنى ، كان دائماً ينتظرنى . .

فى قهوة اسفنكس كنا نجلس كل يوم معا ، نؤلف معا ، ويهبط علينا وحى الفن ، ونحن جالسان حول مائدة لا نغيرها ، كنا إذا غيرناها لا يفتح الله علينا بكلمة واحدة من المسرحية التى نؤلفها .

لقد شهدت قهوة سفنكس أحلك أيامنا وأشهاها ، ورأت أبهى أيامنا وأسعدها ، كنا نجلس معا وكلانا ليس فى جيبه قرش واحد ، لقد ظللنا ثمانية أشهر نؤلف رواية حكم قراقوش . . وكدنا نموت جوعا وهو يصر على تغيير الفصل الثانى . .

وانقطعنا عن إصلاح الرواية بضعة أيام ، ثم هبط الوحى فأصلحناها فى يومين .

وارتفع نجيب إلى أوج مجده أيام تياترو الاجبسيانة .

كانت التذكرة تباع فى السوق السوداء ، وتنفذ قبل موعد التمثيل بأسبوع ، وكان سعد زغلول لا يحب التمثيل ويسميه التشخيص . ولكننا فوجئنا ذات ليلة بحضوره إلى تياترو الاجبسيانة ، وإذا بسعد يصفق طويلا .

وكان الرجل الذى أضحك الناس يبكى مما يضحك الناس .

* * *

ويقول الريحانى فى إحدى مناجياته :

«أنا مدين بمكانتى وفنى ونجاحى إلى أستاذ عظيم ، هو «الفقر» ، لا معلم فيلسوف مثله فى الدنيا ، إنه يخلع على عباده العبقرية ، التى تدفع بصاحبها إلى قمة المجد» .

لقد اكتشف الريحانى مقدرته على إضحاك الجماهير بوجه المصادفة سنة ١٩٠٨ ، كان فى مستهل شبابه ولا يحفل بما يجيء به الغد وكان موظفاً فى أحد المصارف بمرتب لا يزيد عن أربعة جنيهات ، فى ذات يوم غادر الريحانى مقر عمله وليس فى جيبه قرش واحد واستولت عليه رغبة جامحة فى قضاء سهرة يروح بها عن نفسه فمضى يلتمس صديقاً يقرضه ريالا واحداً .

ووجم صديقه ، فقد كان هو الآخر مأزوما .. قال صديقه : ليس معى قرش ، ولكن عندى مشروع يمكنك من كسب نصف حقه فى ظرف ساعة واحدة ، قال له إن أحد الخواجات يشتغل بالتنويم ويزعم أن فى استطاعته أن ينوم من يشاء من الحاضرين ، ثم ينقله بالفكر إلى أماكن وبلاد بعيدة ليشاهد ما فيها من العجائب ، فإذا عاد إلى وعيه لم ينس ما شاهده ، بل يظل يذكره ويرويه للناس .

وكان الخواجة مدعيا دجالا لا يفقه شيئا فى علم التنويم ، وأظهر الريحانى استعداده للقيام بهذا الدور ، وجاءت اللحظة الحاسمة حين وقع عليه اختيار المنوم من بين الحاضرين الذين صعدوا إلى المسرح ، وتظاهر الريحانى بالنوم بعد مقاومة غير يسيرة ، وأخيراً قال له المنوم الآن قف فأنت فى الجنة بين الحور الحسان ، فوقف وأخذ

يبدى حركات الاستحسان ، واندمج الريحانى فى دوره فلم يلبث الجمهور أن استغرق فى ضحك متواصل طيلة الدقائق التى استغرقها تمثيل الدور .

فلما انتهى الدور قال له الخواجة : أين تعمل ، قال فى أحد المصارف . قال له أنت لو حاولت استغلال مقدرتك فى إضحاك الجماهير لأصبحت فنانا عظيما .

« إذهب أيها الرجل واشتغل ممثلا ولن تندم .. »

وكانت هذه نقطة التحول فى حياة نجيب الريحانى ، فالتحق بفرقة عزيز عيد حيث كانت أولى خطواته فى عالم الفن .

يقول « فشلت فى استدرار دموع الناس على عيوب الغير ، ولما جابهتهم بعيوبهم ضحكوا منها .. »

* * *

وقد وصفه أحد أصدقائه مصوراً مطالع حياته :

كان فى أول أمره لا يملك مليما واحداً ، وربما مضى عليه اليوم كله لا يذوق طعاما ، وقد يمضى ليله نائما فى أحد منتزهات قصر النيل ، ثم ابتسم الدهر له .. وأقبلت الدنيا . فجمع ثروة بلغت عشرات الألوف . ثم عاد مرة أخرى إلى الفقر ، لقد فقد ثروته ، ولكنه لم يفقد ابتسامته ، ومرحه .

* * *

ولابد أن نذكر كلمة عن رجل من أهل الفن لايذكر ذاكر : ذلك هو « كامل الخلعى » لحن الرجل خمسة وثلاثون رواية تاريخية وأدبيه وهزلية :

« اللؤلؤة ، لص بغداد ، طيف الخيال ، كليوباترة والإيمان »

لقد كسب الخلعى كثيرا ولكنه كان مبسوط اليد فما أبقى قليلا ولا كثيرا ، حلوة الصوت يضرب على العود ، وضع كتابى الموسيقى الشرقى ، ونيل الأمانى فى حروف الأغانى جمع فيهما ألحانه وأهم ألحان وأدوار وتراجم أبى خليل القبانى ، والمسلوب ، وعبده الحمولى ، وأحمد عثمان ، ويوسف المنيلاوى ، ومحمد سالم ، وابراهيم العنانى ، والشيخ سلامه ، وداود حسنى .

* * *

مراجع الفصل

سركيس م ١٩١٢

البلاغ : نوفمبر ١٩٣٢ — الدكتور حسن الهراوى

البلاغ : مايو ١٩٣٢ — لطفى جمعه

المصور : ابريل ١٩٣٨ — بيرم التونسى

البلاغ : سبتمبر ١٩٣٣

١٨

دنيا الشعر

١٨

دنيا الشعر

كانت للشعر فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن « دولة » . مجالس معطرة بالنظم الفائق ، وندوات ، ومعارك وحفلات تكريم تقام ، در عقدها البارودى والكاظمى وشوقى وحافظ . ولقد احتفلت الأندية فى القاهرة بالكاظمى ، وكان له قصص تروى حتى قال فيه البارودى : إنه درة من التاج القديم ، ووصفه السيد توفيق البكرى بأنه ثالث اثنين هما : الشريف الرضى ومهيار الديلمى ، وقال حافظ إنه أطول الشعراء نفساً ، وقال المنفلوطى عنه أنه يبنى القصيدة خمسين بيتاً ومئة فى مجلس واحد فتأتى محكمة البداية والنهاية لا تفاوت فيها ، أما الرافعى فقد أنشأ مقالا وسما به فيه إلى الصف الأول من الشعراء ، وكان للمقال دوى ودارت من حوله معركة .

ودارت بين سامى[1] البارودى والأمير شكيب أرسلان مراسلات شعرية أطلق عليها إسم (المراسلات السامية) وهى قصائد غراء . تكاتب بها الشاعران أيام كان البارودى منفياً فى جزيرة سيلان وكان الأمير شكيب قد استشهد فى بعض كتاباته بأبيات البارودى وذلك على غير معرفة شخصية بينهما فكتب البارودى إليه :

أشدت بذكرى بادئاً ومعقباً   وأمسكت لم أهمس ولم أتكلم
وما ذاك ضنا بالوداد على امرىء   حبانى به لكن تهيبت مقدمى
فأما وقد حق الجزاء فلم أكن   لأنطق إلا بالثناء المنمنم

وأجاب الأمير شكيب :

لك الله من عان بشكر منمنم   لتقدير حق من علاك محتم
وشهم أبى النفس أضحى يرى يداً   تذكر فضل أو جميل لمنعم

---

(١) البارودى ١٨٤٠ — ١٩٠٤

رأى كرماً منى تذكر قـوله فدل على أهلى خـلال وأ كرم
ولو كان يدرى فاضل قدر نفسـه رأى ذكره فرضاً على كل مسلم

ثم عاد البارودى فـكتب لشكيب قصيدة مطولة استهلها بقوله :

آدى الرسالة يا عصفورة الوادى وباكرى الحى من قولى بإنشادى
ترقى ســـنة الحراس وانطلق بين الخمائل فى لبنان وارتادى
لعـل نغمة ود منـك شـائقه تهز عطف شكيب كوكب النادى

فأجابه شكيب :

هل تعلم العيس إذ يحدو بها الحادى إن السرى فوق أضلاع وأ كباد
وهـل ظعائن ذاك الركب عالمة إن النوى بين أرواح وأجساد

* * *

وصور إبراهيم الدباغ دولة الشعر فى العقد الأول من هذا القرن فقال :

ماحادثت إسماعيل صبرى إلا وأنا من أغانى الشعر فى بيت كقصر ، أما إذا لقيت حفنى بك (ناصف) فهناك الفرق والخوف والفزع الأ كبر من غلطة فى أدب اللغة والنحو وتاريخهما ، وإذا سرت إلى مجلس « شوقى » كنت أ كثر حذراً فى الـكلام والتملق منى وأنا بين يدى (حفنى) لأنى رأيت الرجل أ كبر معـلم لحسن المحاضرة ومراعاة شروط الأدب ، وإذا كان تلاقيي مع (الـكاظمى) فهو على ندورته لقاء النسيم بالريح العقيم ونفس متعاظمة على جرعاء كاظمة ، هواء عليـل بين الفرات والنيل ، رخاء حيث أصاب ، أما لقائى بأحمد زكى باشا فبعد كل مشقة ، أفهم منه معنى الانغماس فى السـجع إلى درجة الغليان ، أما منادمتى (لحافظ عوض) فبالنـكد الطالع إذا لم أبدأه بباقة من النـكات مخترعة بين الدهاء السياسى والغمز العصرى ، أما الشيخ عبد العزيز البشرى فلا بد فى لقائه من إحدى اثنتين فـكاهة تضيع خفتها بين الأنانية والإيثار أو لقطة عجلان من متبرع فهـو علم وأدب مزيج بدعابة وخفة عصرية .

وتحدث أنطون الجميل عن « إمام العبد » بمناسبة وفاته[1] (فبراير ١٩١١) :

لقيته يوما وقد شد عنقه بربطة حمراء ، فسألته عن السبب فقال : ليعرف الناس أين ينتهي جسمي وأين يبتدىء رأسي . وكنت ماراً صباح يوم قرب البوستة فلقيت إماماً في قهوة كان يكثر التردد عليها فقال : هل لك في سماع شيء من الشعر؟ فقلت : هات . فقال : أحببت أمي أن أحذو حذو زميلي وابن لوني عنترة العبسي فنظمت أبياتا في الحماسة وتلاها علي ، فإذا هي تهديد وتغزل وتغني بخوض غمرات القتال .

فقلت له : سبقت والله فارس بني عبس ، فكأنك رضعت من لبن المعامع وربيت بين السيوف والرماح .

وكان إمام بعيد الشهرة في سوريا وأمريكا ، ولكن شهرته لم تدفع عنه بؤسه في حياته .

* * *

وتمثل حياة « الكاظمي » جانباً عريضا من صورة العصر يصفها « عبد القادر المغربي » :

« عرفت الشيخ عبد المحسن الكاظمي في إدارة المؤيد لأول عهدي بالتحرير فيه ، وهناك توثقت بيني وبينه عرى المودة ، وأخذت أعرف من دخيلة أمره ، ما لا يعرفه سواي ، وكان ذلك بعد وفاة أستاذنا الإمام بسنة ونصف ، أوائل سنة ١٩٠٧ .

وكان في القاهرة إذ ذاك : عبد القادر المغربي ، طاهر الجزائري ، محمد كرد علي ، عبد الحميد الزهراوي وهم جميعا من اعلام الفكر العربي في الشام .

ومما أخبرني به أن الإمام رحمه الله كان يتعهده في آخر كل شهر بعشرة جنيهات ، يودعها غلافاً ثم تسلم إليه في داره دون أن يشعر بما في الغلاف أحد ، وبعد وفاة الإمام لم يجد مندوحة من السعي لدى الخديوي في أن يكون له مرتب شهري من الأوقاف ، فتوسط في هذا الأمر الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ، فكان الشيخ يراجع الخديوي في تقرير الراتب والخديو يأبى ـ كلما روجع بشأنه ، إلا

---

(١) اقرأ بقية حديث إمام العبد في فصل الظرفاء وأهل الفكاهة .

الرضخ له من مال الأوقاف بنحو خمسين جنيها ، وكنت أذهب مع الشيخ عبدالمحسن إلى الديوان فيقبضها والشيخ عبد المحسن فى كل مرة يظهر التأفف من تناول المعونة على هذه الصورة التى لا يراها تتفق مع كرامته وإباء نفسه .

وكان يلح على الشيخ على . . (يقصد الشيخ على يوسف) تارة بنفسه وطورا بواسطتى فى تعيين راتب شهرى مقطوع (عشرة جنيهات فقط) يريحه بها من عناء التوسط ومكابدة المعاملات الديوانية .

وإن انتساب الشيخ الكاظمى إلى الإمام المفتى ، إن كان من شأنه أن يحدث نفوراً نحوه فى نفس الخديو ، فما كان قط ليحدث مثل هذا الفتور فى نفس الشيخ على يوسف ، فكنا ننزه الشيخ عليا عن وصمة الفتور ، ولكننا كنا واقفين وقفة الايجاس من خال الخديو عباس ، ثم ضاق الشيخ عبد المحسن بالأمر ذرعا ، فكلفنى أن آخذ من الشيخ على وعدا بإنجاز المسألة إما سلبا يريح النفس أو إيجابا يزيح العلة .

فتركت الشيخ عبد المحسن فى غرفة التحرير ودخلت على الشيخ على وبلغته الرسالة كان يصحح مقالة للطبع ، فترك القلم من يده وتنفس الصعداء ثم قال : ماذا أصنع يا أستاذ ، انتهت القصة أمس ، ووعد وعدا أكيدا بإصدار أمره بتعيين الراتب ، لكن لم أكد أبرح الباب حتى دخل عليه بعض الناس .

فقال للخديو : رأيت فلانا خارجا من عندك فماذا يبغى ؟ قال : قررنا راتبا للشيخ عبد المحسن الكاظمى . فقال له ذلك الزائر : أنسيت أنه شاعر المفتى ، وقد قال فيه من الشعر كذا ، وعرض فيك بكذا وكذا ؟ قال الشيخ على ، فما كان من الخديو إلا الشح برفده والنكول فى وعده . فلما وعيت هذا رجعت إلى الشيخ الكاظمى فأخبرته الخبر فتأثر جد التأثر . وقال لى : أتعرف من هو بعض الناس ؟ قلت : لا . قال : هو أحمد شوقى .

فقلت : الحيلة هى تحسين العلاقة مع أحمد شوقى ، ففارقته على نية اللقاء فى وقت نذهب فيه إلى كرمة ابن هانى ، وكانت الكرمة بنيت حديثا ، فذهبنا إليها وأرسل الشيخ عبد المحسن بطاقته إلى البك فأجيب بأنه خرج .

ومن ذلك الحين يئس من الخديو والراتب .

ثم اشتد به المرض ولازم داره فى (درب الكحكيين) وجعلت أتردد إليه فيها ، وكنا نقضى ساعات فى الحديث ورواية الشعر ، ومطارحة الأدب ، وأخبار الأدباء .

والكاظمى ينظم الشعر على طريقة شعراء عرب الجزيرة من حيث متانة الأسلوب وجزالة الشعر ، وكما أنه تفوق على شعراء زمانه بهذه الطريقة الفحلة ، نراه امتاز عنهم أيضا فى أنه يرتجل الشعر إرتجالا غاية فى السلاسة لا محجة فيه ولا تلكؤ ، وإذا ارتجله وقع شعره المرتجل فى قالب طريقته الشعرية المطبوعة .

ومن ظريف أخبار بداهته ما اتفق لى معه ، ذلك أنه زارنى يوما بإدارة المؤيد ، فأبتدره زميلى الصحفى سليم سركيس بالعتب عليه لإغفاله تهنئته بزيه البلدى الجديد .

وكان من خبر هذا الزى أن سليما تضايق من اللبوس الأفرنجى المحزق ولا سيما ياقة القميص المكوى ، وربطة الرقبة .

فما كان منه إلا أن أعلن هجر هذا الزى ، واصطنع لنفسه الزى البلدى : قفطان مشدود الوسط بالزنار ، وقد سدل فوق القفطان جبة بلدية مخصرة الوسط فضفاضة الأذيال .

وأعلن خبره فى الصحف المحلية مشفوعا برسمه ، وأخذ إخوانه يهنئونه وكان يقول : إننى أنا الكاتب الصحافى وقد تلقيت فن الصحافة من سفرى إلى أمريكا ومعاشرة صحفييها ، أما زميلاى المنفلوطى والمغربى فليسا صحافيين بالمعنى المقصود من كلمة الصحافة ، المغربى كاتب عالم ، والمنفلوطى كاتب شاعر ، فلما دخل علينا السيد الكاظمى وأسمع سليم عتبه عليه قال له :

إلق دواتك واقرب وخذ أداتك واكتب

ثم جعل يرتجل شعرا فى مدح سليم ووصف زيه الجديد عليه وهو يكتب حتى إذا طال نفس القول اعترضته انا قائلا : أرى أنه سيكون لهذه القصيدة نبأ عظيم فلم لا يكون لى فيها ذكر وانا ثالثكما وشاهد حادثتكما ؟

فتحول الكاظمى عن سليم وأقبل على وخاطبنى ببضعة أبيات من شعره المرتجل على وزنه وقافيته ، ثم عاد إلى إتمام الكلام مع سليم حتى أكمل قصيدة بلغت الثلاثين بيتا .

وتحدث « طاهر الطناحى » عن لقاء مع الكاظمى :

دعيت إلى غرفة أعدت للنوم ، وسرعان ما تأثرت نفسى حين رأيت شيخا ربع القامة جالسا على فراش المرض ، ثم بدأ مسامرته معى فقال : قد تحسب أنى ولدت منذ ثمانين سنة لما تراه من مظهرى ورأسى المشتعل ، ولكن الحقيقة أن ولادتى كانت ١٢٨٩ هجرية أى منذ ٥٩ سنة ببغداد فى محلة الدهان ، وينتهى نسبى من جهة الأم إلى الإمام موسى الكاظمى جد الشريف الرضى .

أول قصائدى :

* أيها الرامى وما أجرى دما *

قال : حدث أن حضر الأستاذ جمال الدين الأفغانى إلى العراق منفيا من ايران فاحتفيت به وجعلت أناصره ، ومن ذلك الحين التفتت إلى الأنظار . فقلت فى نفسى ما دام النظر قد التفت إلى ؛ سأرحل إلى بنى لام . . ووضعت صندوق أوراقى عند صديق لى ، فخاف من اعتداء البوليس ، فألقى به فى دجلة ، فأسفت لأن به شعرى ونثرى . وذهبت بعدها إلى الخليج الفارسى ثم إلى الهند وفى ١٨٩٩ رجعت من الهند إلى مصر . . وفيها زارنى على يوسف وأحمد خلوصى وحسن حماده . .

وقد سألنى الشيخ على يوسف متجاهلا إياى : من الأستاذ وماذا يقصد من زيارته لمصر . فأجبته : غريب جاء هذه الديار ليستشفى بهواءها . . وفى اليوم الثانى رددت الزيارة إلى الشيخ على بالمؤيد ، وفى هذه الأثناء جاءت سيرة أحمد شوقى فتجاهلته وسألت الشيخ على عنه فقال :

إنه شاب ينظم الشعر وجاء بديوان فقرأ منه :

خف كأسها الحبب فهى فضة وذهب

إلى أن قال :

. . . . عاذل ومختضب

* * *

فقلت لو قال ، ناصل ومختصب ، لكان أحسن لأن المختصب يقابله الناصل . ثم أردفت : هذا كلام (في النقد) عرفناه من أفواه الناس ، فقال الشيخ علي : رائحة الزهر تنم عليه ، ياشيخ عبد المحسن هل تظن أني لا أعرفك . وهنا جاء شوقي فتعارفنا .

وبدأ عهدي بمصر .. وأول قصيدة قلتها في مصر :

إلى كم تجيل الطرف والدار بلقع   أما شغلت عينيك بالجزع أدمع
أأنت معيري عبرة كلما ونت   يحفزها برح الغرام فتسرع

* * *

وصور أنطون الجميل سهرات كرمة بن هانيء «دار شوقي» في المطرية كما صورها سليم سركيس . قال الجميل :

« في كرمة ابن هانيء في مهبط الشعر وكعبة الأدباء ، في منزل شوقي بالمطرية ، بين متلألىء الأنوار ومتفتح الأزهار ، على رنات العود والقانون ، ونغمات المنشدين والمطربين ، تحت الخمائل الجميلة ، والسرادقات الفخيمة ، التقت جماعة من الوجهاء والأدباء مساء الخميس ، فالتقت الحلقات حول وزير جليل أو شاعر أديب أو منشد مبدع ، والمضيف الكريم يتنقل بين هذه الحلقات فكانت ليلة سمر وأنس وسماع فريده ، والزمان يمثلها ضنين ، وفي الحديقة الغناء مدت الموائد المثقلة بألوان الطعام وأنواع الشراب ، وكانت فترة أنشد خلالها أحد المنشدين غزلية شوقي :

« مضناك جفاه مرقده »

وبعد أن تقضى هزيع من الليل أخذ القطار يقل المدعوين أفواجا عائدا بهم إلى مصر »

* * *

أما سليم سركيس فقد رسم هذه الصورة :

« كرمة ابن هاني » كما رأيتها في زيارة خاصة :

في صدر القاعة صوره النيل على أجمل ماتشتهي العين ومن فوقها إطار جميل كتب فيه بخط فارسي بديع الاتقان الآية « أليس لي ملك مصر .. » .

وإلى اليمين صورة مكبرة لوالد شوقي بك ، وعلى اليسار صورة خيالية تمثل الحب ،

وهناك صورة مكبرة من صنع زولا تمثل شوقى بك وهو مريض فى باريس أيام كان يتلقى العلم فيها ، وهنا وهناك كتابات جميلة :

وعلمت أن شوقى بك أطلق على منزله الجميل فى المطرية اسم كرمة ابن هانىء لأن حديقة المنزل حافلة بأشجار الكرم ، والشاعر يقول :

« إن تكن شاعرا فكن كابن هانىء »

وفى هذه الكرمة أقيمت (فى نوفمبر ١٩١٢) حفلات السرور والفرح بمناسبة زفاف أمينة هانم كريمته على عزتلو حامد العلايلى وهذه الحفلة تعد من أعظم وأكمل الحفلات لأنها حفلة يصاحبها الغدير الصافى فى الفاف الغاب :

وتحدث سليم سركيس فى عام ١٩١٠ عن مجلس ضم أحمد شوقى وطائفة من الأدباء ، وكان المغنى ينشد القصيدة التى مطلعها :

يا ليل الصب متى غده   أقيام الساعة موعده

وهى لابن البار المتوفى ٦٥٨ .

وكان لها وقع عظيم فى النفوس ، فطلب أحد الحاضرين من (أمير الشعر) أن ينظم شيئا على هذا النمط للانشاد :

فوعد أن يفعل ثم زاره المقترح وذكره وعده ؛ فلم يتأخر وأملى عليه هذه الأبيات المنسجمة عذوبة ورقة :

مضناك جفاه مرقده   وبكاه ورحم عوده

* * *

عارض شوقى قصيدة البردة : للشيخ شرف الدين أبو عبدالله محمد البوصيرى المتوفى سنة ٦٩٦ ، ولم يخف على شوقى وعوره المسلك فأشار إلى ذلك قائلا :

المادحون وأرباب الهوى تبع   لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم

الله يشهد أنى لا أعارضه   من ذا يعارض صوب العارض العرم

وقد صور « شوقى » كيف كان للحرب العالمية الأولى أثرها فى حياته وشعره قال :

لما وقعت الحرب العالمية الكبرى وشمل العالم هذا الاضطراب الشديد وانضمت تركيا إلى الألمان عمدت بريطانيا إلى قلب نظام الحكم فى مصر وأعلنت انتهاء حكم الخديوى حلمى الثانى ثم أخذت تنفى عن مصر كل من لهم صلة به. فأمرتنى بالرحيل إلى أسبانيا فجمعت عائلتى واصطحبت مكتبى وسائر مرافقى، وغادرت مصر إلى برشلونة وهى ثغر على شاطىء البحر الأبيض يشبه مرسليا فى المدنية والرقى. ويكاد ينم عما كان فيه من سالف الحضارة العربية فى عهد الدولة الأندلسية. نزلت برشلونة مع عائلتى فأدخلت أولادى بعض مدارسها الراقية، ثم عكفت على قراءة كتب الأدب العربى فى غير أوقات النزهة ومشاهدة السينما، فاستوعبت منها مالم أكن قد استوعبته، وطالعتها كلها حتى أكاد أقول إنه ليس فى الأدب العربى كتاب لم استوعبه خلال السنين الخمس التى مكثتها بأسبانيا.

وقد ساعدنى ذلك طبيعة الجو اللطيف الذى يشبه جو الاسكندرية، وفى هذا الجو وذاك الوسط نشأت نشأة أخرى فى الأدب العربى، واستأنفت دراستى له بعناية واهتمام وتوفرت على رياضة الذهن فى ثمرات القرائح العربية منثورها ومنظومها، فحصلت منها على ثروة لم أفز بها من قبل.

وكنت فى خلال ذلك أكتب مايعن لى من نثر أو شعر، فألفت جزءاً كبيرا من «أسواق الذهب» ونظمت قصيدة تاريخية تبلغ ألف بيت عن دول العرب من الجاهلية إلى نهاية دولة بنى عباس».

* * *

فلما عاد شوقى عام ١٩٢٢ تحول من المطرية إلى الجيزة، فأقام فى الطرف الأقصى من شارع الجيزة على الشاطىء الأيسر للنيل، وعاش فيها ما بقى من حياته وفى هذه المرحلة يصور أحد المقربين إليه كيف كان ينظم ويفكر:

يقول سكرتيره « محمد عبد الوهاب » وهو غير سمية الفنان تلميذ شوقى وصفية: إن شوقى كان يضع شعره كما تضع الحبلى ولدها. ويعانى فى ذلك مثل الأمهات، كان شوقى عندما ينظم الشعر يمشى فى الشوارع على غير هدى، وفى هذه الاثناء لو زلزلت الأرض زلزالها لما أحس شوقى،

ولو سألته أى سؤال لوافق عليه. لأنه لا يسمعك ولا يراك ، ويظل يمشى دون وعى ، وعيناه زائغتان وشفتاه ترتجفان ، وأنامله تتحرك فى عصبية إلى أن يخيل إليه أنه وجد ما يفتش عنه ، فيدخل المقهى ، فلا يجد ضالته فيعود على عقبيه ، كأنه شعر أن مايبحث عنه أصبح وراءه ، ويظل يمشى ويدور كالدجاجة التى تريد أن تبيض إلى أن يهبط عليه الوحى ، فعند ذلك يقع شوقى على أول كرسى يقابله فإذا هو أتعس خلق الله ، وترى العرق يتصبب من جبينه ويداه ترتجفان وهو يلهث كأنه خارج من معركة ، ولا يلبث أن تغمره بعد هنيهة من الزمن راحة وطمأنينة ، فيطلب فنجاناً من القهوة ويشعل سيجارة ، ويعود إلى وعيه ، ثم يعاود السير ، فيكون قد انتهى من بيت ، أو من مقطع وانصرف إلى غيره . وهكذا إلى أن تنتهى القصيدة فى رأسه ، فإذا آوى إلى منزله بعد نصف الليل طلب كأساً ، وأملى على كاتبه ما نظم ، ثم يبدأ طور الصقل والتهذيب .

* * *

وكان الشيخ التفتازانى من أصدقاء طفولة شوقى ، وكان فى « حى الحنفى » مشرق شبابهما ، يقول التفتازانى :

ألفنا منذ نشأنا أن نشهد « حضرة » السلطان الحنفى فجر كل يوم ، وقلما انقطعت عن شهود هذه الحضرة فى أشد أيام الشتاء قسوة ، فإذا انبلج الصبح وأدينا الفريضة وساهمنا فى مجالس الذكر وتلونا حزب البر لأبى الحسن الشاذلى وزرنا ضريح السلطان انصرفنا ، وكان شوقى هذا الروح الملهم يطوف بضريح السلطان الحنفى يسأل الله المغفرة ، ثم يوزع الصدقة .

وفى السنوات الأخيرة مرض شوقى فإذا بى أستدعى إلى قصره بالجيزة تليفونيا ، وإذا به مستلق فى غرفة نومه وهو على سرير مرضه ، وإذا به يطالب إلى فى ضراعة المؤمن الموقن أن أقرأ له يس والفاتحة فى مقام السلطان الحنفى .

* * *

أما حافظ إبراهيم فكان موضع حفاوة الشاميين فى مصر فقد كان محباً

لهم يردد ذكرهم فى شعره ، وقد أقام سليم سركيس حفلا لتكريمه عام ١٩١٢ - وصوره على هذا النحو :

فى كرسيين عن يمين جناح المنصة (فى لوكاندة كونتنتال) جلس أولا « شوقى » وإلى يمينه سليم سركيس وقبالتهما فى جناح المنصة الأيسر جلس حافظ إبراهيم وبجواره داود بركات ، وجلس فى الضلع الأوسط خليل مطران ، وأحمد نسيم ، وطنيوس عبده ، ومحمد حافظ رمضان ، وأحمد نسيم ، والشيخ محمد عبد المطلب ، وعبد الحليم حلمى المصرى ، ويوسف فهيم الكريدلى ، والشيخ محمد المهدى ، ونقولا رزق الله ، وجورج طنوس ، والدكتور شدورى .

وشرف الحفل حشمت باشا ناظر المعارف ، وجلس عن يمينه السيد على يوسف مؤسس جريدة المؤيد ، ثم إسماعيل شرين .

وفى الصف الآخر الأستاذ الأكبر الشيخ سليم البشرى شيخ الإسلام ، وعن يساره: إسماعيل البرعى ، إسماعيل أباظة ، على أبو الفتوح ، أدهم باشا، وحفنى ناصف، نعوم شقير، عبد الرحمن أحيم ، جرجى زيدان وغيرهم ممن لا يسع المقام إيراد أسمائهم وكلهم جدير بالذكر لأنهم يؤلفون فى مصر دولة الأدب والعلم .

وأنشد زكى مراد أبياتاً على توقيع ألحان كمنجة « سامى أفندى شوا » طرب لها الجميع » .

وقد سبق لسركيس سنة ١٩٠٨ ، أن كرم حافظ إبراهيم فى حفل فى فندق شبرد. ونقده كثيراً من الجنيهات التى جمعها من السوريين، ثم أراد فى هذه الحفلة أن ينقده شيئاً من المال فعجز جيبه، ولكن لم يعجز سعيه ولسانه، فكان الاحتفال واسطة للحصول على نفقة كسوة التشريفة مجانا، يقول : وقد سمعت بعض السوريين ينتقدون على حافظ أنه لم يشر فى قصيدته الآخرة إلى السوريين على أنهم هم الذين اهتموا به وأقاموا هذه الحفلة ، وماذا كان حافظ يقدر أن يقول أفضل من قوله فى حفلة شبرد :

لم تبد بارقة فى أفق منتجع   إلا وكان لها بالشام مرتقب

رادوا المناهل فى الدنيا ولو وجدوا ... إلى المجرة ركباً صاعـداً ركبوا
أو قيل فى الشمس للراجين منتجع ... مدوا لها سبباً فى الجو وانتدبوا
سعوا إلى الـكسب محموداً ومافتئت ... أم اللغات بذاك السعى تـكتسب
فأين كان الشاميون كان لها ... عيش جديد وفضل ليس يحتجب
هذى يدى عن بنى مصر تصافحـكم ... فصافحوها تصافح نفسها العرب

* * *

وقد عاش الشعراء زهرة كل ناد ، فما من حفل أو ندوة ، سياسية كانت أو أدبية واجتماعية إلا كان لهم فيها جولة أو جولات . ظاهروا الحركة الوطنية منذ فجرها ، ثم ظاهروا الأحزاب والجماعات والهيئات المختلفة ، وتخصص منهم كثيرون فى الاخوانيات والاجتماعيات وجنح بعضهم إلى الوجدنيات ، وجمع كثيرون بين ذلك وبين المراثى .

وكانت هناك ندوات تعقد فى الذهبيات يوم شم النسيم ، وحلقات تعقد حول أطباق العدس الأباظى ، وفى موالد الأطفال ، وزواج الأبناء .

وتخصص كثيرون فى تحية العاملات فى الحركة النسوية ومؤازرتهن ، وتخصصت بيوت بالحفاوة بالشعراء : كآل عبد الرازق والأباظية فظهر شعر يطلق عليه الرازقيات مثلا .

أما الدعابات فقد كان لها مجال ضخم فى شعر مكتوب وشعر محفوظ ، يقرأ ولا يكتب ، وقد حفلت ندوة كامل كيلانى بمثل هذه النماذج التى تتصل بالنقد الفكه كما إتصل شعر الدعابة بخراف الأضحية .

أما الاخوانيات فقد بلغت مطارحاتها غاية المدى بين حسن القاياتى ، وشفيق المصرى ، ومحمد الأسمر ، وكامل كيلانى ، وسيد ابراهيم والهراوى أحمد رامى وأحمد الزين ، ومحجوب ثابت ، وطاهر أبو فاشا .

وعرف بالغزل الرقيق : على الجندى ومحمد الأسمر .

وهناك مداعبات الغارات الجوية ، والمخابىء والرقباء وأزمة المساكن ، وذلك خلال الحرب العالمية ..

بل إن هناك مداعبات حول كاوتش الحذاء الذى كان مختفياً إبان الحرب وفى

رادوا المناهل فى الدنيا ولو وجدوا إلى المجرة ركباً صاعــداً ركبوا
أو قيل فى الشمس للراجين منتجع مدوا لها سببا فى الجو وانتدبوا
سعوا إلى الـكسب محموداً ومافتئت أم اللغات بذاك السعى تـكتسب
فأين كان الشاميون كان لها عيش جديد وفضل ليس يحتجب
هذى يدى عن بنى مصر تصافحـكم فصافحوها تصافح نفسها العرب

* * *

وقد عاش الشعراء زهرة كل ناد ، فما من حفل أو ندوة ، سياسية كانت أو أدبية واجتماعية إلا كان لهم فيها جولة أو جولات . ظاهروا الحركة الوطنية منذ فجرها ، ثم ظاهروا الأحزاب والجماعات والهيئات المختلفة ، وتخصص منهم كثيرون فى الاخوانيات والاجتماعيات وجنح بعضهم إلى الوجدنيات ، وجمع كثيرون بين ذلك وبين المراثى .

وكانت هناك ندوات تعقد فى الذهبيات يوم شم النسيم ، وحلقات تعقد حول أطباق العدس الأباظى ، وفى موالد الأطفال ، وزواج الأبناء .

وتخصص كثيرون فى تحية العاملات فى الحركة النسوية ومؤازرتهن ، وتخصصت بيوت بالحفاوة بالشعراء : كآل عبد الرازق والأباظية فظهر شعر يطلق عليه الرازقيات مثلا .

أما الدعابات فقد كان لها مجال ضخم فى شعر مكتوب وشعر محفوظ ، يقرأ ولا يكتب ، وقد حفلت ندوة كامل كيلانى بمثل هذه النماذج التى تتصل بالنقد الفكه كما إتصل شعر الدعابة بخراف الأضحية .

أما الاخوانيات فقد بلغت مطارحاتها غاية المدى بين حسن القاياتى ، وشفيق المصرى ، ومحمد الأسمر ، وكامل كيلانى ، وسيد ابراهيم والهراوى أحمد رامى وأحمد الزين ، ومحجوب ثابت ، وطاهر أبو فاشا .

وعرف بالغزل الرقيق : على الجندى ومحمد الأسمر .

وهناك مداعبات الغارات الجوية ، والمخابىء والرقباء وأزمة المساكن ، وذلك خلال الحرب العالمية ..

بل إن هناك مداعبات حول كاوتش الحذاء الذى كان مختفياً إبان الحرب وفى

هذا يقول الشاعر محمد عبد الغنى حسن فى مطارحة إلى الشيخ محمد الأسمر :

إنى مرسل إليك الكوتشا ويدى من نداك ترعش رعشا
ليتنى أستطيع إهداء نفسى لم تجد فى صفاء نفسك خدشا

ويرد عليه الأسمر فيقول على نفس الروى والقافية :

هش قلبى ، لما بعثت وبشا بقوافى القريض ، بله الكوتشا
ما طلبناه للحذاء وحاشا بل طلبناه فى الأضاحى كبشا

وكذلك « العصا » كانت موضع المسامرة والمطارحة ، فقد أهدى محمد الأسمر للشاعر على الجندى عصا وأرسل معها أبيات يقول فيها :

يا صديقى وأنت نعم المربى قد بعثنا العصا فرب الزمانا
لا تقل حسبه اللسان فما يكفى وإن كنت بيننا سحبانا

وقد رد « على الجندى » فقال :

قد أتتنى العصا فكانت آمانا لى مما أخاف واطمئنانا
تحفة من أخ نبيل السجايا لاعدمناه يتحف الإخوانا
ماعصا تلك ، بل معاطف ريم تتثنى غضارة وليانا

* * *

وفى كل صفحات التاريخ فى هذه المرحلة كان الشعراء بارزو المكانة يتحدثون ، ويهزون القلوب .

وكان شوقى ينظم شعره ولا يلقيه ، يختار له صوتا جهيراً كفكرى أباظه أو غيره ، وكان حافظ يلقى شعره فيهز القلوب بطريقة الأداء قبل الكلمات ، وكان حافظ لا يلقى شعره حتى يسمعه لواحد واثنين وثلاثة ، يغير فيه ويبدل ، محاولا بلوغ أقصى القوة فى إحداث الهزة النفسية فى نفوس سامعيه .

وكان أحمد محرم وأحمد الكاشف يعيشان فى خارج القاهرة ولكنهما كانا كأفراس الرهان فى كل مناسبة وحفل ، وكانت الصحف اليومية تحتفى بالشعر وتنشره

فى صحفاتها الأولى ، وكانت جريدة السياسة تدفع خمسين جنيها إلى الجمعية الخيرية الإسلامية ، عن كل قصيدة ينشرها شوقى بها ، وكان الهراوى والماحى والأسمر وعلى الجندى هم أبرز شعراء الندوات فيما بعد حافظ وشوقى ومطران .

وجاء جيل من شعراء الفكاهة والمداعبات يتمثل فى عبد الحميد الديب ومحمد مصطفى حمام وحسين شفيق المصرى وبيرم التونسى وطاهر أبو فاشا . ولهم حصيلة ضخمة من الشعر الساخر لم تجمع .

* * *

مراجع الفصل

مجلة سركيس — م ١٩١٤ و ١٩١٠ .

مجلة الزهور — م ١٩١١ و ١٩١٠ .

١٩

فى آفاق الرحلة

١٩
فى آفاق الرحلة

ومن أفق «الهجرة» والرحلة تبدو صور أخرى ، صورة على الغاياتى وهو يغادر مصر مهاجراً بعد أن هوجم ديوانه « وطنيتى » وقدم من أجله للمحاكمة ، وصورة شاب من مصر يذهب إلى لندن ليقابل مستر بلنت الذى انتصر لأحمد عرابى وأحضر له المحامين للدفاع عنه ، وظل ينافح عن مصر .

ومن آفاق الهجرة تبدو صورة المثال مختار .

* * *

وهذه صورة (على الغاياتى) بقلمه :

فى عهد الخديو عباس الثانى كانت تتنازع مصر سلطتان : السلطة الشرعية وسلطة الاحتلال . وفى ذلك الوقت بدأ الحزب الوطنى يطالب الخديو بالدستور ، وكان لى شرف المساهمة فى هذه الحركة حيث أخذت أنشر من فوق منبر الوطنية ، منبر اللواء الموضوعات المصرية الحماسية الملتهبة .

فى سنة ١٩٠٩ خطر لى أن أجمع قصائدى الوطنية ما مانشر منها ولم ينشر فى ديوان خاص ليكون مرجعاً لمن شاء ، فى تلك الحقبة من تاريخ الجهاد الوطنى ، فعرضت الفكرة على الشيخ عبد العزيز جاويش فحبذها وكتب لى بنفسه مقدمة الديوان ، بل لم يكتف بهذا ، بل استكتب الزعيم محمد فريد مقدمة ثانية .

وكان الشيخ على يوسف يصدر جريدة المؤيد فى ذلك الوقت وكانت من أنصار الخديو ومؤيديه ومع ذلك فقد قدمت له نسخة من ديوان وطنيتى .

وفى اليوم خرجت المؤيد بمقال للشيخ على ، كان بمثابة الاتهام الذى قذف بى عبر البحار ، فقال باسم قانون المطبوعات جاءنا شاب اسمه على الغاياتى وقدم لنا كتاباً نترك الأمر من بيدهم الأمر لتقدير ما جاء فيه .

ثم أورد أعنف ماجاء في ديوان وطنيتي ، ومنه ما قلته في الخديو وما علقت به على قانون المطبوعات الجديد الذي كان على وشك الصدور .

وما كاد المؤيد يظهر في السوق وفي صدره هذا المقال حتى أسرع الشيخ عبد العزيز جاويش وقال لي: إن الكتاب في طريق المصادرة وإنني في طريق الاعتقال ونصحني بالسفر إلى فرنسا لكي انضم إلى بقية الأزهريين الذين أوفدهم الحزب الوطني إلى هناك لاستكمال ثقافتهم العالية ، فعارضت الفكرة بادىء الأمر واعتذرت بجهلي باللغة الفرنسية ، فاقترح على أن أسافر إلى تركيا وأشتغل هناك في جريدة عربية اسمها دار الخلافة فوافقت ، ولكني لم أكن أملك مليما واحداً ، فسعى رحمه الله حتى حصل لي عند مدير إدارة الجريدة على عشرة جنيهات مرتب شهرين ثم ركبت القطار إلى الاسكندرية .

وفي القطار كانت جلستي بجانب ضابط تركي ، فلما حدثته بقصتي : قال لي : أنا أضمنك إلى أستانبول وعندما سألني حراس الميناء على اسمي ، وأنا في طريقي إلى سلم الباخرة قال لهم الضابط التركي : إنه محمود أفندي صالح ، ومررنا بسلام بعد أدى الحرس التحية العسكرية للضابط التركي .

ودخلت استانبول واشتغلت في جريدة دار الخلافة ، وتنبهت الحكومة المصرية إلى قلمي فيها فأمرت بمنع دخولها إلى مصر . وكنت قد قدمت غيابياً إلى المحاكمة أمام محكمة الجنايات بسبب وطنيتي وحكم علي بالحبس سنة ، كما حكم على الشيخ جاويش بالحبس ثلاثة شهور ، كما حكم على محمد فريد غيابياً ، وحكم على مصحح الكتاب وناشره بالحبس أيضاً مع وقف التنفيذ .

وعلمت في تركيا أن هناك فكرة بتسليمي إلى الحكومة المصرية فسافرت إلى جنيف في ٣ ديسمبر سنة ١٩١٠ وبقيت هناك منفياً حتى ٢٢ يونيو سنة ١٩٣٦ .

ولعل أطرف مافي الموضوع أنني تسلمت من سويسرا ثمن ما بيع من كتاب وطنيتي المصادر في مصر ، وكان ستة جنيهات . وعشت في سويسرا ، دون أن يفارقني الحنين مصر إلى لحظة من لحظات الحياة .

كنت طالباً أزهريا لا أعرف لغة أجنبية ، وجاهدت وحيدا للحصول على القوت ، كنت أقول الشعر وأنا في الخامسة عشرة من عمري ، وأحضر المجالس العامة في بلدى دمياط ، وقد تعلقت بالصحافة إلى حد جعلني أنزع من بلدى إلى مصر ، وأعمل محرراً في الجوائب المصرية لخليل مطران وكتبت مقالا في الجوائب تحت عنوان الدستور أميرنا ، كان سببا في جمع أعدادها بعد أن وزعت لاستبدال المقال بغيره ، ثم خرجت من الجريدة التى كان يملكها إذ ذاك ويديرها عطا عفيفي ، انتقلت إلى جريدة اللواء أعمل في الحزب الوطني ، وفي تلك المدة بدأت أجمع قصائدى في الديوان .

اشتغلت بالصحافة في دار الخلافة التى كانت تصدر بالعربية في كنف حزب تركيا الفتاة وجاء فريد بك فاستأذنته في أن أعود لأسجن إلى جانب الشيخ جاويش فقال : يجب أن يقل عدد المسجونين واحداً ، ودخلت « جنيف » وأنا أتلقى من الحزب الوطني إعانة ثلاثة جنيهات ، أكببت على دراسة اللغة الفرنسية واستمر حالي حتى اطلعت يوما في جريدة البلاغ التى يصدرها إسماعيل شيمى في مصر على دفاع محامى الحزب الوطني في قضية كتابي واتهامي في أثناء الدفاع بأنى كنت دسيسة على الحزب من الشيخ على يوسف .

حاولت أن أدافع عن نفسى . .

وكان عجزى عن معرفة اللغة الفرنسية سببا في سد الأبواب أمامى ، وتراكمت الديون لصاحبة المنزل الذى كنت أقيم فيه ، وأخيرا وفقت إلى إعطاء بعض دروس في اللغة العربية في مدرسة بيرلتس .

وأخذت أراسل المؤيد من جنيف فأرسل لى بالموافقة بمرتب ثلاثة جنيهات واستمر عملى في المؤيد من ١٩١١ إلى ١٩١٣ حتى توفى الشيخ على يوسف واشتغلت محرراً للشئون الشرقية في جريدة تريبون دى جنيف اليومية ، وهى أكبر صحف جنيف ، وكنت أكتب مقالا أسبوعيا للجريدة مقابل ٣٠٠ فرنك سويسرى .

وفى سنة ١٩١٩ قامت الثورة المصرية وحملت صحف سويسرا على أن تدافع عن قضية مصر .

وفى عام ١٩٢٢ أنشأت جريدة مصرية فى قاب سويسرا صدرت فى ٥ فبراير ١٩٢٢ .

وفى سنة ١٩٣١ أصبحت مراسلا للأهرام فى جينيف وراسلت (الجهاد) فى مونترو .

* * *

أما لطفى جمعة فقد كان طالبا فى فرنسا وقد عن له فى إجازة آخر الأسبوع أن صنع مغامرة رائعة . هى أن يقصد بريطانيا ليلقى الكاتب الحر الذى آزر عرابى : « بلنت » يقول :

كان عصر اليوم الآخر من شهر أغسطس ١٩٠٩ عندما رأيت المرحوم « بلنت » لأول مرة فى قصره العتيق الفخم بجوار هورشام بسكس بجنوب انجلترا . فقد وصلت مع رفيقى فى السفر بناء على دعوة ، فسافرنا من لندن إلى هورشام ، وركبنا مركبة تجرها جياد الخيول العربية لمسافة ساعة تقريبا فى وســط الحقول والأحراش النضرة .

* * *

. . . وفى الساعة السابعة مساء دخل علينا رجل مديد القامة نحيف ذو لحية كثة ، يلبس الثياب العربية ، وبيده عصا ، فحيانا باللغة العربية بصوت جميل رقيق ، ثم جلسنا على المائدة لتناول العشاء ، وقد بهرنا ذكاء الرجل وحضور بديهيته ، ووافر أدبه ، وبعد العشاء إنتقلنا إلى قاعة الجلوس ، وقد زينت بأثاث قديم ، وبها مذفأ من المرمر الملون .

وقد نقلوا إليها شجيرات بأسرها للاحراق فـكان منظر تلك الشجيرات وهى تحترق وذلك الشيخ الجليل العربى الثوب والمنطق وهو يتكلم فى ضوء تلك النار ، وذكرياته القديمة الجليلة الواضحة الجليلة بصدقها ودقتها يجعلنا نتخيل أننا فى إحدى خيام أمراء العرب الـكرام .

دام هذا المجلس خمس ساعات حتى الأولى صباحا ، لا أذكر أنى قضيت أمتع

منها ولا أنفع أولا أكثر لذة ، فقد كان شوقى شديد لرؤية هذا الرجل العظيم الذى كان قطعة حية من تاريخ مصر .

فلما سألناه عن عرابى (وكان لازال على قيد الحياة) قال : لقد انقطعت المراسلات بينى وبينه من زمن طويل . وعلى المصريين ألا يحقروه أو يمقتوه .

* * *

وتحدث عن مصطفى كامل وكان قد توفى منذ عام ١٩٠٧ فقال : لقد كان هذا الشاب عجيبا Miraculous

وكان له حدة ذكاء ونشاط لم أر مثلهما عند كبار الرجال الأوربيين ، فقد كان عندى هنا فى عام ١٩٠٦ (عام دنشواى) وكانت صحته ضعيفة . ولكنه بعد الغداء استمر يكتب أكثر من خمسين رسالة ومكتوب لأصدقاء مصر باللغة الفرنسية التى كان يجيدها كأحد أبنائها .

وقال عن « محمد فريد » الذى كان على قيد الحياة : إنى معجب به، بوصف كونه رجلا مهذبا من أسرة شريفة ، ولكنه سىء الحظ لأنه خلف زعيما عظيما بنفسه ، ولم تكن لديه مواهبه ، إن فريد بك رجل طيب حقا ، وهو صادق أيضا .

وقال إنه لا بد أن يتحد العرب لتأسيس دولة حرة مستقلة ، وأن أخلاق العرب أعظم أخلاق فى العالم ، ولهذا فهو لايخشى عليها ضياعا ولا استعماراً .

واستأذنا فى نهاية المجلس مراعاة لصحته وشيخوخته ، وكان يطيب لنا أن نبقى معه أياما متتالية ، ولم تغمض لنا عين بعد فراقه وكانت الغرفة التى نمنا فيها حافلة بمؤلفات بيرون حميه فقرأنا فيها حتى الصباح .

وفى الصباح أفطرنا معه وزرنا معاً مرابط أفراسه وكان يذكر لنا كل جواد باسمه ولقبه وسلسلة نسبه ، ووضعه العربى كقوله : (هذا محجل اليمين) وهذا (الأغر) وهكذا ، وبينها خيول يبعث بألوف الجنيهات فى أمريكا ، وعلمنا منه عرضاً أنه يعيش منفصلا عن زوجه (لادى آن بلنت) حفيدة لورد بيرون ، وأن ابنه

البكر مات فى السابعة عشرة من عمره وأنه ليس لى سوى بنت واحدة ..

وهذه الزوجة هى التى وهبت أرضاً للشيخ محمد عبده بنى عليها بيته فى عين شمس وباع جزء منها ، وكانت لها ترجمة جيدة للمعلقات السبع بالانجليزية .

وقد صحبت بلنت فى سفره وعاشت فى مصر وأتقنت العربية وقد اقترن اسم بلنت بالحركة العربية والدفاع عن عرابى ..

وقد ادعى كثير من الكتاب السوريين المقيمين فى مصر من بعد ، أن بلنث لم يكن مخلصاً للوطنية المصرية ، وإنما كان جاسوساً للانجليز وكان وكيلا مهيجاً وأنه هو الذى أشعل نيران الثورة العرابية ليمهد السبيل لدخول الانجليز مصر ، واستمر هذا الدور طوال المدة التى قضاها المنفيون العرابيون خارج البلاد ، ولما عاد بعض أمثال الشيخ محمد عبده ومحمود سامى البارودى ونشر بلنت مذكراته (تاريخ الاحتلال البريطانى مصر) للمرة الثانية مايو ١٩١٧ . وكان الذى أعاد نشرها عبد القادر حمزة ، بدأ الجيل الحاضر يعيد النظر فى كل ما علم وسمع عن بلنث .. وأخيراً ظهر الحق .. إن بلنت لم يكن مهيجا ولا مستعمرا ، وقد توفى صيف سنة ١٩٢٢ فى الثامن والسبعين من عمره . وقد أوصى أن يغسل ويكفن ويدفن على شبه الطريقة الإسلامية . وطلب إلى ممرضيه ألا يلبسوه ثياباً ولا يضعوه فى صندوق بل يلحدوه فى قبر فرش بالرمل على سجادة شرقية ثمينة ..

* * *

يقول أحمد الصاوى محمد أن فرنسيا تحدث إليه فى باريس سنة ١٩٢٦ . عن المثال : محمود مختار :

قال الرجل الفرنسى : إنه زميل لى وهو فنان عظيم وقد ابتكر ما جعل هناك شيئاً اسمه « الفن المصرى الحديث » ، ولكن له قضية أخرى ربما جهلتها وجهلها أبناء وطنه فاذكرها عنى ، وقل عنه أنه بقدر ما هو أستاذ فى الفن ، فهو أستاذ فى المجد والاخاء .

يقول الصاوى : كنت أرى مختاراً كل يوم تقريباً قبل سفره الأخير إلى باريس، ذلك السفر المشؤوم الذى رجع منه جريحاً لم يلتئم له جرح ، ولم يطمئن له جنب على فراش ، عرفت فيه قلباً كريماً وعقلاً كبيراً .

وهو ليس الحفار الذى يملك الأزميل ثم يضرب فيخرج تمثالاً ولـكنه رجل مثقف موزون واسع المعرفة غزيز الاطلاع فهو ليس مثالاً اتفاقاً ، ولـكن عرف سر مواهبه فغذى أصلها ودرسه .

قصد بارس فى أواخر سنة ١٩١١ . بعد أن تم دراسة الفنون الجميلة فى مصر مبعوثاً وله ١٩ سنة .

ولما دخل مدرسة الفنون كان لابد له من دفع ضريبة الدخول ، هذه الضريبة هى طاعة التلميذ الجديد للتلاميذ القدماء طاعة عمياء مطلقة ، أما الذى لا يطيع فيطرد شر طردة ولو بالاضطهاد . ولامندوحة للجديد من أن يدفع للقدماء تـكاليف دعوة يشربون فيها نبيذاً ويأكلون محاراً وخبزاً ، فشدوا وثاقه إلى كرسى ووضعوا على رأسه تاجاً من الورق على شـكل فرعونى ، كتبوا عليه رمسيس الثانى وحملوه على نقالة رفعوها على أكتافهم ، وخرج موكب الطلبة فى جموع غفيرة يتقدمهم من يفسح لهم ، وساروا كذلك إلى عرض الطريق حتى كنيسة سان جرمان فى آخر شارع بونابرت . وكان المطر يتساقط على جسده العارى وهناك وضعوه على خوان فى المقهى وطلبوا طعاماً وشراباً وجعلوا يرمونه بالفضلات وقشر المحار وكأنهم يقدمون إليه الزلفى والقرابين ، وتولى اثنان منهم إطعامه وهو كما سلف القول مقيد مغلول ، ثم انطلق الطائر الشرقى يشدو على أشجار الغرب ولايشـكو المطر أو البرد والصقيع » .

ولقد كان لمختار فى مصر أحاديث ، وكانت أحاديث النقد تجرى فى ظل كشف الستار عن تمثاله « نهضة مصر » وكان أشد الناقدين سخرية به هو المرحوم إبراهيم عبد القادر المازنى يقول :

«هذه الفتاة المنصوبة إلى جانب أبى الهول لا أفهم معناها ولا أدرى لماذا يقيمها

الشال هناك ، ويضنيها بهذه الوقفة المتعبة ، ولو كنت أنا مختاراً لاستغنيت عنها جملة ، ولا ختزت بأبى الهول وحده ، لأنه إذا كان المراد الرمز إلى أن مصر تنهض فإن أبا الهول بمفرده حسب من شاء أن يرمز إلى ذلك ، زد على ذلك أن قيام الفتاة إلى جانبه تخليط ، وذلك أنها على ما فهمت رمز لمصر الحديثة ، وعلى هذا يكون أبو الهول عنوانا على مصر القديمة .

وكان المعنى — على هذا — أن مصر الحديثة توقظ مصر القديمة ، أو أن مصر القديمة تنهض إلى جانب الحديثة وفى كنفها . وكلا المعنيين مستحيل يرفضه العقل ولا يسيغ معناه ، وأصح من ذلك أن هناك — أو هنا على الأصح — مصراً واحدة تاريخها سلسلة متصلة الحلقات وأنها كانت قائمة أو متفترة ، أو ما شئت غير ذلك ، ثم هى الآن تستيقظ أو تنفض عنها غبار القرون وتهم بالنهوض » .

هكذا كان يقال عن مختار فى أوربا ، وهكذا كان يقال عنه مصر[1] .

* * *

ومن آفاق السياحة فى هذه الفترة ترى عشرات من أعلامنا يكتبون فى الصحف عن رحلاتهم ، ولكنى لم أر أرق فنا وأجمل بيانا وأطرف روحا من محمود رشاد رئيس محكمة مصر وشقيق أحمد زكى باشا شيخ العروبة ، فقد كانت كتاباته حافلة بالجديد ، له رحلات إلى فلسطين والشام وجنوب فرنسا والمجر ورومانيا وتركيا والسويد والنرويج .

ولعله أول شرقى وصف الشمس فى منتصف الليل ، فى رسالة للمؤيد (أغسطس سنة ١٩٠٤) وله أحاديث نشرها فى الأهرام ١٩٠٨ أطلق عليها « المارسليات » تحدث فيها عن مارسيليا .

ومن طرائفه قوله : إذا دخلت أى قهوة من قهاويهم فاحن الرأس قليلا علامة السلامة ، ولا تتسكع فى مشيتك أبدا ، ومتى جلست فلا تكثر من القيام والقعود ، ولا تسلم فى القهوة على من لا تعرفه باليد ، بل اكتف بالإشارة مع بشاشة فى الوجه ، ورقة ، وإذا وجدت كرسيا مائلا على ترابيزة فلا تجلس عليه لأن ذلك علامة عندهم

---

(١) اقرأ كتابنا « أعلام ورجال اقلام » حيث يدافع مختار عن نفسه .

على أن للكرسى صاحب سيأتى ، وإذا تكلمت فبصوت منخفض ولا تحدق بصرك فى الداخلين والخارجين .

فإذا دخلت قاعة الاستقبال (الصالون) فلا تدخل متجهما ، بل برشاقة ولطف من غير تصنع ، وأن لا تفعل شيئاً يلفت النظر إليك ، وأن لا تشوش على من يكون منهمكا فى القراءة والكتابة . ولا يصح لأحد أن يكلم الآخر حتى يقول له بلطف : سامحنى ياسيدى ، ومتى أجيب عن سؤاله يشكر المخاطب .

ويقول : إياك ياصاح أن تجازف وتقص أظافرك عند حلاق فى أكس أو فى غيرها من مدن أوربا ، وعول على قصك وقلم أظافرك بنفسك ، فإن قص أظافر اليدين أجرته ثلاثة فرنكات أى أكثر من أجرة حلق الرأس والذقن معا ، فاحمد الله على ما أنت فيه من الرخاء وادع لحلاق سيدنا الحسين وباب المزينين بطول العمر والبقاء .

ويتحدث محمود رشاد عن كل شىء حتى الأكل :

يقول : إنى لفى عجب من أن الأورباويين المشهورين بحسن الذوق والتفوق فى كل شىء يقبلون مزج مأكلهم بهذا الشحم العسير الهضم الكريهة الطعم . صدقنى إنه ليس فى الدنيا أكل أفخر ولا ألذ من أكل المصريين والأتراك والشوام والمغاربة وباقى الشرقيين . وإن كنت لا أنكر تفوق الأوربيين فى تنسيق المائدة وآداب الأكل وحسن الخدمة .

مراجع الفصل

يناير ١٩٣٠ — البلاغ الأسبوعى
يناير ١٩٣٢ — الأهرام
أغسطس ١٩٠٤ — المؤيد
ديسمبر ١٩٠٨ — الأهرام
نوفمبر ١٩١١ — الأخبار

٢٠

رسائل الأدباء

رسائل الأدباء

بين أحمد زكي وشكيب أرسلان

— ١ —

إلى[1] سيدي الأخ السري الأستاذ العبقري حجة الشرق صاحب السيادة :

« أحمد زكي باشا »

أمتع الله الأمة العربية بطول لقائه ..

ومن سر أهل الأرض ثم بكى أسى
بكى بعيون سرها وقلوب

لو لم يكن لأخيك من المناقب إلا أنه أخوك وأنت المعلوم في خدمة هذه الأمة ، مكانك الراجح في كل مكرمة ، ميزانك العظيم عند كل إنسان ، قدرك السائر في منازل الكمال بدرك ، الخاص بك صدر كل ديوان بما وعاه صدرك ، الذي امتلأت بمعارفك الأذهان نوراً وفاضت بلطائفك العيون قرة والقلوب سروراً ، لكان ذلك كافيا أن ينله معك الغرب والشرق وأن يشاطرك ألم هذه الفجيعة من دنى ونأى من الخلق ، فكيف وهو بنفسه ذلك الندب المهذب والعذيق المرجب والشهم الأروع والهمام السميذع الذي هو بدون أن يكون أخاك سيد في العرب ونابغة في الأدب يملأ الدلو إلى عقد الكرب .

ولقد محصك الله بهذه المصيبة ، فانظر فأي كبد لم يحرقها البين ، وأي عين لم يقرحها الدمع ، وأي عيش لم ينغصه الشجو .

أحمد الله على وجودك لأني أتذكر نفعك لهذه الأمة العربية أحوج ما كانت إلى الرجال ، وأحمد الله على وجودك لأني أتذكر به وجودي لا من قبيل التنظير بل من

---

(١) في العزاء بوفاة شقيقه « محمد رشاد » .

قبيل التذكار . وأحمد الله على وجودك لأننا كانا من سمار مجلس واحد انطوى جميع إخواننا ونحن لا نزال نختلج في الحياة .

فقد عرفتك منذ خمس وثلاثين سنة ، أيام كنت أحمد أفندى زكى ، ولكنك منذ ذلك الوقت كنت (أحمد زكى) وأفضل زكى .

وكنت أرى فيك قطعة من بهاء مصر وصفحة من تاريخها وعنوانا من عناوين مجدها .

فمنذ ذلك الوقت كنت ترحل فى طلب التحقيق والتقصى وراء آثار العرب وتعنى بإحياء ذكر السلف

ومنذ ذلك الوقت كنت تقول فتمتع وتكتب فتبدع ، ومنذ ذلك الوقت كنت تكتب الأوابد السائرة ، وكان فى بردتك الشاب الذى صار فيما بعد شيخ المحققين .

عرفتك منذ خمس وثلاثين سنة فى مجلس أستاذنا الإمام المجدد فى هذا العصر الشيخ محمد عبده يوم كان رحمه الله ساكنا بعابدين وداره مصاقبة لدار خريجه النابه النابغة المشهور منذ ذلك الوقت أخينا سعد أفندى زغلول .

وكنا تلك العصابة التى تعرفها والتى لا ينفك بعضها عن بعض الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان وسعد أفندى زغلول . وحفنى ناصف وفتحى زغلول والشيخ على يوسف والسيد أحمد محمود وإبراهيم الوكيل.

وكنا نتردد على الشيخ على الليثى ، وكنت أراك لذلك العهد كثيرا فى ذلك المجلس الذى ضم من ضم من الأعاظم ، فلم يبق من هذه العصابة إلا ثلاثة أنت وسعد باشا وهذا العاجز ، والحقيقة إنا قوم أدركنا قبل الأوان ونضجنا قبل الأتراب والاخوان فالطبقة التى عاصرناها لم تكن طبقتنا وإنما أدركناها بقوة السبق فكأننا عددنا فى طبقتين وعشنا فى حقيقتين . وكأننا غلط فى التاريخ أو تقدم وتأخير فى التقويم .

شكيب أرسلان

مرسين ٥ أغسطس ١٩٢٥

— ٢ —

من شكيب إلى زكى باشا

عرفتك فى مصر سنة ١٨٩٠ فى مجالس أستاذنا الإمام أكرم إليه منواه ومنزله سعد زغلول ، وكنت فى ريعان الشباب وغضاضه الأهاب .

وبعد ذلك بسنوات ذهبت إلى أسبانيه يستقضى أثار السلف فذكرتك فى كتابى آخر بنى سراج ، ثم تلاقينا فى سنة حرب طرابلس وزرتك فى دار الكتب الملوكيه ، وكان عندك شاب أعمى قدمته لى إذ ذاك وهو الشيخ طه حسين فتح الله عليه ثم ذهبنا معا إلى ناحية الأهرام وزرنا بعض العرب النازلين يقربها وتشرفت بالمحل العامر بالجيزة ، وكان الشيب فى مفرقك يومئذ يقدم رجلا ويؤخر أخرى .

فأما هذه المرة حسبما فى الصورة فقد تبد الشيب على سواء ، وملأ الهيب عيون الناظرين فإنه والشيب بسواء ، ولا أقول كل من شاب فليس بشاب ، وما بعد الصبا من نصاب لا سيما أن الفرق بيننا يا أخى الأكبر قليل وما نحن إلا من تراب ،

قيل العباس ؟!أنت أكبر أم رسول الله : فقال أنا أسن ورسول الله أكبر ، وأنا أقول أنت أسن وأكبر معا ، ولعل الثانية تشفع بالاولى .

أما أخى شوقى فلا يحب هذه التذكارات الماضية ، ولا يقدر هذا التاريخ قدرة وكأنه يحاول أن يغالط الحساب فقد تلاقينا هذه المرة فى باريس على شوق شديد منى إليه . فإن آخر لقائى معه سنه ١٩١٤ فى الاستانة ومن بعدها لم يتح لى حظ لقائه فصادف اجتماعنا هذه الأيام أمر غريب ، وهو أن أول معرفتى به كان فى قهوة اسمها (اركور) بالحى اللاتينى من باريس . وهناك كنا نتحاضر ونسمر ، وهناك تذاكرنا فى طبع الجزء الأول من ديوانه ، فقال لى : ماذا أسميه فقلت له : سمه « الشوقيات » ، لأنى أرى أحسن وصف له أن ينتسب إليك . وقد أسماه

« الشوقيات » ، كما أشرت عليه ، وذكر ذلك فى مقدمة الكتاب .

ومن ذلك الوقت كان إعجابى بشوقى عظيما وودى له صميما وكتبت إليه يوما :

لئن كنت أحمد شوقى إلى ... فما زلت أحمد شوقى إليكا
حوى لك قلبى ودادا به ... أضن على الكل إلا عليكا

فلما تلاقينا هذه النوبة كان ذلك أيضا فى قهوة (أركور) مصادفة بدون تعمد فقلت له : أفلا تتذكر يا أخى أننا اجتمعنا هنا لأول مرة معارفتنا منذ ٣٤ سنة ، أفلا تتذكر أنك ارتجلت عنها أبياتا أخرى « فى قهوة تدعى داركورا » .

فسبحان من أحيانا كل هذا العمر ، وأبقانا أحبابا على الدهر ، فأطرق شوقى إطراق من صك سمعه ذكر الأربع والثلاثين سنة ولم ينبث بشىء ، فلحظت ذلك وقلت للحلقة التى كنا فيها منذ عرفت شوقى تفرست أن يكون سيد شعراء هذا العصر وذكرته فى ابن سراح مستشهدا بشعره وقائلا أنه شاعر العصر وهذا من ٢٩ سنة فالتفت شوقى نحوى وقد أزعجته هذه الأرقام الفلكية .

وقال وقد تأثر عصبه « يا أخى تمسكك بالتواريخ هذه ليه » فكدنا نستلقى من الضحك .

إلا أن شوقى بك وأن شاب فوده فلم يشب فؤاده (مالك ولهذا الجناس المطلق) ، ولقد كان فى هذه السياحة ومعه عوده وعواده ، دامت أفراحه ومواسمه وأعياده ، ولكم أطرى لى العواد ووعدنى بأنه يحضر لى غرفة فى ناد ، لكنه بعد أن وعد وقرب زعم أن العود مخرب ، فلم أسمع مطربا ولكن كلاما طيبا وسمعت أنه ذهب بعد ذلك على قهوة الجامع الجامع ، وليس مكانه عن آركور ببعيد ، وهناك أحيوا ليلة طرب وشبعوا فى عاصمة الفرنسيس من موسيقى الطرب وحرمونى من هذا الأنس ولم أعلم السبب .

شكيب ارسلان

لوزان (٤ نوفمبر ١٩٢٦)

من أحمد زكى إلى شكيب

ناشدتك الله يا شقيق الروح أن تعف عن هذه العادة وأن تكبح قلمك المعطار عن اللت والعجن فى هذه المادة وإلا فما هذا! الهيام يتذكر إخوانك بما قطعوه فى وادى الآلام من طويل الأيام ومديد الأعوام .

وأما أنك تعرفنى لعمرى ، فهذا ما لا أجهله وأما أنك تقول إن شوقى يحاول أن يغالط فى الحساب فلعلك إذا راجعت دفاتر الوالد الكريمة رأيت أن تضيف إليه من هو لك أعدى عدو وأصدق صديق فى آن واحد وفى ثوب واحد .

ولكن شوقى له ألف عذر وعذر ، لأنه يسبح فى بحور الشعر ويستخرج منه الدرر ، فلا غضاضة عليه فى تناسى السنين ، وإذا حاول العودة إلى الصبا والتصابى فإن العود أحمد .

وأنا راض تماما الرضا أن أكون الأكبر سنا (فقط) فى الثالوث الثانى (شكيب — شوقى — زكى) .

ولكنى أخاف سبب الاختلاف بينى وبين صاحبنا على أيكما يكون الابن ...

وها أنذا بصفتى (الآب) أعرض عليكما صلحا شريفاً بأن نكون كلنا سواسية فى العمر والسن وأن تكون لك أمارة الحسب والأدب ، وله أمارة الشعر على كل شعراء العرب ، وأما أنا فأكون رعية لكل منكما ، ولكن يبقى هناك ثالوث ثالث ذكرتنى به يا أخا العرب حينما ذكرت أيام الأستاذ الإمام ومجالسنا نحن الإثنين بين يديه الكريمتين حين كان (سعد زغلول) يستقى مثلك ومثلى من مناهل علمه الذى حاكى به أكابر الأسلام فى عصر المجادة والنور .

هذا الثالوث يتألف من زعيم مصر وزعيم فلسطين والحقير كانت هذه السطور فأطرب سجال بينى وبين كاظم باشا (الحسينى) الذى لا يرضى منى إلا أن أنعته

بولدى ، وإلا أن أدعوه . يا أبنى ، وأما « سعد » فلا خوف من ناحيته ، هو يتصابى ولكنه لا يمكنه أن يتصاغر .

وما دمت أنت فى لوزان قد نشرت وتنشر بساط الماضى الذى يحب « شوقى » أن يطويه فاسمح لى بذكر قصة قد ضحك منها شوقى على زغلول وضحك زغلول على شوقى ، وبقيت الغنيمة لى أنا وحدى .

الواقعة كانت فى سنة ١٨٩٤ فى أرض سويسرة بالمدينة التى تسمونها أنتم جنيف وأسميها أنا (جنبرة) (Ctenebra) مثل الأندلسيين فى سابق أيامهم ومثل الطلاينة والأسبانيين فى هذا الزمان .

كنت أنا رئيساً للوفد الذى بعثه الخديو عباس ليمثل مصر فى مؤتمر المستشرقين فى أغسطس من تلك السنة وكان رفيقاى المرحوم عمر لطفى بك وأحمد شوقى بك .

واتفق إنى أصبت غنيمة حسدنى عليها « سعد » فأعزى شوقى بالحيلولة بينى وبين ما صار من نعمة الله فى حوزتى ؛ فأوهمه شوقى بوجوب الاستعانة بالدينار فنفحه سعد بمائة من الفرنكات الذهب ، وجاء شوقى وأخذ فى مسامرتى ثم طار وحده إلى حيث لا أدرى ولا يدرى سعد إلى الآن ، وبقى سعد يتملص من بعيد وقد فاته المال ولم يصطد غير الهواء .

وأراد الله أن يخلق لسعد فرصة لمطالبة شوقى برد المبلغ فقد تكفل شوقى نفسه بالاعتراف بهذه الواقعة منذ عامين .

« أحمد زكى »

لوزان فى ٨ يناير ١٩٣٠

السيد الأخ الأستاذ أحمد زكى باشا أمتع الله بطول بقائه .

ذكر المرحوم المسيو ناصر الدين دينيه الفرنساوى المسلم نزيل الجزائر فى كتابه عنى « الشيخ النبيل » nobl vieillard . فيا أخى لا يوجد شيء يهون على وقعها ولو كان بقى حيا لـكنت كتبت إليه استغفر من هذه الجملة وأرجو أن يرفعها من الـكتاب .

أنها غلطة منه بالبداهة ، ولقد جاءنى المسيو نا صر الدين دينيه ورآنى فى مكة وكنت مريضاً وتحدثت إليه والحرارة على تبلغ ٤٠ درجةوإذا كان الإنسان مريضا تعز وجهه وظهرت عليه الشيخوخة قبل أوأنها فالرجل الذى يعوده يحسبه شيخا وليس بشيخ وإنما الشيخ من يدب دبيبا .. وما مرضت فى مكة الأمن شدة الحر .

وعاودنى المسيو دينيه فرآنى تحت العباء والإعياء شيخاً وقد تر العصا فى المـاء عوجاء .

أما أنت فلا تهمك هذه القصة لأنه ينبغى لك زمن طويل حتى تشعر بثقل كلمة (الشيخ) فأرجو من الله أن يفسح فى مدة شبابك . أتذكر يا أخى إذ كنا نسهر ونسمر فى منزل المرحوم سعد زغلول فى عابدين أغسطس سنة ١٨٩٠ ، وكان الأستاذ الإمام والشيخ عبد الـكريم سلمان وفتحى زغلول وحفنى ناصف رحمهم الله، وغيرهم ، وكان هذا العاجز منهم ، وكنت أنت طفلا تحبو بين الـكراسى ، وكنا نتفرس فيك النجابة ونتوسم فيك الخير ، لقد ذكرتك بهذه قبل هذه المرة . ومثل هذا التـكرار يحلو ، ولـكن الذى لا يحلو هو النعت بشيخ دون استحقاقى ، ورحمة الله القائل وأطال بقاك .

أخى شكيب ..

أضاف الله أعمار حاسدك الأكبر والأصغر . وشانئك الأبتر إلى عمرك المديد الأوفر وجعلنى فداءك .

وامتع بشبابك الخالد كلا من قحطان وعدنان وغسان ، بل كل ساكن بين غانه وفرغانه ، بل جميع اللافظين بالشهادتين وعفا الله عنك وعنى وعن المستشرق المسلمانى الذى شهد بما تجلى له من شيخوختك النبيلة من مضاء وعزيمة .

ثم ما لبث أن فر إلى جوار ربه الكريم لأكون (أنا وحدى) بازائك هدفا لسهام الملام التى تصدر عن يراعك المعسول وعن قيمك السيال ، كلما وصفك الواصفون بالشيخوخة .. وتناسوا ما أنت فيه من مرح الشباب .

فرحمة الله على ذلك المستشرق الذى اهتدى بعد البحث والدرس إلى الحق الظاهر فرأى النور الواضح ، أفتكون شهادة هذا الشيخ جريمة عليك تستوجب العفو منك والمغفرة من الله . . .

وما شهد الرجل إلا بما رأى وأين كانت هذه الرؤية ؟ فى منبع النور ، فى مهبط الوحى ، فى مصدر الحق ، فى مكة المكرمة ، فى البيت الحرام .

أفأنت تزعم أن مثل هذه الشهادة مما يجوز تجريحه بسحر البيان الذى أودعه الله فى صدرك وبين شفتيك وعلى أطراف أناملك .

كلا ، ثم كلا ، أنهـا الحقيقة ولا شىء غير الحقيقة ، رآها المهتدى وشهد بها مثلنا .

خبرنى يا أخى الأكبر ، أى غضاضة عليك أن يكون شيخ الشيوخ سنا . بينا نعترف كلنا بأنك فتى الفتيان نشاطا وعزما ..

— ٦ —

من الآنسة مى إلى فريد وجدى

إنى مسرورة وأود أن أفضى بسرورى إلى شخص ما ، ولست أدرى لماذا ذكرتك فكنت أنت هذا الشخص ، وسرورى بسيط رائق هنىء ، هو سرور الأعياد .

منذ حين سمعت جارى المؤذن وقد أعد لليوم أشجى نغماته ، يهتف حى على الفلاح ، الصلاة خير من النوم .

والصلاة التى هى وسيلة الاتصال بالبارى جل وعلا ..

ولقد رأيت الشمس بازغة من وراء المقطم تطل على مدينة الخلفاء الملفعة بأوشحة السحر ، وكان للقاهرة وجهها المؤثر الخاشع الذى ستجده قبل الشروق وبعد الغروب ، فكانت الشمس حقا شجاعة فى الإشراف على هذا الكتمان وتولى جلاء هذا الغموض . أليست الشجاعة الحقة فى القيام بالواجب المفروض دون جهد .

الجو لألأء بنور الصباح الميمون وأنا أسأل كيف ..

ولكن أليست الحياة هى اليقظة ، أوليست بوادر اليقظة مؤدية إلى التساؤل : ماذا ، كيف ، لماذا .

وبعد فهل أنت يا أستاذ ، تعيد على طريقة سائر الناس ، أم أنت اليوم ككل يوم عاكف على دروسك وأبحاثك لتخرج تلك الكتب التى هى مجتمع يغنيك عن كل مجتمع ، وتصدر دائرة المعارف القرن العشرين التى يزيد قيمتها أنها عمل رجل فرد ؟

أما زلت منصرفاً لحديث الأرواح وحديث ما وراء الموت ؟ أما زلت ترى « المذهب المادى » متهدما ، فتقف على أطلاله لتخاطبنا عما وراء المادة متعا والمعنى متمازجين ويصبح الروح والجسد لاضدين ، فلا يعمل الواحد منهما دون الآخر ، أو ينفصل أحدهما عن صاحبه من فكر أو حس أو اندفاع .

أنت نعمت طويلا لتأتى بشىء كبير جليل وربما صرفتك أعمالك عن مطالعة الصحف فتجهل أنى وجهت إليك هذا الخطاب .

ولكن حبذا لو قرأت فسمعت منى هذا السؤال : علام جعل الناس غاية الحياة الأرضية «السعادة» ، من أين تجىء حاجتنا اللاحة إلى السعادة . وهل العلم والثقافة والرقى إن هى سهلت وسائل الحياة الخارجية ، تجعل سعادة المرء الداخلية ميسورة ؟ أم هذه السعادة أقرب إلى النفوس فى حالة الجهل والمعيشة على الفطرة لأن المطالب فيها محدودة ، والأفكار محدودة ، والاهتمام قاصر على حاجات أولية فى متناول اليد.

هل أنت بعلمك وأبحاثك وابتعادك عن الناس أعرف منا بسر السعادة وأقدر على معالجتها .

— ٧ —

من فريد وجدى إلى « مى »

أكثر ما سرنى فى كتابك البليغ أنك ذكرتنى يوم سرورك ، فمن الذى أدراك أنى أدين بمذهب التفاؤل فى الحياة ، وأحب أن لا أذكر إلا حيث يذكر الأمل والثبات ، والوصول إلى أبعد الغايات .

أما سؤالك أيتها الآنسة الفاضلة : علام جعل الناس غاية الحياة الأرضية «السعادة» ، ومن أين تجىء حاجتنا الشديدة إليها ، فجوابى عليه ، هو أن السعادة هى فى الواقع غاية الحياة فلئن أخطأها الناس فلأنهم يخطئون حقيقتها ويخطئون طريق الوصول إليها ، فهم لا يزالون يتحسسون من معنى هذه السعادة حتى يجدوه ، وإذ ذاك يلوح لهم طريق الوصول إليها فيسلكونه .

تسألينى هل العلم والثقافة تجعل سعادة المرء الداخلية ميسورة ، أم أن هذه السعادة أقرب إلى النفوس فى حالة الجهل والمعيشة على الفطرة ، ومذهبى أن السعادة الإنسانية هى فى العلم والثقافة والترقى لا فى الإخلاد إلى الجهل ولا فى السكون إلى الفطرة لأن الإنسان بما غرز فى طبيعته من عوامل معنوية لا يستطيع أن يقف فى الحالة الثانية طويلا ، وإن وقف فيها ببعض العلل أرسل الله إليه من يزعجه عنها على رغم منه .

(١٩٢٩)

— ٨ —

من مصطفى لطفى المنفلوطى إلى حسن أنور الموسيقار

وصلت إلى مصر وقد شعرت عند وصولى إليها بشىء من الانقباض أشبه بما يجده الهارب من سجنه عقد إلقاء القبض عليه وإعادته إليه ، وسأظل زمنا طويلا متمثلا فى ذهنى جمال تلك الأيام التى نعمت فيها بنعمة الحرية والطلاقة — لا يقيدنى مقيد ولا يسيطر من النظم والتقاليد ، أجلس فى كل أرض ، وأفىء إلى كل ظل ، وأسير تحت كل سماء ، وأتحدث بكل مايجول فى خاطرى من جد وهزل وصواب وهذيان ، كأنى أعيش فى عزلة منقطعة ، لا تقع على منها عين ولا يطرق سمعى صوت كما لا أنسى ماحييت جمال ذلك المصيف الرائع (رأس البر) ومنظر كثبانه ورماله ، وأرضه وسمائه ، وبره وبحره ، ومواقع غزلانه ، ومراجع جآرزه ، ومنظر لسانه العذب الرطيب ، وهو ممتد ساعة الأصيل فى غمار الماء ، ينهل منه النهلات الباردات .

وقد انتشر المصطافون فوق سطحه ما بين رجال ونساء ، وشبان وبنات ، يقبلون ويديرون ، صامتين هادئين ، كأنهم منظر من مناظر الصور المتحركة ، فلا ضجيج ولا ضوضاء ، ولا هتاف ولا دعاء .

وما كان صمتهم وسكونهم إلا لأن جلال المنظر وروعته قد ملكا عليهم شعورهم فاستغرقوا فيه استغراق العابد بين يدى معبوده ، والطبيعة مظهر من مظاهر الألوهية ومرآة من مراياها فإذا عبدها الناس فقد عبدوا الله وإذا أجلوها وأعظموها فقد أجلوه وعظموه ، فليت ذلك دام لى ولكنه لا يدوم لأن السعادة فى هذه الحياة بوارق لامعة تخفق فى ظلام الليل ثم تختفى .

(١٩٢٢)

— ٩ —

من المستشرق جواد زيبر المجرى إلى طاهر الجزائرى

سلام إلى صاحب الشرف الباذخ والفضل الشامخ ، من هو المرجع للاماثل والأفاضل . والحاوى لأقصى معارج الفضائل والفواضل العالم ، العلامة الشيخ طاهر ابن صالح المغربى الجزائرى أدام الله فضله .

أما بعد فإن الإنسان مشتق من النسيان ، وبدوران الزمان عفا فى قلبه أثر الإخوان . . . ومع ذلك أرجو أن أنمى من قلبكم خيال صاحبكم المجرى الذى كان يستجير بشأمكم فى سنة ١٢٩٠ مقبسا من أنوار علمائها ، وكثيرا ما تداول بين فضلائها وأدبائها ، وصاحبكم يوما فيوما مستأنساً بمحاورتكم ومذاكرتكم ، وكنا إذ ذاك — أنتم وعبدكم الكاتب — فى عنفوان شبابنا متبحرين فى العلوم الشريفة مستغرقين فى بحور الآداب الظريفة والآن هيهات بعد مر سبعة وعشرين من الأحوال ، وهن عظمى واشتعل رأسى شيبا ، أما والله ما اندرس ذكركم وذكر الصاحبين المنيرين عن نفسى وفؤادى ، مع أنى قد عيل صبرى بعدكم وتكاثرت همومى ، ولكن المحب صبور ومعتمد على دوام ما جبل الله فى قلوبنا من المحبة والمودة ، أتجسر يا أيها العلامة أن أستفهم عن مسألة دمشقية لا أجد حلها فى الكتب التى تحت تصرفى مع شدة اشتياقى لإزالة شبهتى فى تلك المادة ، فذلك أنى قرأت فى (خلاصة المجتنى) و (سلك الدرر للمرادى) وغيرهما من الكتب التاريخية وطبقات علماء الإسلام أن الشيخ عبد القادر بن محمد بن سوار المتوفى سنة ١٠١٤ بعد رجوعه من مصر إلى دمشق كان أول من أنشأ سنة ٩٤٠ بدعة حسنه نقلها عن مصر وهى إقامة الجماعات الذكرية المختصة للصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعرفوا هذة الجماعات باسم (المحيا النبوى) لإحيائهم ليالى الأثانين والجمعات بتلك الأوراد والأذكار .

.. لذلك فإنى أشتاق كثيراً أن تفضلونى بإخبارى عن المسائل الآتية .

هل تستمر الجماعات المذكورة فى الشام ، ما اسمها فى اصطلاح الناس ، أين محل

إقامة الجماعات الحيوية فى دمشق ، هل تتوارث وظيفة شيخ المحيا ، تفضل على يا أيها الشيخ بافادة شافى مثابا جميل الثواب من الله الكريم الوهاب ، وتخبرونى أيضا عن أحوالكم كلياتها وجزئياتها .

أما عبدكم فيشكر الله على ما أنعم عليه من خيره ، صابرا على البلايا ، إن الله مع الصابرين . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكتبه العبد الحقير الفقير

اجناس كولد صيهر المجرى

تحريراً فى بودابشت ٥ ذى الحجة من شهور سنة ١٣١٧ ﻫ

— ١٠ —

من الأب مارى انستاس الكرملى
إلى مصطفى صادق الرافعى

(يناير ١٩٣٧)

إلى حضرة فخر بلغاء المصريين الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، رفعه الله أعلى مقام . أبدأ كلمتى هـذه بتأدية عبارات الشكر الصادق للهدية التى أكرمتنى بها وأنت نابغة بلغاء مصر على ما أعتقده فى صميم القلب . وأحسن دليل لذلك أنى اقتنيت جميع مؤلفاتك وزينت بها خزانتى ، فأرجع إلى مطالعتها الفينة بعد الفينة ، كلما أردت أن أنزه نفسى وأطربها وأريحها من متاعب الحياة ، إذن ؛ حل عندى « وحى القلم » محلا رفيعاً لما حوى من مختلف الموضوعات التى جاءت بأفصح عبارة وأبلغها ، بل تتحـدى كل كاتب أن يأتى بفرعها ، ولا سيما لأن أغلبها لم تمر فى خاطر من سبقنا فى الـكلام ، ولهذا اعتبرت دائماً الأستاذ الرافعى جاحظ العصر ، أو ابن مقفعه ، أو بديع زمانه .

وقد نصحت أبناء العراق أن يطالعوا ما كتبه أو يكتبه إذا أرادوا الجرى فالسبق فى ميدان الفصاحة والبلاغة ورفيع الإنشاء فأخذوا بكلامى .

بقى أن أسألك عن أشياء لم أستطع أن أهتدى إليها . . . الخ . . وليس فى هذا شىء من النقد معاذ الله ، وقد خطرت ببالى وأنا أتلذذ بتصفح هذا السفر الفذ فعسى ألا أحرم أنوارك المبددة للظلمات .

- ١١ -

من الدكتور عبد الوهاب عزام إلى ابنته

بنتى العزيزة « بثينه »

أكتب إليك من قرية فى قمم جبال سويسرة الشامخة إسمها « دبرجنشتوك » وقد أضحى النهار ، والدجن مطبق ، والجو بارد ، أحس منه مثل ما أحس من شتاء مصر إذا قرس ، وأنا أضع قلمى بين الحين والحين لأعرك كفى إحداها بالأخرى حتى أحسن إمساك القلم ، فشتان ما بينى وبينكم ، لا تقع العين هنا إلا على خضرة أو زرقة أو بياض ، خضرة العشب الأثيث والشجر الكثيف ، وزرقة السماء إذا تصحو وزرقة البحيرات ترى من قمم الجبال بعيدة بعد السماء ، وبياض السحب .

نزلت أنا وزميلى الأستاذ أحمد أمين مدينة لوسرن من سويسره وأردنا أن نركب فى البحيرة ، بحيرة لوسزن إلى مكان قريب . فقيل كرسين فقصدناها على باخرة صغيرة بين مناظر عجيبة بل مدهشة من جبال تخالط قممها السحب ، ويزين سفوحها حلل من الأشجار ضافية فى الماء وتطل من مرآة البحيرة منازل متفرقة أو قرى صغيرة كأنها أعشاش الطير بين أفنان الدوح .

* * *

قلت لنفسى وأنا على الباخرة . . قد ركبت هذا البحر (بحر الروم) أربع عشرة مرة فلماذا لم يوح إلى شيئاً ، لماذا لم أصفه أو أصف حالى فيه بكلمة .. إننى حين أسافر إلى الشام أو العراق أو تركيا أو إيران أكتب عنها جهد المقل ، وعلى قدر ما يواتينى البيان ، وتأذن لى المشاغل ، وإن لم أكتب راغباً فى الكتابة ، وتبقى فى نفسى معان ترد الإعراب عن نفسها أحدث بها نفسى وأصحابى بين الحين والحين ، فلماذا لم أخط حرفا عن البحر الأبيض وأوربا .

قالت نفسى بعد تفكير طويل : أنت رجل عصبى قد ملأ نفسك التعصب لقومك العرب ولدينك الإسلام فلست تبالى بغيرها ولا تستلهم البيان إلا منهما .

قلت هذا حق ، ولكن يحسن أن تصوريه صورة أخرى ، أحرى بك أن تقولى : إنك حينما ذهبت فى بلاد الشرق وجدت قومك ولغتك وتاريخك وآثار أسلافك فتفرح أو تحزن وتنبسط أو تنقبض ، ويجول فكرك بين الماضى والحاضر فاخراً أو خجلا ، راضياً أو ساخطاً ، داعياً أو ناهياً ، ولكن أوربا وأهل أوربا ليس بيننا وبينهم من سبب إلا ما أصابنا منهم والا هذا الجلاد الدائم بيننا وبينهم .

على أنى — وحقا أقول — أحس الآن فى نفسى معانى كثيرة يلهمنى إياها هذا البحر العظيم الذى نبتت حضارة الإنسانية على شـواطئه وحوت أعظم وقائع البشر صفحاته ، ولا يزال تاريخ البشر يسكن إذا سكن ويهيج إذا هاج .

كم وعى التاريخ من حادثات على سواحل هـذا اليم العظيم وعلى أمواجه ! ألم يكن للعرب فوق هذا البحر سلطان أعظم من لججه ، وعزمات أهول من أمواجه ، إن دولتهم لم تبلغ من عمرها خمس عشرة سنة حتى طمحت إليه ، ومدت سلطانها عليه ولم تبلغ العشرين حتى جالدت الروم فيه ، وحطمت أساطيلهم بأسطولها وشهد العالم أعجب وقائع البحار . .

العرب الذين لم يعرفوا إلا الإبل سفن الصحراء يغلبون الروم فى بحر الروم ، أجل ؛ هزموهم فى موقعة ذات الصوارى سـنة إحدى وثلاثين ، ثم فتح العرب الجزيرة الشرقية ، ثم سارت من بعد أساطيل بنى الأغلب لفتح صقلية فاستولوا عليها حقبا طوالا . .

لقد جاوزنا البارحة جزيرة كريد التى سماها العـرب « أقريطش » وكان لهم فيها دول وغير .. وها هوذا مضيق سينا قد اقترب والسواحل عن يميننا وشمالنا تشتعل بالأضواء المتلألئة والمصابيح المنشورة بين السواحل والجبال ، وهو ، ونور الحق ، وجمال الشعر ، منظر رائع جميل فى هـذا الليل الساجى ، والباخرة تشق طريقها متمهلة ، تأخذ ذات اليمين مرة وذات الشمال أخرى ، تتحرى سبيلها بين شعاب البحر وصخوره ، والمنارات تومض وتخبو ، تهدى السفن طريق النجاة ، وتحذرها مواطن العطب ..

إن السفينة تتجه شطر الشمال الآن ، وها هو العطب أمامنا ، وبنات نعش الكبرى قد دارت إلى الشمال وهوت قليلا نحو الأفق ، ونحن الآن فى المضيق ، فهذه إيطاليا إلى اليمين وهذه صقلية إلى اليسار ، أأستطيع أن أمر هنا فلا أذكر قومى فى صقلية وسواحل أوربا وأفريقيا ، وما كان لهم من مجد مؤمل ، وعزة قعساء .. ثم أذكر ما حل بساحتهم فى أرجاء العالم من العذاب والخراب ، وبعد ، فقد جاوزنا المضيق وتركنا صقلية كما ترك الزمان تاريخ العرب .

(١٩٣٦)

— ١٢ —

من زكي باشا إلى الرافعي

عزيزى الأستاذ الرافعى ..

كنت كتبت خلاصة وافية عن حرف الألف لوضعها فى أول باب الهمزة ثم عن لى أن أرسلها لرجل فى حلب عرفت تعمقه فى النحو وإذا به أعادها مع مقالة أخرى تدل على شدة تقعره ، وفاته إن الغرض هو الإلمام بكل أحوال الألف بلا شرح ، إلماما قاموسيا ، أرجوك نظر المقالين واختيار أحدهما مع التنقيح والتصحيح أو الحذف والزيادة كما تراه ، وابقائه عندك إلى حين رجعتى من الاسكندرية وسلام لك. من المخلص أحمد زكى .

من أحمد زكى باشا : رسالة مكتوبة على ورقة مستعملة ممزقة الأطرف ، ويظهر أنها كانت غلاف رسالة إليه عليها خاتم (حلب) سنة ١٩٣٣

— ١٣ —

من مى . . . . . . إلى جوليا طعمه دمشقية

أصحيح أنك لم تهتدى بعد إلى صورتى ؟ أما أنا فإنى رأيت من صورتك خطى القلب الجواد والذكاء الوقاد . . .

إن هذا الذكاء ، وذاك القلب يخدمهما صفة كبيرة من الحذق فى التدبير ، والمهارة فى التصرف ، هى صفة مزدوجة تبرز فى تنسيقك وتبويبك وزخرفتك .. أما صورتى المتوارية عنك فها كها :

استحضرى فتاة سمراء كالبن ، أو كالتمر الهندى — كما يقول الظرفاء — أو كالمسك كما يقول متيم العامرية — أو كالليل كما يقول الشعراء . وضعى عليها طابعا سديميا عن وجد وشوق وذهول وجوع فكرى لا يكتفى ،وعطش روحى لا يرتوى ، يرافق أولئك جميعا استعداد كبير للطرب والسرور واستعداد أكبر للشجن والألم — وهذا هو الغالب دوما . واطلقى على هذا المجموع اسم « مى » ترى وجه من يساجلك الساعة قلمها .

(١٩٢٢)

— ١٤ —

من علي الليثي إلى شكيب أرسلان

من الشيخ علي الليثي إلى الأمير شكيب سنة ١٨٩٠ وهو في الآستانة ٣ صفر ١٣٠٨.

أي كتاب تضمن من غرر البراعة التحف، وغدت درر بلاغته بجيد الادوات تحف، لكنها تنازل مرسلة الأمير شكيب فأعلى به مقام صديقه الحبيب، جمع بين الأزاهر والزهر وأقام لمن يجب عنه أطم عذر، كيف الوصول إلى مخدراته وقد تحجبت بعوالي البراعة كل عباراته.

ولها العذر إذا تحجبت عن شيخ فان، ومن العجب أن يزفها إلى مغانيه فتى الشباب أرسلان.

وما مضى من وقت أبان عن سعود طالع البخت، أرجو الله عودة للمحب وأنت بهيجة لتتم لك نعمته وتحيا بك مهجته، هذا وكل خلانك في شوق إليك سائلون مسلمون عليك وخصوصاً حكيم مصر وشيخ الأدب وقتها إذا قال أو كتب، الذي تسامى مجده، وما ترنم بذكر محمد أحد إلا عرف بأنه عبده وصفية الكريم الأغر سلمان، وسعد العصابة المهذب المحامي المعوان، ومحرر هذا الكتاب رهيل الريف سمي قدرك العالي والفائز بالتشريف.

— ١٥ —

من محمد المويلحي إلى سليم سركيس

« عن مجلة سركيس »

بديع هذا الزمان « محمد المويلحي » وإنما قلت إنه بديع هـذا الزمان لأنه كان سـنة ١٨٩٤ يكتب في الجرائد مقالاته المدهشة تحت توقيع البديع وكنت يومئـذ أصدر جريدتي في الاسكندرية فسرتني مقالاته وكنت أثني عليه وأسأله أن يحصـل لجريدتي حصة من بلاغته فـكتبت إلى ما نصه :

« وصلني بالأمس كتابك وصل الله به رحم الأدب فإذا هو وثيقة تسجل بفضلك وعلمك ، وتنادي بأدبك وكرمك . وتشهد أنك الهائم الموله والمشـغوف المولع بحب الفضل وأهله ، ترصد نجومه رصـد الفلـكي نجمه ، وأنت متع الله به كالغائص في الرجاف لالتقاط الأصداف ، لولاه لم يعرف لليتمية أدنى قيمة ، ولم تنقل دور البحور إلى لبات النحور ، ولولا القارىء لاستوى القلم بالحجر ، ولولا الناقد لم يكن المرق فضل على الورق ، ولولا صحة البصر لتساوى القمر بالحجر ، ففضلك على فضل المضيف على الضيف ، والصقيل على السيف ، ولولا مثلك لم تقم للأدب سوق ، ولم تعرف للفضائل حقوقه ، . . وذكرت أنك كتبت ولا معرفة بيننا فلا زلت سباقا في حلبة المـكارم ، ولا غضاضة عليك في ذلك ، فلحمة الآداب فوق لحمة الأنساب ، وقرابة النسب لحم ودم ، وقرابة الأدب روح ونفس الخ .

« البديع »

* * *

ومن أعجبك ما ورد في كتابه إلى أخبرك أن كتابة المديد كله على هـذا النسق من الفصاحة ، فقد أصدر اليوم كتابه « عيسى بن هشام » أو فترة من الزمن . . جمع فيه مقالاته التي كان ينشرها تحت هذا العنوان في مجلة مصباح الشرق . .

وقد افتتح بديع هذا الزمان كتابه بصورة كتاب كان قد أرسـله إليه المرحوم

جمال الدين الأفغانى بخط يده منذ ١٥ سنة .

* * *

حبيبى الفاضل : تقلبك فى شؤون الكمال يشرح الصدور الحرجة من حسرتها ، وخوضك فى فنون الآب يريح قلوبا علقت بك آمالها ، وليس بعد الإرهاص إلا الإعجاز ، ولك يومئذ التحرى .

ولقد تمثلت اللطيفة الموسوية فى مصر كرة أخرى ، وهذا توفيق من الله فاشدد أزرها وأبرم بما أوتيت من الكياسة والحذق أمرها . حتى تكون كلمة الحق هى العليا ولا تكن كالذين غرتهم أنفسهم بباطل أهوائها وساقتهم الظنون إلى مهواة شقائها ، وحسبوا أنهم يحسنون صنعا ، ويصلحون أمراً ، وكن عوناً للحق ولو على نفسك ولا تقف سيرك إلى الفضائل عند عجبك ، لا نهاية للفضيلة ولا حد للكمال ولا موقف للعرفان وأنت بغريزتك السامية أولى بها من غيرك والسلام .

جمال الدين
الحسينى الأفغانى

٢١

ذكريات الصحافة والطيران

ذكريات الصحافة والطيران والعباسية

فى محاولة لكى أرسم صورة العصر الذى انتهى فى أوائل الحرب العالمية الثانية حاولت مقابلة عدد من « المعمرين الأعلام » وقد أتيح لى أن أرى خليل ثابت وعزيز خانكى رحمهما الله وأحمد غلوش ، وساطع المصرى وإحسان الجابرى والسراوى وعبد المجيد نافع أطال الله حياتهم . وفاتنى أن أرى القمص سرجيوس ، وكان من أبطال ثورة ١٩١٩ وله فيها دور ؛ كما فاتنى أن ألتقى به .

* * *

وخليل ثابت كان يمثل فى نظرى أقدم صحفى حى ، فقد كان مولوداً فى أغسطس سنة ١٨٧٣ أى أنه عند ما التقيت به كان على أبواب التسعين ، بادرنى بقوله : إن هناك شيئان يفارقان الإنسان قبل أن يفارق الحياة هما السمع والبصر ، وكان يشير بذلك إلى الضعف الذى بدا على نظره وسمعه ، غير أنى لم ألحظ أنه لا يسمع ، كان يحدثنى دون توقف وأمامه الكتاب المقدس مع نظارة مكبرة يقرأ بها .

قال لى : لقد بدأت العمل الصحفى فى لبنان سنة ١٨٩٥ فى صحيفة لسان الحال ، ولدى خطاب من مارك توين الكاتب الأمريكى ، فقد ترجمت له رواية اسمها (بنكنوت بمليون جنيه) وكنت إذ ذاك فى الخامسة والعشرين أعمل مدرسا فى الجامعة الأمريكية » إنها رحلة طويلة منذ ذلك الوقت حتى سافر إلى السودان سنة ١٩٠٥ وبقى بها إلى عام ١٩٠٧ ثم عاد إلى المقطم فرأس تحريره منذ عام ١٩١٦ حتى عام ١٩٤٨ عندما اعتزل العمل .

قال لى : إن المقطم كان إنكليزيا أول أمره ، ولكننى بعد أن توليت تحريره لم يعد كذلك ، ربما كان انكليزيا أيام كرومر ، هذا حق ، ولكنه بعد ذلك لم يكن . وقال: إننى لم أكن أحب الانجليز . وإنى لأذكر كيف استدعانى المستشار الانجليزى بالداخليه على إثر نشر مقال كتبته ملخصا لكتاب أحمد جمال باشا ، برر فيه موقفه من العرب ، وقد أثار هذا ثائرة الانجليز ، فلما قابلت المستشار الانجليزى قال لى : إننا

قد أعطينا نسخة من هذا الكتاب للدكتور فارس نمر ولعلك سرقته منه ولحصت هذا الفصل .

ودافع خليل ثابت عن نفسه وقال : إن هذا الفصل قد وصلني في رسالة من رجل لم يذكر اسمه ، وكان هو « علي الغاياتي » الصحفي المصري المهاجر إذ ذاك في جنيف ، فلما سألني عن اسمه رفضت أن أذكره ، وقال خليل ثابت : إن من أدلة انصراف الانجليز عن المقطم، ماحدث في ثورة ١٩١٩ حينما هاجم المصريون دار المقطم وحطموا أبوابه وأدواته وحرقوا عزبة الدكتور نمر ، وكان بيد الانجليز تقدير الخسائر فلم يقدروا لذلك إلامبلغا تافها . وابتسمت، وقلت : لعلهم أرادوا أن يغضوا في ظل توتر الثورة ، وفي المبالغ السرية ما يعوض !

وقال : إن المقطم كان يحتفظ بتقليدين هامين : لا كتابة عن الشخصيات ، ولا نشر لإعلانات الخمور .

فلما سألته عن أكبر نصر صحفي حققه قال : كان ذلك خبر الإفراج عن سعد زغلول من منفاه في جبل طارق (أبريل ١٩١٩) . فقد جاءني مستر باركر مراسل الأجبشيان جازيت ليلة الأحد وقال لي : إن صحيفتي لا تصدر غدا ، وعندي خبر هام ، لعل المقطم يفوز بالسبق به ، قلت : ما هو ؟ قال : سيطلق سراح سعد زغلول الليلة وسيسافر إلى باريس . وحاول خليل ثابت أن يفعل شيئا ، ولكنه لم يستطع ، فقد كان من العسير عليه إصدار ملحق في هذا الوقت المتأخر .

ووضع يده على قلبه حتى الصباح خوفا من أن تسبقه صحف الصباح فلما لم يجد فيها شيئا سارع فأعد ملحقا في حجم الكف ، ووزعه في الساعة العاشرة ..

وقبيل إصدار الملحق دق جرس التليفون، وكان الداعي هو يوسف وهبه رئيس الوزراء يطلب الدكتور صروف فلما قصد إليه قال له : إن لدي خبراً هاماً هو لكم . إن سعد زغلول أفرج عنه أمس وسافر اليوم إلى باريس ، فلم يزد فارس نمر عن أن أخرج ورقه صغيرة من جيبه ، وقدمها لرئيس الوزراء الذي دهش لذلك وكانت الورقة هي الملحق الذي يحمل الخبر . .

قلت لخليل ثابت : لعل هذا هو الملحق الذى اشتروا به عزبة الملحق المعروفة فابتسم وهز رأسه مؤيدا .

وحدثنى عن الشيخ توفيق البكرى فقال إنه كان يحرز رتبة (سماحلتو) وهى درجة لايحصل عليها فى الامبراطورية العثمانية غيرعشرة أفراد ، وقد انزعج الخديوى عباس عندما منحها له السلطان عبد الحميد ، وحاول أن يحصل على مثلها لأحد أنصاره فقيل له : حتى يموت أحد العشرة ! وأشار إلى ما أصابه إبان مرضه العصبى ، فقال إنه جاء إلى دار المقطم ، ودعيت على الفور لمقابلته ، وكان يتمشى فى الشارع جيئة وذهابا فى عصبية بالغة ، فلما لقيته أشار إلى فى حدة أن أركب معه فى عربته منطلقا إلى دار السفاره ، فلما ذهبنا ـ وكان اليوم يوم أحد ، استقبلنا السكرتير الشرقى ، واعتذر الدن غورست المندوب البريطانى عن لقائه ، عندئذ خرج وركب عربته التى تجرها الجياد المطهمة ، وأمر السائق أن ينطلق إلى باب الحديد ، فلما سألته فى ذلك قائلا إلى أين ؟ قال بكل بساطة : إلى لندن ؟ فابتسمت ، وقلت له : إن ذلك مستحيل اليوم ، إذ ليس فى استطاعتنا السفر بدون تصريحات وملابس ، وأن ذلك يكون ممكنا غدا ، وكنت أقصد بذلك أن أصرفه عن الأمر .

ورأى خليل ثابت جمال الدين الأفغانى ، وما زالت صورته فى نفسه واضحة : قال ، إنه كان معتدا بنفسه أبلغ اعتداد ، حتى أنه أورد فى حديثه كلمة (بقروت) فاستغرب سامعوه ، فقال إنها على وزن « ملكوت » .

فلما راجعه أصحابه فى ذلك ، قال فى اعتداد ظاهر : إذا صح للاعرابى الذى يعيش فى الصحراء أن يورد كلمة « ملكوت » ألا يحق لجمال الدين أن يفعل مثل هذا .

وتحدث عن «أبو الهدى الصيادى» ، وكان أحد دعائم قصر السلطان عبد الحميد ، وهو من حلب ، يكاد يكون ممثلا للعرب فى المملكة التركية فقال : إنه ليس والد توفيق أبو الهدى رئيس وزراء الأردن كما أورد البعض ، وأن ابنه حسن أبو الهدى كان يعمل مع الخديو فى قصر عابدين ، وقد تزوج إبنه محرم أبو جبل ..

ووصفه بأنه كان شعلة من الذكاء ، عيناه تشعان عبقرية ، على الرغم من أنه لم يكن واسع الثقافة والعلم ، وقد استطاع أن يتقن التركية ويتكلمها كأهلها . وأنه كان يقيم في دار واسعة مفتوحة لكل عربي ، يقدم إليها العرب من كل مكان فيجدون فيها طعامهم ونومهم أياما وشهوراً دون أن يسألهم أحد شيئا .

وروى كيف أن طبيبا من لبنان اختلف مع الجامعة بعد أن أتم دراسته فحرمته من البكالوريوس ، فلما ذهب إلى أبو الهدى ، أرسل معه رسولا ، وكان يطلق عليه « الأفندى » إلى مدير الجامعة يقول له : إن « الأفندى » يوصيه بالطالب ، هنالك أسرعوا فعقدوا له امتحاناً خاصا ومنحوه الدكتوراه ، وكان أبو الهدى قد عاهده أن يجعل جزاء ذلك معالجة كل فقير يأتيه مجانا .

ووصفه خليل ثابت بأن نفوذه كان بالغ الخطورة ، وأنه دافع عن العرب وأدى لهم خدمات جلى فى عاصمة الخلافة . وسألنى خليل ثابت : هل تعرف كيف مات أبو الهدى قلت : مثلك من يعرف .

قال : لقد وضعوه فى برميل ، ودحرجوه من مكان عال حتى قتل ، قتله الاتحاديون عام ١٩٠٨ بعد تراجع السلطان عبد الحميد عن الدستور الذى أعلنه وحاول سجنه .

وقال : أن السلطان عبد الحميد مدفون فى استانبول فى مدفن حقير ، وفى أيامه الأخيرة كان يجلس مع شاه العجم .. ويبكيان السلطان الضائع ، ومن الكلمات التى كانت ممنوعة فى عهده : التليفون ، محمد سلطان مثلا لأن بها كلمة (السلطان) ! وتطرق الحديث إلى السلطان عبد العزيز فقال : إنه يعتقد أن مدحت هو قاتله ، وقد كان يقول فى الطائف وهو منفى بها : أنا خالع الملكين : مراد وعبد العزيز .

ومما يذكر أنه خلال حكم مدحت لسوريا (واليا) علق على الجدران قصيدة ابراهيم اليازجى السينية التى مطلعها :

« دع مجلس الغيد الأوانس »

وقال : إن ناصيف اليازجى والد ابراهيم هو أول مسيحى تعلم العربية باستثناء القس جرمانوس فرحات .

ومن فكاهات خليل ثابت التى تدل على حضور بديهية فى مثل هذا السن قوله: إن مجلسا كان يضم كرد على ، وأنه كان يهجو رجلا ، فإذا به يدخل المجلس فجأة فقال له بكل بساطة : لقد كنا نعطر المجلس بذكرك قبل أن تصل .

وقال : إن شكيب أرسلان كان يمدح خصوم أسرته آل جمبلاط ، وأن كمال جمبلاط هو زوج بنت الأمير شكيب .

وعجبت كيف كانت ذاكرة خليل ثابت على هذا النحو من اليقظة فى سرد الأحداث ، ومحاولة إطرافى بمثل هذه الطرائف على طريقة الصحافة الحديثة ، فلما سألته هل ألف كتابا قال : إننى أستغرب كيف يؤلف الإنسان كتابا كما استغرب كيف يبنى الإنسان منزلا ليؤجره ..

ولنا هنا ملاحظتين : إن مقالات خليل ثابت فى افتتاحيات المقطم خلال ثلاثين عاما تعد فى نظر الباحثين من أعظم الأعمال الصحفية .

فقد ذللت لأسلوب المقال الصحفى طريقا وأسلوبا وعبارات مستحدثة .

الأمر الثانى : أن ما رواه خليل ثابت لا يؤخذ على علاته ، وفيه نظر .

* * *

أما إحسان الجابرى فهو أيضا قطعة من التاريخ الحى ، فقد كان أمير قصر السلطان عبد الحميد (قصر دولما باغجة) قبل حادث إصدار الدستور الثانى عام ١٩٠٨ ، وشهد ثورة ما يسمونه جيش الخلاص الذى زحف على استانبول من الروماللى بقيادة الضابط العراقى ، أو المصرى على بعض الروايات « محمود شوكت » .

وهرب إلى أوربا تطارده عدة أحكام بالإعدام ، وعمل مع شكيب أرسلان فى لوزان وأصدر مجلة العالم العربى بالفرنسية لخدمة القضية العربية .

وهو من حلب ، ولد سنة ١٨٨٣ ، وسجن فى استانبول فى السجن الأسود شهرين بلا سؤال ، وكان لزنزانته فتحة ضيقة ، يسقطون له منها كل يوم بعض قطع مع البقسماط وسطلا من الماء .

وقد سألته عن أعماق البسفور التى تردد كثيرا أن السلطان عبد الحميد كان يلقى إليها معارضيه فقال : إنها أكاذيب ، وأنا واثق مما أقول ، إن السلطان قد أرسل بعض معارضيه إلى سجون فى فزان أو حلب مثلا ، هذا صحيح .

أما أبو الهدى الصيادى ، فهو ــ عنده ــ ألمع رجل وأزكى رجل ، بل إنه فوق البشر فى الذكاء ، وقد يلقى القصيدة المرتجلة فى أى مناسبة .

* * *

أما ساطع الحصرى فقد لقيته رفقة صديقنا وتلميذه عبد العزيز الدسوقى ، كان فى الثمانين من العمر ، فى نزله ، وفى الطريق إلى غرفته رأيت صناديقه الضخمة وبها أوراقه ومذكراته ، لغته مشوبة بلكنة تركية تختلف عن كتاباته الناصعة . قلت له : كيف توصلت إلى هذا الأسلوب التحليلى الدقيق ، وخاصة فى المساجلات والرد على خصوم آرائك قال : إن لذلك أكثر من سبب ، لقد بدأت حياتى بدراسة العلوم الطبيعية وانتقلت فيها من علم الحياة إلى علم النفس ، ومن علم النفس إلى علم الاجتماع ، ثانيا : إننى نشأت معلما مدرسا والتعليم الحق هو تبسيط العلوم . وقال لى إنه بدأ كتاباته عام ١٩١٢ ، وترجع دعوته إلى القومية إلى وقت أن عاش فى البلقان وشهد دعوة القومية الأوربية فى فجرها ، وشغل بها ولعل هذا هو سر انفصال مفهومه للقومية عن مفهومه للاسلام كأساس ثقافى وحضارى لكل نهضة عربية .

* * *

أما أحمد ابراهيم « السراوى » فقد لقيته فى داره فى أقاصى منطقة القلعة ، لقد كان السراوى رفيق خطا محمد فريد ، يقصد إلى مكتب فلا يدعه حتى يعود فريد إلى بيته ، كان إيمانه بالوطنية بالغاً ، وقد احتمل فى سبيل ذلك غبنا كبيرا وكان آل السراوى من أهل الغنى واليسار . قصرهم الكبير فى الوايلى بالعباسية . وتجارتهم فى الأقمشة الحريرية مشهورة مذكورة . أما هو فقد هجر كل هذا . ومضى يرافق فريداً

حتى يذهب إلى بيته فى الساعة الواحدة صباحا فى شبرا ثم يعود مشيا على الأقدام حتى يصل الوايلى فى مطلع الفجر ..

فإذا جاء أهله وقالوا له : إن لهم مشكلة قضائية يرون عرضها على محمد فريد ثار وهاج : كيف تريدون أن أصرف محمد فريد عن القضية الوطنية الكبرى إلى قضية صغيرة ، وحين يقال له : لماذا لا تكتب على محلك : « متعهد نادى الحزب الوطنى » يرفض بشدة . . ويقول : إنها تكون متاجرة بالوطنية .

وقال دهشا : كيف نستغل العمل الوطنى فى كسب شخصى .

وإذا قال له الشيخ عبد العزيز جاويش : ياسراوى : لاتصرف كل وقتك ، اجعل لدنياك شيئاً ولوطنك شيئاً ، ثار مغضباً ، وقال : ياشيخ جاويش ، إن الوطنية درجات .

قلت له : كيف التقيت بالحزب الوطنى !

قال : كان ذلك يوم جمعة ، عند ما صدر العدد الأول من اللواء ، كنت أسير مع والدى ، ورن اسم اللواء على لسان بائع الصحف ، وقرأت المقال الافتتاحى ، وتركت والدى جرياً إلى دار اللواء أسأل عن « مصطفى كامل » ، هنالك قابلنى شاب طويل القامة ، أمام الدار ، يلبس ردنجوتاً ، فلما بادرته بالسؤال عن مصطفى كامل : قال ماذا تريد منه ؟ قلت : أريد أنا وهو أن نخرج الإنجليز من مصر ، فدمعت عيناه وقال : أنا مصطفى . . وعانقنى .

قلت :إن ذلك كان فى أول يناير سنة ١٩٠٠ ، قال بل فى ٢ يناير سنة ١٩٠٢ وعجبت من ذاكرته بعد ستين عاماً قال : فأدخلنى مصطفى كامل وقدم لى بعض الحلوى .

وفى سنة ١٩٢٣ كان السراوى يقود المظاهرات فى وجه سعد زغلول ويهتف « السودان قبل مصر » وكان معهم شاب أسود اللون يحملونه على الأعناق رمزاً على السودان .

لقد عمل السراوى كثيرا ، وكتب كثيراً ، وطبع كتاب « إحياء علوم الدين» للغزالى على ورق أبيض جميل . . وعاش يجتر ذكريات العمر .

• • •

أما «عزيز خانكى» المحامى فقد عمل بالمحاماة منذ ١٨٩٥ إلى مارس ١٩٤٥ ، خمسون عاما كاملة شهد فيها الأحداث وعايش التطور ولكنه لم يمت يوم اعتزل المهنة بل عاش مؤرخاً باحثا ، وما زلت أذكر أننى إتصلت به بالبريد أطلب كتابه عن أتاتورك فأرسل لى كلمتين : « إن كنت تعاهدنى على أ ترده بعد أن تقرأه أرسلته إليك ، ذلك أنى لا أمتلك إلا نسخة واحدة ، هى نسختى الخاصة » .

وقد أتيح لى أن ألقاه فى مكتبه ، فى ميدان مصطفى كامل بالقاهرة غارقاً بين كنوزه ، مدفوناً بينها ، لم يظهر لى غير وجهه . إنه يملك عشرة آلاف كتاب ، ومئات الأبحاث والقصاصات ، الموزعة على عديد من الموائد ، تتخللها صور وتماثيل ولوحات فنية ، وهو غارق بينها .

ومن خلال متابعة الإنتاج الفكرى والصحفى وجدتنى أتابعه وألهث وراء آثاره . وصفه الصحفى العجوز فى هامشه بالأهرام بأنه طاحونة تأليف ، لا يكل ولا يمل ولا تلهيه أعمال المحاماة عن البحث و « النكش » والترجمة وترتيب المستندات ، من كتبه : قنال السويس ، والقانون ، والعقار ، ترك وأتاتورك ، واقعة نزيب ، المحاكم المختلطة .

وقال إنه أنيق دقيق ، له كتب بالفرنسية ، وكتبه فى العربية عن المذاهب الأربعة والأحوال الشخصية لغير المسلمين ، وله صفحات مطوية من تاريخ مصر الحديث ، ولذعات .

وتحدث عزيز خانكى عن نفسه .

قال : عينت أول أمرى فى النيابة فى إيتاى البارود ، ولكنى ضقت بالعمل الرسمى ، وفضلت المحاماة ، وتخرجت فى فرقة واحدة مع أحمد رمزى ، ومصطفى كامل وسلامه ميخائيل . وكان يحضر دروس الشيخ محمد عبده ويطرح عليه

الأمثلة ، وقد انتصرت على سعد زغلول حين عارض فى إنشاء نقابة للمحامين .
قال سعد إنه من العيب أن يصبح المحامون ولهم نقابة كالطباخين ، فقال عزيز خانكى : ولماذا لا تكون كنقابة الأشراف ؟ وسكت سعد .

طبع ٥١ كتاباً لم يتقاضى عليها أجراً ، لم يجد هدية يهديها لابنه جميل خانكى عندما تزوج ، أغلى من مكتبة بها ٢٨٠٠ كتاب جمعها من جميع أنحاء العالم المختلفة ، ولقد أثار فى مؤلفاته عشرات من القضايا ، وقدم كثيراً من البيانات والأسانيد النافعة فى مجال البحث العلمى والتاريخ ، وفى كتابه عن المحاكم المختلطة والمحاكم الأهلية كشف عما دفعته مصر من ثمن لإبطال القضاء القنصلى إلى رجال المابين والصحافة التركية وإلى صحافة أوربا .

ومن أهم أبحاثه ما كشف به عن الكنوز المدفونة ، وهى فتاوى مفاتى الديار المصرية ، فى خلاصة أبحاث سبعة من الفحول : حسونه النواوى ، محمد عبده ، بكر الصدقى ، محمد بخيت ، اسماعيل البرديسى ، عبد الرحمن قراعه ، عبدالمجيد سليم ، وقد أشار إلى أنه فى خلال أربعة وأربعين عاما (من ٢١ نوفمبر ١٨٩٥ ـ إلى ٩ يناير ١٩٣٩) أصدروا ١٦٢٥٩ فتوى فى مختلف المسائل الشرعية ؛ وقف ، وحكر ، وإرث ، وزواج ، وطلاق ، ونفقة وطاعة وعتق وولاء . وأبان عما لهذه الفتاوى التى استخرجت من أمهات كتب الفقه من أهمية ، وقد بلغت فتاوى الشيخ محمد عبده ١٠٤٠ فتوى ، والشيخ بخيت ٢٠٢٨ فتوى والشيخ عبدالمجيد سليم ٨٤٥٥ فتوى .

وعزيز خانكى يطبع كتبه على ورق صقيل ، ويعلن عنها ليرسلها لمن يطلبها ، ويوزعها بالمجان ، وقد أرسل كتابا من كتبه إلى ألف شخص طلبوه ، ودفع لكل نسخة أجر البريد يقول ، غير أنه مما عزانى كثيراً ، أنه كتب إلى مستخدم صغير فى إحدى شركات الملاحة ببور توفيق ، وأرسل لى خمسين قرشاً راجياً أن أجبر خاطره بقبولها ، وقد رددت له نقوده . ولم يقف غلاء الحرب فى وجه مؤلفاته ، فقد ظل يطبع كتبه خلالها على أفخر ورق وفى أغلى المطابع ، ولما سئل عن أغلى مايعتز به فى هذه العشرة آلاف كتاب التى يملكها قال : إنه مصحف ، مصحف عادى . جاءته به سيدة حزينة

قالت إن لها ابناً فى فرنسا تراكمت عليه الديون ، وعجز عن سدادها ، فسجن ، وقد طلبت إلى أن أسافر إلى فرنسا لتخليصه على أن أتقاضى الأجر الذى أطلبه .

واستطعت أن أطلق سراح الشاب ، ولما عدت سألتنى ، السيدة عن الأجر الذى أطلبه فقلت : فقط كتاب ! أى كتاب ، لا شىء سوى كتاب تهديه إلى ، فاندهشت لهذا الطلب الغريب ، وخرجت فى لهفة تبحث عن كتاب وصادفها بائع متجول ، فاشترت منه هذا المصحف ، إنه مصحف كآلاف المصاحف ، ولكنه عندى أكبر (أتعاب) حصلت عليه فى قضية .

وقد عاش عزيز خانكى ليشترى الكتب ويقطع المسافات من أجل الحصول عليها .

وقد جمع عزيز خانكى بين ثقافة رجل القانون وثقافة الأديب والمؤرخ ، وأعطى من عقلية القانونى لفكر الباحث ، ومن بيان الأديب لبحث القانون ، يبدو سخائه وإيمانه بالعلم وانفاقه فى توزيع مؤلفاته بالمجان . وعاش كذلك ستين عاما فى مجال الكتابة والمحاماة وحدهما ، وكان من دعائم المحاماة فى صف : أحمد الحسينى ، وخليل ابراهيم ، واسماعيل عاصم ، وأحمد لطفى ، ومحمود أبو النصر ، وابراهيم الهلباوى .

وما تزال مذكراته وكتابه عن المحاماة فى ستين عاما لم تر النور بعد ..

* * *

وصف الصحفى العجوز (توفيق حبيب) فى عامود (على الهامش) : الطيران فقال :

« الطيارة » حمار المستقبل ، فلا غرابة ان انصرفت الأذهان اليوم إليها ، وقد عرفت مدينة القاهرة الطيران قبل غيرها ، فقد أتانا بونابرت مع الحملة الفرنساوية بمناطيد ذكرها شيخنا الجبرتى فى تاريخه ، وقال : إنهم شرعوا فى تطيير أحدها فى بركة الأزبكية . فاجتمع الناس زرافات للفرجة ، ولكن العملية لم تفلح . إذ هبط البالون إلى الأرض دون أن يصاب أحد من ركابه . ورأى آباؤنا كما رأينا لسبعين سنة المناطيد فى جو القاهرة غير مرة ، وكانت أجرة الركبة دقائق فى الطيارة خمسة جنيهات فى حفلة الطيران الكبرى عام ١٩١٠ ، وكان الشجاع من يخاطر ويركب هذه الطيارات .

وقد احتفظت السيدة توحيدة معنية ألف ليلة بصورة لها وهى فى الطيارة علقتها مفاخرة بها إلى جانب صور أخرى على جدران القهوة أيام العز والبحبحة .

وقد ركبت الطيارة لأول مرة من لندن إلى باريس ، وأعاذك الله من حداثة النعمة ، سلمونا أكياسا من الورق ، فلما علت الطياره وارتفع أزيزها ظننت الكيس طرطوراً يغطى الرأس والأذنين للوقاية من الأزيز ، فضحك الركاب فخلعت هذا الطرطور وتأملت فيه فإذا هو « جره » . . .

* * *

وفى باب « لكى لاننسى » قلت :

فى يوم ٢٥ يناير ١٩٣٠ حلق فى السماء الزرقاء أول طيار مصرى .

فاهتزت له القلوب وخفقت .. وظلت العيون متطلعة ترقبه وهو يهبط بطائرته بعد أن طار بها من برلين وحلق فوق فينا وبراغ وإيطاليا وأفريقيا الشمالية ..

إنه « محمد صدقى » الشاب خريج التجارة العليا والموظف ببنك مصر ، والذى عرف بروح المخاطرة ، فقد كان رياضيا يهوى فنونا من أعمال السباق وهو أول من اخترق طريق السويس بالموتوسكل ، ثم دخل فى سباق للسيارات ثم اتجه نحو الجو فسافر إلى أوربا وتعلم الطيران واشترى طائرة صغيرة وعاد بها طائرا ..

لقد أعاد إلى مصر روحها ، فـكانت عودته حدثا مدويا ، اهتمت به الصحف والهيئات على اختلاف أنواعها ، كان الإحساس بأن مصر قد وقفت فى صف الدول التى تحلق فى الجو ، وقالت الأهرام إن مركز مصر لا يماثله مركز للطيران فى العالم كله .فهى لصفاء جوها أفضل بلد يتلقى هذا الفن وقالت : إنه فى الساعة الرابعة من مساء يوم ٢٥ يناير اجتمعت أفواج ضخمة تترقب الطائرة ، وفى الساعة الخامسة ظهرت طائرة من جهة الشرق الجنوبى فصفق الحاضرون عند رؤيتها إذ عرفوا أنها الطائرة المرتقبة .

فلما اقتربت من المطار دارت فى الجو ثلاث دورات ثم أخذت فى الهبوط بكيفية تدل على امتلاك الطيار عنان الفن إلى أن إستقر على الأرض بسلام . والطيارة صغيرة ذات لون بنى فاتح كتب عليها حرف « ب » ورقم ١٧٥٠ (برلين - مصر) وقد تقرر إعفاءه من الرسم القانونى لـكونه أول طيار مصرى يصل إلى هذا القطر طائرا .

وقد حياه أمير الشعر « شوقى » فقال :

أعقاب فى عنان الجو لاح   أم سحاب فر من هوج الرياح
أم بساط الريح ردته النوى   بعد ما طوف فى الدهر وطاح

وقالت الديلى تلغراف اللندنية : إن استقبال الطيار المصرى كان ظاهرة مدهشة وكان لرحلته خير وقع فى قلوب الجمهور المصرى .

وقد واجه « صدقى » مغامرة ضخمة عندما طار من برنديزى فى إيطاليا لـكى يقطع المرحلة الأخيرة إلى مصر لم يلبث الجو أن تجهم وظهرت طبقة كثيفة من السحب تحت طيارته وانتشر الضباب حوله . فلما نظر إلى أسفل وجد زبدا أبيضاً ينـكسر وينثنى بعضه فوق بعض فظن أنه عند شاطىء من الشواطىء فانخفض بطائرته ولـكنه لم يكد يقترب حتى تبين أنه البحر الهائج . ورأى مركبا تغالب هذا البحر .

واستنتج أنه لابد أن تـكون طائرته قد مرت ببوغاز سيسليا وانه متجة إلى إيطاليا .. ورأى جزيرة من بعد ومراكب حربية فتيقن أنها جزيرة مالطة واتجه إليها قاصدا أن يهبط بهوق مطارها . فلما هبط سارعوا فأمسكوا به ، ولم يسمحوا له بالاقلاع إلا بعد أن

تبينوا أن « البوصلة » التى معه مضطربة فى تقدير الاتجاه ، أما الموضع الذى مر به فكان بركانا باردا إلا أن فوهته ما تزال تقذف الدخان .

وكان أكبر من رحب بالطيار « صدقى » هو المرحوم «طلعت حرب » فقد كان هو مشجعه على المغامرة الناجحة كوسيلة لخلق هذا العمل فى مصر ، بالإضافة إلى شركاته ، ومؤسساته الناجحة . وقد قدم له هدية قدرها ألف جنيه وتحدث عنه فى نادى التجارة العليا حديثا رائعا .

« عطارد »

* * *

وكتب محمد صدقى مذكراته عن رحلته فقال :

حفظت فى سن الثامنة من عمرى ، أول بيت فى الأدب :

واعلم أن المستحيل ثلاثة   الغول والعنقاء والخل الوفى

ولم يمر على حكاية العنقاء أكثر من سنتين حتى شاهدت العنقاء تحلق فى سماء هليوبوليس ، ولم تكن طيوراً بمعنى الكلمة ، ولم يفتنى التفرج عليها من يوم وصولها إلى بلادنا إلى أن رحلت ، وكنت أهرب كل يوم من البيت ومن المدرسة ومن الأهل . وأتغلغل فى حظائرها لرؤيتها فقط . وأقضى طول يومى محملقا إليها على الأرض وفى السماء وما ساءلت نفسى مرة فى كيف تطير ولامم صنعت ..

هذا ما سحرنى فى سن العاشرة ، وصرت منذ ذلك الوقت أفكر فى العنقاء وفى الطيران وفى التلحيق فى الهواء ، وبعد زيارة هذا السرب لوطننا ورحيله أتى الطيار فيدرين إلى مصر فزاد ولعى اشتعالا ، ولازمت حركاته وتنقلاته بالعين والفكر ، لا عن بعد هذه المرة ، بل عن قرب ، وما رحل عن مصر إلا وقد غرس فى أعماق قلبى حب الطيران . وأخذ هذا القلب منذ ذلك الوقت ينبض شغفا به ، ونما حبى بتوالى السنين .

ولم أهمل الرياضة قسطها . فركبت الخيل ولعبت السيف . وكرة القدم والهوكى والتنس وعمت ورفعت الأثقال ولاكمت وصارعت . وسابقت بالموتسكلات . ومرت الأيام ولم تطفىء هذه الرياضة على مختلف أنواعها شعلة حبى للطيران . وأتممت دراستى بألمانيا وعدت إلى مصر . والتحقت ببنك مصر . ولكن ذلك لم يشغلنى عن هذه الرغبة وما انتهى صيف ١٩٢٧ إلا وقد نفذ صبرى ولم أعد أطيق التردد .

وجاءت اللحظة الرهيبة . تلك اللحظة قبل قيام الطائر بأى حركة وأنا جالس فى مقعدى مقيد بها .

كانت هـذه اللحظة رهيبة على ، لا أخجل من أن أقول إنى كنت أنتفض من التأثر قبل تحرك الطائرة لا خوفا ، فإنى لم أعرف الخوف قط ولن أعرفه ، ولـكنها رهبة المتهم قبل النطق بالحـكم عليه .

دوى المحرك كالرعد المستمر ، فانتبهت أعصابى وانحصرت جميع حواسى فى ملاحظة كل ما يحدث أثناء الرحلة ، وتحركت الطائرة على الأرض أول الأمر رويداً فأسرع ، ثم أسرع وبطل كر عجلاتها على الأرض ، وقبل أن تصل إلى منتصف المطار رأيت أرضه تبعـد عنا ورأينا أنفسنا نبعد عنها ، وكان وقع صوت المحرك جميلا على أذنى ، بانتظامه ، واطمأنت له نفسى فسبحت فى عالم الخيال وتصورتنى قائداً للطائرة حراً طليق القيود حتى من جاذبية الأرض .

لله ما هذا ، أفزعنى تقطع صوت المحرك من أحلامى فانصت وازداد عدم انتظامه ، وما هى إلا لحظة حتى همـدت بالمرة أنفاسه ، فشجعت نفسى بقولى : يفعل ذلك معلمى عمداً لاختبارى ، وقد كنا فوق المدينة فعرجت نحو الحقول ، وما أشـعر إلا ومقدمها يتجه إلى أسفل وأخذت الأرض بما عليها من بيوت وأنهار وقباب وجبال تلتف أمامى كأسطوانة الحاكى بسرعة تأخذ بالألباب ، وأعجبتنى تلك الحركة البهلوانية ووجدت الأرض تقترب بسرعة ، ووقف تنفسى ، وذهبت يدى كالبرق إلى نظارتى فأزاحتها وقاية لعينى من شظايا زجاجها إن تحطمت ، وما انتهيت منها إلا والمحرك بين ركبتى من عظم الصدمة ، والطائرة بسطحيها مهشمة وأنا معلق من حزامى بما تبقى من مقعدى .

وانتظرت هنيهة ، ولم يفه معلمى بكلمة ، خفت أن يكون قد حل به أمر ، وزفر زفرة الصعداء وقال الحمد لله ، وقدكان هو أيضا فى ذهول وخوف على ، إذ أنه اعتقد أن المحرك هشمنى تهشيما ، فخرج وساعدنى على الخروج من مأزقى وفحصنى و . . .

إن هذه السقطة فى أول مرة أمتطى فيها طائرة فى حياتى قد تـكون أقوى رادع لى عن فـكرة الطيران فأتركه ولـكن مفعولها كان عكس ذلك فإنها زادت شغفى وولعى به ، ولم تؤثر على أعصابى البتة ، إذ أنى طرت مع معلمى فى نفس اليوم مرة أخرى .

ولازمني ثلاث ساعات وتسع دقائق ومن بعدها كنت أطير بالة قيادة واحدة . .

وطرت مساحات شاسعة ، وهذا ما جعل مني طياراً خشنا لا طيار مطارات فكم اضطررت إلى الهبوط على غير مطار بدون أن أسبب للطائرة أى عطب ، واستطعت أن أقود بمفردى من الطائرات أربعة عشر نوعاً مختلفاً .

☆ ☆ ☆

وجاء يوم العودة ١٣ ديسمبر ١٩٢٩ ، ودوى محركى بكل قوته فرفعت الطائرة ، وحلقت بها مرة واحدة فوق المطار مودعا ، وكانت قوة الريح عند قيامى ٦٢ كيلومتر فى الساعة على سطح الأرض تزداد بالارتفاع آتية من الجنوب الغربى إلى ضد اتجاهى وكان علو السحابة عن الأرض ٣٠٠ متر ووصلت إلى درسدن بعد ساعتين وعشر دقائق ، وكانت الغيوم منخفضة ، تكسو البلد وتدفن الاتز ، وهذا فقط يرهبه الطيار ويخشاه ، وهو جبل والغيوم كالطبقات ، تحجب الأخطار ، وما أعظم الخطر على الطيار من مصادمة جبل من تلك الجبال الشامخات .

هبطت مطار درسدن وأمضيت اليوم فى مكتب الأرصاد أرقب فتحه فى هذا المساقط الطبيعى الذى لم يسد على الطريق إلى الجنوب ، وأتى الليل والإرصاد لم تدل على أى تحسن ينتظر لليوم التالى ، ولم أنم ليلى بل أمضيته فى التفكير والبحث عن طريقة توصلنى إلى براج أو فيينا أو فنسيا رأساً فلم أجد ، وبزغ الفجر ، وكنت فى المطار أنتظر الإرصاد ، ولما لم تجىء فى أملى فكرت فى وادى نهر الألباوهو الممر الوحيد بين جبال الارتز ، من درسدن إلى تشكوسلوفاكيا .

وصارحت زملائى ، فأجمعوا على أن فكرتى هى الجنون بعينه ، أن الوادى أضيق من أن تعرج فيه طائرة دون الاصطدام بجبل من جباله . ولكنى ذهبت لساعتى على محطة السكة الحديد وأخذت تذكره إلى أوسوج ، عندحدود هذا الحاجز الجبلى بتشيكوسلوفاكيا ، لأقدر سعة الوادى أثناء مسير القطار فيه وأدرس تعريجاته لأرى بنفسى إن كان ممكنا أو مستحيلا ، وكان الوادى غنياً بصخوره العالية ، وجباله يخترق أكثر من نصفها الأعلى السحاب والضباب ، وكان المنظر مهيبا جميلا لعينى سائح تحفظ توازنه جاذبية الأرض ولا يسرع فى أكثر من ٤٠ كيلو من الساعة وتعريجاته لله ما أحدها وأكثرها .

وفى نظر الطيار ، كانت تلك الصخور سود عابسة ، يجيء كل فيها الموت الزؤام ، إن منظر الوادى كان لى موحشا قاسيا ، فعدت إلى مطار درسدن أضرب أخماسى فى أسداسى ، وبعد أن طبعت كل تعريجة وصخرة فى ذاكرتى كما علمتها على خريطة الوادى وازداد الجو رداءة بدخول منطقة سكسونيا وما جاورها تحت ضغط جديد آتى من الإقيانوس ، علمت أنه لم يبق لى إلا أحد أمرين : إما انتظار تحسن الجو ، وانتظارى قد يطول ، وإما الوادى .

ودخل الليل فرحت إلى حيث أبيت ، ونشرت خرطى ، لأحفظ الوادى عن ظهر قلب ، وطرت فوقه بخاطرى مراراً إلى أن وثقت من نفسى ، ثم بكرت إلى فراشى أريح أعصابى للغد ، وكان الغد أقل جمالا مما سبقه إذ هطلت الأمطار والثلوج بشدة ، وفحصت طائرتى ومحركها فحصاً دقيقاً ، وعزمت متوكلا على الله وعلى نفسى ودوى محركى بكل قواه من جديد يوم ١٦ ديسمبر (١٩٢٩) ولم يمكننى الارتفاع أكثر من ٥٠ متراً فوق نهر الألبا لانخفاض السحاب ووصلت إلى مدخل الوادى بعد عشر دقائق من تركى المطار ، ولم يكن منظره مشجعاً إذ لم يظهر لى صخر ولا غاب على أبعد من مائتى متر لتهاطل الأمطار والثلج بغزارة ، ولكنى لم أحجم .

وكانت كل صخرة تذكرنى بما يليها من تعريجات الوادى ان يمينا فيمينا أو يساراً ، وكانت درجة الحرارة ثمانية تحت الصفر ولكن تصبب العرق من كل جسمى . ووصلت إلى براج بعد ساعة وعشر دقائق من هذا الجنون . لم تكن مرحلة الوادى أكثر من ٨٠ كيلو متر ولكنها كانت أصعب ما طرت إلى الآن مما طرته وهو أكثر من عشرين ألف من الكيلو مترات .

نعم تحملته ذاكرتى وأعصابى وخرجت منه حيا أرزق ، ولكن تأثيره على كان عظيما فإنى قضيت يوما كاملا فى براج قبل أن أعتقد تمام الاعتقاد أنى طرته تحت السحاب لا خيالا فى غرفتى بفندق درسدن .

* * *

بكرت فى اليوم التالى إلى المطار ، ولم ينقطع تهاطل الثلوج ، وكانت أعاصيره منقطعة فوقفت طوال يومى أرقبها ، تأتى فتنعدم الرؤية وتروح كأنها لم تكن ،

وشبعت درسا وعدت إلى براج عند دخول الليل ، وجاء اليوم التالى فرآنى جالسا على مقعدى أنتظر مرور إعصار أبى إلا أن يثلج أعصابى قبل أن يرحل ، وكانت الساعة العاشرة عندما أطلقت عنان الأربعين حصانا من جديد ، فدوى المحرك كالرعد وارتفعت لفات مروحته إلى ألفى لفة ، فتطاير الثلج من الأرض أمامها وأحاط بالطائرة وزحفت الطائرة إلى الامام وتركت أرض المطار وحلقت بها لأقوم بالتجربة الأولى على حذر ، وأتى الغيم بأعصار جديد تفاديته وخرجت منه ، وشجعنى نجاح التجربة فيممت نحو عاصمة النمسا ، وحلقت أثناء مرورى بينها ثلاث أعاصير ثلجية ، وحبسنى الرابع بين عدة جبال متقاربة وضيق على نطاق الرؤية ، فلم أتردد فى الهبوط الخ ...

* * *

وإذا ذكر محمد صدقى ، فلا تنسى «لطيفه النادى» ، أول فتاة مصرية حلقت فى الجو (أغسطس ١٩٣٤) تقول : لن أنس ما حييت كيف صعدت فى الجو هناك فإذا بى وسط بحر لا أعرف له شاطئا فبينما السحاب هنا لا يزيد على بضع أقدام فى سمكها إذا بها هناك تبلغ فى السمك مئات الأقدام ، استعدت كثيراً من هذه التجارب الرهيبة فى الجو ، ومرة كنت أشهد سباقا للطيران فإذا بأحد الطيارين تصطدم طائرته بالأرض فتحترق على مرأى منا .

لقد تحقق غرضى من دراسة الطيران ، إذ أتيح لى أن أحلق بطائرات مختلفة فوق السحب ، وفى أجواء رديئة غاية الرداءة ، لقد كنت أحس فى أعماق نفسى باغتباط شديد ، إذ كنت سفيرة غير رسمية للمرأة المصرية الحديثة ، ومع ذلك فإنى أفكر فى اعتزال الطيران ، إنه يكافنى عناء شديد ، وأنا أستطيع أن أعيش هادئة البال لو أنى عكفت عنه .

* * *

الدكتور على عبد السلام خريج جامعة كمبردج ، الحاصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة ، من عجب أن يمضى عشر سنوات فى مستشفى المجاذيب ، تخرج من كلية الطب المصرية عام ١٩٢٧ ، وذهب إلى أوربا متفوقا ، فدرس فى كمبردج ، أمضى بها سبعة أعوام ، وعاد عام ١٩٣٥ يحمل دكتوراه فى فلسفة البكترولوجيا .

كان يظن أنه سيوضع فى مكانه فلم يلبث إلا عين معيداً فى كلية الطب بمرتب لايتجاوز ١٧ جنيها .. فظل يكتب الرسائل إلى الجهات المختصة ، وفى إحدى رسائله كانت بعض الألفاظ فى غير موضعها بدقة ، فوجه إليه اتهام بأنه مختل الشعور ، وأودع فى مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية عشر سنوات .

ولما خرج روى ذكرياته : أعجبتنى شخصية فيلسوف يعيش فى المستشفى منذ ستة عشر عاما ، يستطيع أن يحدثك فى كل شىء حديث الباحث المدقق ، لا ينقصه حجة ولا يصده برهان ولا يتطرق السأم إلى حديثه .

قال : إن عالم المجانين عالم عجيب غريب فيه طرائف كثيرة ، وحكايات لاتنتهى ، كنت أعيش معهم وأنا أرثى لهم ، وأبذل ما فى وسعى للتخفيف عنهم .

لاحظ أحدهم أننى أعد القهوة لنفسى فى غرفتى على وابور سبرتو ، فكان يجيئنى كل يوم يطلب منى أن أعد له فنجانا منها ويقول لى إنه كلما شرب فنجانا من قهوتى ، أخذ عقله يعاوده شيئاً فشيئاً .

ولن أنسى ما حييت ما حدث لى ذات ليلة عند ما طرق باب غرفتى عند الفجر أحد الزملاء وقال : إنه خالد بن الوليد ، جاء يطلب الرمح والحسام وسيف الله البتار ليرد الأعداء عن أسوار المدينة .

ومن بين المرضى الذين صادفتهم فى المستشفى شعراء ورسامون وأدباء وفلاسفة ومثالون .

ومرة اصطحبنى مريض إلى أحد عنابرهم ، وكانت تضم أكثر من ستين مريضا

ما أن رأونى حتى التفوا حولى يقدمون أنفسهم إلى : هارون الرشيد ، ملك الملوك ، المهدى المنتظر ، سيف بن ذى يزن ، رسول الله ، الشيخ حلاب ..

وبعد أن انتهى الجميع من تقديم مقاماتهم العالية تفضل أحدهم وأذن لى أن أقدم نفسى . فقلت أنا دكتور أى طبيب فنظر بعضهم إلى بعض قال : الله يشفيك !

وبعد ، فمن هو المجنون : قد يظن البعض أن المجنون شخص يمضى سحابة يومه غائبا عن صوابه ، يتطلع بعينين زائغتين إلى شىء مجهول ، أو مشعث الشعر ، يتكلم عن أشياء تدق على أفهام البشر ، أو هو الذى يملأ الدنيا صراخا ، والحق أنه لاهذا ولا ذاك ، فبين أفراد المجتمع العاديين أناس كثيرون من هذا النوع ، ولعل فيهم من يتولى المناصب البارزة فى عالم العقلاء ، وفيهم الشاعر ، والفنان ، والموسيقى ، والصحفى ..

إن عدد المرضى بعقولهم من نزلاء العباسية والخانكة خمسة آلاف شخص ، بين رجل وامرأة ، إن الإحصاء الدقيق الذى قمت به قد أثبت لى أن بين كل مائة نزيل خمسة عقلاء ، أما الباقون فهم خليط من المرضى الذين أصابتهم لوثة شديدة تستدعى علاجهم وإقامتهم .

٢٢

أحاديث الظرفاء والندماء

أحاديث الظرفاء والندماء

شهد العصر الذى نرسم صورته أعلاما من الظرفاء والندماء ، ترددت أسماؤهم كثيراً من أهمهم : محجوب ثابت وحافظ ابراهيم وعبد العزيز البشرى والبابلى ونجيب الريحانى وبديع خيرى، وفكرى أباظه وحسين شفيق المصرى وحسين الترزى .

وأضيف إلى هؤلاء بعض كتاب الزجل والشعر الفكاهى أمثال : يونس القاضى ومحمد مصطفى حمام ورمزى نظيم وإمام العبد . ومن عرفوا بالكتابات الفكاهية أمثال عبد الله حبيب .

* * *

ولعل من أقدم الأسماء التى ترددت فى هذا المجال الأديب الفكاهى المشهور « على الليثى » الذى كان خفيف الظل ، ظريف النادرة ، حاضر البديهة ، ورفيقه الشيخ على أبو النصر ولهما عدد من الفكاهات والتوريات الجميلة .

قال المهردار فلان الذى يعمل عند الخديو اسماعيل للشيخ : إنما نطعمكم لوجه الله فلم يلبث الشيخ أن أنشد :

عندى طحونة فى البلد للبيد تقيله على الحمار
علقت فيها التور عصى علقت فيها المهر دار

* * *

أما عبد العزيز البشرى فقد كان يؤمن بالفكاهة كفن من فنون الأدب ، وتصدر نكته فى مناسبات فتصيب المحز كما يقولون ولا يظهر عليه عادة استعداده للدعابة ، ولكنه يفاجىء الموقف بكلمة تهز الجميع .

من قفشاته أن الفريق ابراهيم باشا فتحى قال له (وكان البشرى يعمل قاضيا

إذ ذاك) ألا تعلم قول النبي : قاض في الجنة وقاضيان في النار ، فابتدره البشرى يقول على الفور : أن الله يقول : فريق في الجنة وفريق في السعير .

* * *

وكان في زيارة مع حافظ يقضيان أياما في ضيعة أحد الوجهاء .

فقام الشيخ يتوضأ وترك جبته السوداء معلقة ، فلما عاد وجد إخوانه قد رسموا عليها بالطباشير وجه حمار فنظر إليهم في هدوء وقال :

— من منكم الذى مسح وجهه في الجبة ! . .

* * *

وقابله أحد الفلاحين ومعه خطاب ليقرأه له ، وكان الخط رديئا ، فاعتذر للرجل بأنه لم يستطع فك خطه ، فقال له الرجل في استخفاف :

— أمال شيخ إيه ولابس عمه ليه ..

فأسرع الشيخ البشرى ونزع عمامته من فوق رأسه ووضعها على رأس الرجل قائلا : هذه هى العمامة ، اقرأ أنت .

* * *

وحدث أن اصطحب البشرى كريماته الصغيرات وكن يرتدين القبعات وركب معهن الترام ، فقال أحد أولاد البلد لزميله :

— شوف ياوله سيدنا الشيخ ملبس بناته برانيط زى الخواجات

فقال البشرى : أمال عاوزنى ألبسهم عمم !

وكان البشرى يبالغ في السخرية بأسلوب لطفى السيد في الكتابة ، ويقول إن التكليف عنده هو الفطرة وأن الفطرة هى التكاف حتى يظن أنه عند ما ينام يتمدد في فراشه ويقول : فلننم .

* * *

أما حافظ إبراهيم، فقد عرف بالفكاهة الطلية الرائعة .

قال حافظ : جاء رجل من القاهرة ليعبر إلى الروضة من ساحل فم الخليج ، وكان الليل قد تقدم فوجد ملاحين يغطان في نوم ثقيل ، من تعب النهار ، فمازال بهما حتى أنهض أحدهما إلى موضع المجاديف وتولى الثانى (الدفة) وأنشأ صاحب المجاديف يضرب بمجدافيه سطح الماء ، على أنه أحس شدة جفاف الحلق من أثر العطش وتناول (الكوز) ولم يعرف أن زميله قد أذاب فيه ملحا ، ليعالج أذنه واغترف به من النهر غرفة وشرب من الماء فإذا هو ملح أجاج ، فصاح من فوره بزميله صاحب الدفة ، وكان لا يزال نائما يحلم :

— ياريس عويس ، إيدك ، دخلنا المالح .

وقد عرف حافظ بنكتته المشهورة : فقد ذكروا أنه كان يلبس بدلة واحدة فلما سئل لماذا لا يغيرها قال : لأن بها صفتين من صفات الله : القدم والوحدانية .

وكانت تدور بين حافظ وإمام العبدمداعبات ، وكان إمام أسود اللون فاحما ، ومرة نزل إلى البحر فى الإسكندرية فلما خرج قال له حافظ : أنت الآن سودانى ومملح . . ولبس إمام يوما رباط رقبة أسود ، فلما رآه حافظ قال له : زرر القميص . ومرة كان إمام يكتب فسقطت نقطة حبر على الورق فسارع يقول له . جفف عرقك .

وكان سعد زغلول يدعو حافظ إبراهيم ومحجوب ثابت إلى مسجد وصيف عندما يذهب إليه ليتبادلان الفكاهات . ويتراشقان النوادر . وذات صباح قال محجوب : رأيتنى فى المنام راكبا جملا كبيرا من خلفه عدد كبير من الحمير ، ثم جاءنى رجل ومعه رسالة من كبير فسلمنى إياها .

فنظر سعد إلى حافظ وقال له : فسر لنا هذا الحلم (وكان محجوب يطمع فى أن يلى الوزارة) ، قال حافظ أما الجمل فهو كرسى النيابة ، أما الرسالة فهى تكليف له يتولى وزارة الصحة ، أما الحمير فهم هؤلاء الذين انتخبوه .

* * *

وكان شوقى يضيق بأن يقرن اسمه باسم حافظ ، وكان الدكتور هيكل قد كتب مقالا تحت عنوان (شوقى وحافظ) فغضب شوقى ، فلما عرف حافظ ذلك قال : لماذا يغضب ،

أما أسمع الناس يقولون : زفق وميت غمر ، سميط وجبنه ، خيار وفاقوس ، عسل وبصل ، أما من يكون العسل ومن يكون البصل فهذه مسألة أخرى .

* * *

وسافر حافظ لزيارة البدراوى باشا وقضاء أيام فى ضيعته فى الريف فلما أراد العودة خرج الرجل لتوديعه فالتفت إليه حافظ وقال :

يا باشا : أليس عندك عربة قديمة تعطيها لى !

وتصادف أن كان يلقى قصيدة فى مأتم،وتصادف أن نهق حمار الشيخ عبد المطلب فسأله الحاضرون الإعادة ، فقال انتظروا حتى يفرغ حمار الزميل من إنشاده ، وكان له رصيد فى البنك فكان إذا مر ليلا ، أخرج علبة سجائره وأخذ يوزع على الحراس ويقول لأصحابه :

ــ هذا لأجل أن يأخذوا بالهم من القرشين .

ومن فكاهاته مع إمام العبد ، أن إمام كان يتناوله فى المجالس عندما يغضب ويقول : حافظ هذا ، أنا الذى خلقته ، وجعلته شاعرا وبلغ هذا حافظا فطواها فى نفسه ، فقد كان إمام يعوده مرة بعد المرة ، يسر فى إذنه شيئا فيخرج له محفظته فيأخذ منها ما يشاء ، أما فى هذه المرة فما أن جاء إمام يطلب نقودا حتى قال له حافظ : من أين ، أنا يامولاى كما خلقتنى .

* * *

أما محجوب ثابت فقد عرف بحصان كان يركبه فى غدوه وروحاته أطلقوا عليه اسم مسكوينى سخرية به ، فقد كان مسكوني بطلا من إيرلندا مات جوعا ، يكنون بذلك عن هزال الحصان وجوعه ثم استبدل محجوب ثابت بالحصان سيارة ، فقال شوقى مداعبا :

لكم فى الخط سيارة حديث الجار والجاره
إن حركتها مالت على الجنبين منهاره

وقد تحرن أحيانا وتمشى وحدها تاره
ولا يشبعها من البنزين فواره

وعرف حسين الترزى بالفكاهة والنكتة الحلوة . وكان يعمل « مقصداراً » عرف بمقدرته فى إجادة تفصيل ملابس العظماء ، وكان دكانه فى شارع خيرت مقصد امراء الأدب والفكاهة والنكتة والطرب أمثال المويلحى والبابلى ، وإمام العبد والحلوانى ، وغيرهم .

وما أن اشتهر حسين الترزى بإجادة النكتة ، وسرعة البديهة وخفة الروح حتى غزا كل مجالس الفكاهة ، ولم تكن تخلو جماعة من مشاركته . وهجر صناعته وأصبح سميراً للعظماء ، ولكنه كان يعف عن القول المرذول والمتبذل ولا يعرض له .

وكانت أبرز طوابع فكاهاته «المبالغة» : فكان يداعب أحد الأطباء مثلا فيقول : إنه يعلق على باب عيادته عيان كبير زى « ركلام » .

* * *

أما حسين شفيق المصرى فقد كان له باع طويل فى تقليد اللهجات ، حتى ليخيل إليك أنه عصبة أمم شرقية اجتمع فى شخصيته أغرب مافى السورى والتركى والصعيدى والسودانى ، وتقليد أساليب المشاهير والبارزين من أفذاذ الناثرين والناظمين فى مواضيع هزلية فيجيد فيها إيما أجاده .

وقد وصف بأنه صاحب الفضل بالخروج من الفكاهة من الشخصيات إلى المسائل العامة فقد أضحك قراء العربية أربعين عاما ، وجدد فى أساليب « القفش » وأثبت أن العربية الفصحى أداة صالحة للفكاهة .

وقد أطلق مئات النكت وكان قاعدته : النكتة سلاح فى نقد المجتمع .

وكان قادراً على تقليد اللهجات ، وكان من أبرز كتاب الكشكول وصاحب دائرة المعارف الوفدية وفى (كل شىء) كتب مذكرات (فضولى) ورأس تحرير الفكاهة ١٤ عاما وحرر مجلة الأيام و . .

* * *

وكان أبرز فنونه « معارضة الشعر القديم بشعر فكاهى » يقول :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فشبرة فالبراد لم يعف رسمها ... لمن هو فيها من تهامى وفرغلى
يبيعان مشوى الطحال وتارة ... يبيعان ممباراً فخذ منه أو كل
كدأبك من أم الفلافل قبلها ... وجارتها أم الخلول يا شيخ على
مطاعم مكروباتهـا تلد العمى ... لعين كثير الأكل والمتقلل
إذا ذقت منها قطعة فكأننى ... لدى ثمرات الحى ناقف حنظل
لقد كنت ذا عز وكنت منعما ... ومن جا يقامر مرة يتبهدل
يعاجله فقـــر يدق دماغه ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

* * *

وقد أطلق على هذه القصائد اسم « المشهورات » .

يقول الأعشى :

ما بكاء الكبير بالأطلال ... وسؤالى وما ترد سؤالى
صاح نفسى مسدودة فلماذا ... لست أدرى والله ماذا جرالى
أهملونى فى المدارس حتى ... صرت مثل الحمار بالإهمال

* * *

وعن عمر بن الفارض :

خفف السير واتئد يا حادى ... إنمـا أنت سائق بفؤادى
إنما أخشى سقوطه من أتمبيلك ... فوق الأسفلت فى الحتادى
إنكم تسرعون فى الدهس من ... غير حساب على رءوس العباد

* * *

ومن معلقات زهير بن سامى المزنى :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ... بحومانة الدراج فالمتثلم
ودار لهـا فى (برجوان) كأنها ... وقد هدمت بالأمس لم تتهدم

ومن يجعل الفوزيت نصف جنيهة | فذاك طبيب فى الفلوس جهنمى
ومن خاف كسارى الترام يدوسه | ولو رام أسبـــاب السماء بسلم
ومن يمشى فى درب الجماميز ساهياً | تدسه أعجـــلاته وتخرشم
وكدت بباب الخلق أغرق مرة ، | فسر فى طريق الأزبكية تسلم
ومهما تكن عند امرىء من سراية | وإن خالها تخفى على الغنم تقسم
وما ألعن الحلاق إن كان واكلا | من البصل الحامى فأصبح قد عمى

* * *

ويعارض قصيدة هل غادر الشعراء من متردم . . فيقول :

يا دار عبلة بالعطوف تـكلمى | وابكى كثيراً دار عبلة والطمى
رفعوا إجارات البيوت فزفتوا | عيش الموظف والفتى المستخدم

* * *

وتفرد محمد عبد القدوس فى ابتداع المنلوجات الفـكاهيه كما أنه أول من لحن المنلوجات وألقاها على نغمات الموسيقى .

* * *

وعاش على الـكسار نصف قرن يمثل شخصية واحدة ، منذ سنة ١٩١٧ حتى وفاته ، هى شخصية بربرى مصر الوحيد .

* * *

وعرف فـكرى أباظة بالفـكاهة الساخرة ، ذات طابع « التهـكم » رأى بعضهم معه أكثر من نظارة فقال : إنه يحمل نظارة للمسافات ونظارة للقراءة ، ومعه نظارة ثالثة ليعرف بها نظارة المسافات من نظارة القراءة .

* * *

وكان حفنى ناصف حاضر البادرة حلو النـكتة .

طلب منه الطبيب فى مرض له ، الامتناع عن المطالعة ، ثم عاد بعد يومين فرآه يطالع فى كتاب (روح الاجتماع) .

فغضب الطبيب وقال لحفنى : ألم انهك عن المطالعة !

فابتسم حفنى : وقال لا تغضب ، فقد كنت أطالع فى الروح (أطلع فى الروح) .

* * *

ومن فكاهات أم كلثوم عندما قدم لها الدكتور الفار وكان من الشعراء قالت له : أنت بتقول الشعر ولا بتقرضه .

وكانت هناك ثنائيات الظرفاء : فكرى أباظة ومحجوب ثابت ، حافظ والبشرى ، حفنى محمود والأسمر ، بديع خيرى والريحانى

* * *

أما البابلى فقد كانت له ندوة حافلة فى حلوان . تضم حافظ إبراهيم والبشرى ومحمد المويلحى ومحمد إبرهيم هلال وأحمد فؤاد (الصاعقة) ، وقد وصف بأنه « سيد ظرفاء عصره » .

وقد كان البابلى من أسرة موسرة ، ووالده عبده بك البابلى شيخ تجار الجواهر ، وقد ورث عنه ثروة ضخمة بددها فى اللهو ، حتى رهنت أملاكه فى البنك العقارى .

وكان يؤمن بأن النكتة للنكتة . وأن النكتة سلاح ، وقد عرف بالنكات والغمزات والقفشات .

كان يلعب الطاولة مع رجل أمامه ، فلعب لعبة لم تعجب خصمه .

فسخر منه قائلا : بقى دى لعبة ياسى بابلى ، أمال إيه الفرق بينك وبين الحمار .

وقال البابلى فى سرعة : مافيش فرق بينى وبين الحمار غير (الترابيزة) .

* * *

وكان البابلى فى مجلس الغناء ، وكان المغنى يقول :

أهل السماح الملاح دول فين أراضيهم

فصاح البابلى : فى البنك العقارى (أى مرهونة)

ولقيه رجل يعرفه من اليهود ، فاستوقفه وأخذ يشكو له مرض ابنه فقال له البابلى : زوره البنك الأهلى يمكن ربنا ياخد بيده .

* * *

دعا البابلى أحد أصدقائه لحضور حفلة عقد قران صديق له وقال له الصديق إنه سيحضر الحفلة وربما أقام بحلوان ثلاثة أيام فقال البابلى : على هذا أنت تنوى أن تحضر الطلاق .

ومن فكاهاته أنه كان يزور حديقة الحيوانات مع حافظ إبراهيم ، فقال له حافظ وهما خارجان :

حاسب أحسن يحوشوك عند الباب

فقال البابلي : أظن أنت مافيش خوف عليك ، علشان فيه منك كثير هنا .

* * *

ومن فكاهات الصحافة إعلان وفاة زكي مبارك مرة وأحمد فؤاد صاحب الصاعقة مرة .

نشرت مجلة الإثنين نعى الدكتور زكي مبارك قبل وفاته بسبعة أعوام (٢ إبريل ١٩٤٥) وكتب إبراهيم عبده كلمة رثا فيها زكي مبارك ، وأجاب زكي مبارك تحت عنوان (مبارك لن يموت) .

أما أحمد فؤاد فقال : لقد جاء جماعة من الحانوطية إلى الدار وسألوا عن الميت، وكان ذهننا فارغاً من المسألة . ثم جاءت أختي وأولادها ، يسألون في فزع عن النبأ ، وكان الخبر قد نشر في جريدة الأهرام ، فذهبت أنفي الخبر ، وجلست في بار اللواء ، حتى لا ألتقي المعزيين في البيت ، فكانوا في بار اللواء كالسيل المنهمر .

كما داعبت الصحف توفيق الحكيم بزواجه قبل أن يتزوج ، ونشروا له صورة في الكوشة .. وكتبوا تحتها زواج « عدو المرأة » وجعلوا قائمة الطعام هكذا ...

حساء أهل الكهف ، دندى البرج العاجي ، عصفور من الشرق بالأرز ، خضروات أهل الفن ، فواكه شهر زاد ، قهوة زهرة العمر .. وكلها أسماء كتبه .

* * *

وأكثر ما تعتمد الفكاهة على تحريف الكلام عن مواضعه ،أو تحريف الوقائع بالنقص منها أو الزيادة فيها .

تقوم الفكاهة المصرية على : المبالغة ، المغالطة ، المستحيل ، المفاجأة ، التلاعب بالألفاظ ، تقليد اللهجات .

أما المبالغة : فالمقصود بها كل فعل أو قول يزاد فيه على حقيقة ، ويشذ على المألوف ، كأنما ترى الرجل وقد غطى رأسه طربوش واسع يصل إلى ماتحت أذنيه

أو انتعل حذاء ضخما يبدو منه كأنما وقف فى قارب صغير

والمبالغة فى القول : يعرفها العالم بالفشر ويسمونها المعر أو النتش .

أما المغالطة فهى تصوير الشىء على غير حقيقة ، إما عن جهل به ، إما تجاهل له كما ترى ، أما المستحيل فيقوم على المغالطة إلا أنه يمتاز باعتماده على شىء يستحيل وقوعه. أما المفاجأة فهى حدوث مالم يكن فى الحسبان .

أما التلاعب بالألفاظ (أى التورية) فهى أن يأتى لها بكلمة لها معنيان ، معنى ظاهر وآخر مستور ، ويكون الذى يقصده هو المعنى المستور .

* * *

وقال المازنى : إن النكتة المصرية بنت عوامل مختلفة اهمها : (١) ما اشتهر به المصريون منذ أقدم العصور من الذكاء الفطرى ، وحدة الفؤاد ، وحضور البديهة وسرعة الخاطر (٢) ماهم مفطورون عليه من الجهد المدهش ، والقدرة على التشدد والصبر والاحتمال ، ومن أعون الأشياء على الجلد أن تستطيع أن تهون الأمر على نفسك بنكتة ساخرة ، وأن تهون أمر بلاؤك ومصابك بأن تركبه بالهزل .

٢٣

رجال بين الظل والضوء

رجال بين الظل والضوء

ثلاث رجال تردد ذكرهم كثيرا فى الصحف : أحمد جوده وأحمد زيان وخليل عفيفى. أما أحمد جوده فقد آوى عبدالله نديم خلال فترةهروبه من السلطة العسكرية البريطانية بعد ثورة عرابى والاحتلال البريطانى .

أما أحمد زيان فهو الذى آوى الشيخ عبد العزيز جاويش ، خلال قدومه إلى مصر خلسة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى .

أما خليل عفيفى فهو الرجل الذى تطوع بنقل جثمان محمد فريد على حسابه فى يونيه ١٩٢٠ من ألمانيا إلى مصر ، وهو — إذ ذاك — كبير تجار مدينة الزقازيق (توفى فى مارس سنة ١٩٢٣) عرف بالعصامية والوطنية والخلق، قالت عنه مجلة اللطائف : إنه هو الذى انبرى من بين ملايين المصريين لاستحضار جثمان محمد فريد رئيس الحزب الوطنى على نفقته، وقد توفى فى مهجره ببرلين، ودفن فى مقابر المهاجرين ، فأنفق خمسة آلاف جنيه ، وأوصى ابنه ألا يذكر صنع أبيه ، وقد ارتطم فى مسعاه بقوانين ألمانيا التى تمنع نقل الجثث فاستطاع بمسعاه أن يذلل هذه الصعوبة وقصد حكومة النمسا لتأذن له بمرور الجثمان فى بلادها وحصل بعد جهد من الحكومة الإيطالية على ترخيص فى المرور ببلادها لكى يبحر من ثغر تريستا ثم قام بنفسه بالإشراف على تحنيط الجثمان ، الذى اشترك فى توديعه كل شرقى وعربى فى برلين ، وأبحرت به الباخرة حلوان من تريستا فوصلت الاسكندرية ٨ يونيه سنة ١٩٢٠ وكان الحاج خليل عفيفى حريصا على هذا الكنز الوطنى فكان يضع الصندوق فى قمرته بالباخرة إلى جانب سريره .

وقد وصفت جريدة الأهرام (٩ يونيو ١٩٢٠) المشهد فقالت :

وصلت الباخرة حلوان ، صعدوا إلى السفينه والقواطى تابوته نظرات الاستقبال ممزوجة بالأسى والأسف ، ورجعوا بالوطنى الغيور الحاج خليل عفيفى الذى أتى

بالجثة من ديار الغربة ، الرفاص طير الميناء لنقل الجثة من السفينة إلى رصيف الترسانة ، تقدم بعض من بحارة الموانى فحملوا التابوت على أكتافهم ، وكان فوق التابوت نحو عشرة من أكاليل الزهور ترافق الفقيد من أوربا .

وقد حيا «العقاد» جثمان فريد بقصيدة نشرت يوم ١٠ يونيه ١٩٢٠ فى الأهرام .

دار النـدى تذكرى القصادا   هذا فريد فى الكنانة عادا

وجنابه الأسنى عسى لك رجعة   حسنى فتخلع مالبست سوادآ

رجع الغريب وقر من وعث النوى
والـيوم ينسى الأين والـترداد

ما القـادم المحفوف إلا آية   تحيى النفوس وتوجع الأجسادا

* * *

وقد شهد المجتمع شخصيات لا تتكرر عاشت بين الظل والضوء ، من أمثال الهلباوى(١) والتفتازانى والدمرداش . أما التفتازانى فهو شيخ السادة الغنيمية يجيد الفرنسية ويكتب حديث الصيام فى رمضان فى جريدة الأهرام . له رحلات بعمامته ولحيته إلى أوربا كل عام ، وصفت داره بأنها محج البلاد العربية والإسلامية ، وكانت مائدته عامرة ، وله صداقات واسعة من البارزين من الحجاز والهند والصين والمغرب ، وكان كريما محسنا ، يفتح الاكتتابات لإعانة الأسر البائسة وله فكاهات وسخريات لاذعة ، فكان إذا قيل له إن فلانا الثرى لم يكتتب ، اكتتب باسمه ، ودفع مبلغاً كبيراً ، فيضطر جامعو الاكتتابات إلى زيارته لشكره ، فإذا به يفاجىء بالمؤامرة المدبرة ضده . .

ويتحدث عنه صديقه (ميزار مهدى رفيع مشكى) وهو رجل إيرانى الأصل من شخصيات المجتمع ظلت الصحف تردد اسمه أربعين عاما فى كل حفل وناد ومجتمع ، كلما عقدت هيئة أو تأسست جمعية ، وكان من أبرز أعضاء جمعية الرابطة الشرقية : يقول : عرفت المرحوم التفتازانى صيف ١٩١٥ فى يوم من أيام رمضان وكنت فى طريقى إلى حلوان ، عند مادخل علينا قبل أن يتحرك القطار ، وهو شاب لم

(١) تحدثنا عنه فى فصل « المحاماه »

ينتصف العقد الثالث من عمره يمتاز بلحية خفيفة سوداء ، وجبة فضفاضة بيضاء ، وكان مسيره إلى المعادى فنزل بها ، وقد دعوته إلى طعام الإفطار فى منزلنا بالعباسية فأجاب ، وكان سيف الأحكام العرفية يلمع فوق الركاب ، وكنت فى الوقت أتطفل على الشعر والنثر ، وقد أفسح لى الكاتبان : أبو شادى فى المؤيد ثم صديقى وأستاذى داود بركات فى الأهرام مجالا .

يقول عن التفتازانى : عرفته أيام الثورة يسعى إلى داره الآباء والأهلون يرغبون الوسيلة فى الإفراج عن أبنائهم فلا يخيب رجاء لسائل ، يسعى بين المحافظة والأقسام ، وعرفته فى الرابطة الشرقية ، كان فى مقدمة أعضائها المؤسسين خطيبا وداعيا ومنظما وكاتبا ومحررا ، يأخذ على عاتقه عمل كل صديق ، كان عاملا من من العوامل المهمة التى أمكنتها أن تستميل فى الشرق إلى مصر القلوب والأبصار ، كان سفره إلى الحجاز يكون عظيم الأثر ، اختاره طلعت حرب ليصحبه فى سفره بالطائرة ، لو لم يسبق يوم النعى يوم الرحيل ، عرفته الأحزاب تتطاحن ، وهوة الخلاف فيها تتسع ، فما مالت به حزبية صديق عن صديق ، صداقته للجميع ، سيما هو ، يهنىء صديقا فى مصر يزور الزقازيق مستفسرا وينزل شبين الكوم معزيا ، حتى يومه الأخير (٧ يناير ١٩٣٦) .

عندما أخذ بيدى عند قلبه ، وقال : أنظر ؛ إننى من الصباح أخشى النوبة وأشعر بهذا الخفوق ، فدعوته أن لا يرهق نفسه وأن يعود إلى البيت .

قال : أنا لم أذكر ذلك فى البيت حتى أتركهم سبيلا إلى منعى من الخروج . وفى عودته مر بصديق معزيا وآخر مودعا .

* * *

أما الدمرداش فقد كان شيخ السادة الدمرداشية ، والده أحد المماليك الشراكسة ، مصطفى صالح أغا ، أصهر إلى بيت الدمرداش ، وولى أمر الطائفة .

وقد أقيم عبد الرحيم الدمرداش شيخا للسادة الدمرداشية فى سن الرابعة والعشرين ، وظل واليا لها أربعة وخمسين عاما . ومات سنة ١٩٣٠ أى أنه رافق فترة الاحتلال البريطانى منذ أولها ، وكان كرومر حفى به ، وقد استطاع فى ظل ذلك

الجو أن ينمى موارده وأمواله : واستطاع أن يشق طريقه إلى الجاه ، وأصبح من أصحاب الثروات الطائلة ، وله صفحة سياسية فى تاريخ مصر الحديث .

وقد زار أوربا والشام والقسطنطينية وفلسطين ، وكان صديقا حفياً لمحمد عبده وسعد زغلول وفتحى زغلول وقاسم أمين وعبد الكريم سلمان وطلعت حرب والمراغى . وكانت له أحفال يقيمها تضم عديدا من كبار الشخصيات من الانجليز والأجانب ورجال الصحافة .

ووصف بأنه كان بارع الحديث مسايرا كل ندى ، واتجاه .

* * *

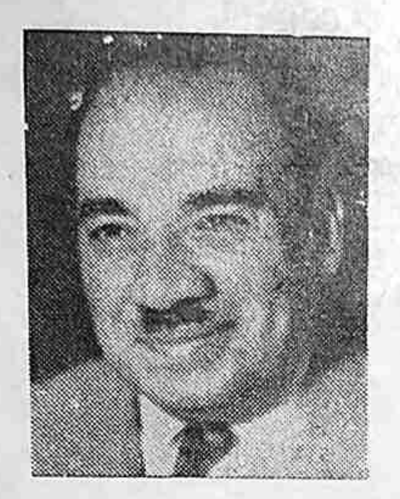
كتاب « أعلام وأصحاب أقلام »

« يمثل الحلقة الثانية من صورة المجتمع »

(قريباً)

كشاف الأعلام

موضوعات البحث



ما يزال فن رسم «صورة المجتمع» من خلال الندوة والمدرسة والمقهى وعيادات الأطباء ومكاتب المحامين ، ومن ثنايا ندوات الفن وحلقات الشعراء ، ومجالس الفكاهة وصيحات المرأة ، ورسائل الأدباء ، ورحلات المسافرين ، ما زال هذا العمل من الفنون المستحدثة فى الأدب العربى المعاصر ، وقد استطاع « أنور الجندى » بعد أن كتب أكثر من خمسة آلاف صفحة فى دراسة « معالم الأدب العربى المعاصر » ، أن يجمع هذه الخيوط الدقيقة التى استطاع أن يحصل عليها من خلال مراجعاته الواسعة لتكون « صورة » متسعة جامعة تحاول أن ترسم صورة المجتمع منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى أوائل الحرب العالمية الثانية فى قطاعاته المختلفة ، فى بضعة وعشرين حلقة ، تضم أكثر من مائتى شخصية جهيرة ، كانت تضطرب فى المجتمع خلال هذه الفترة فى مختلف مجالات الجد والهزل ، والتجربة والخطأ ، والفكاهة والنقد ، تحس خلال مطالعتها أنك تعيش هذه الفترة ، تضطرب فى أعماقها مع أهل ذلك الجيل ، متنقلا من الأزهر إلى الجامعة المصرية القديمة ، ومن قهوة متاتيا إلى الرواق العباسى ، ومن ندوة البكرى إلى بعكوكة وحيد ، ومن الفيشاوى إلى باب الخلق ، فى عشرات من الأحاديث ، والطرائف ، والصور الزاهيـــة والمظلمة ، والصفحات المشرقة والغامضة ، والشخصيات المضيئة والواقفة فى الظل .

ولقد إنتشر فن رسم « صورة المجتمع » وملامحه فى الأدب العربى الحديث إنتشاراً واسعاً ، وقصر أدبنا عن أن يحيط به فى محاولة كاملة واسعة المدى فى مجال التاريخ ، عريضة الجوانب فى مجال قطاعات الحياة حتى استطاع المؤلف أن يحقق هذا العمل ، كحلقة أولى لصورة كادت أن تضيع تتبعها حلقات تصور الجوانب السياسية والروحية والاقتصادية والأدبية ؟

الثمن ٦٥ مـ